مات ...
وما زال يقتُل

مجموعة
قصصية

إدوارد فيلبس جرجس

الطبعة الأولى

الكتاب : مات وما زال يقتل

المؤلف : إدوارد فيلبس جرجس

تصنيف الكتاب : مجموعة قصصية

تصميم وإخراج : أحمد عبد الحليم عبد الوهاب

المقاس : ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ٨٠٤٦ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي : 978 - 977 - 776 - 053 - 9

التجهيزات الفنية والطباعة

دار يسطرون

للطباعة والنشر والتوزيع

طباعة وتوزيع الكتب فى جميع أنحاء العالم

المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت -محطة المطبعة

شارع الملك فيصل - الجيزة

جمهورية مصر العربية

٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

تصميم و إخراج : أحمد عبد الحليم

رئيس مجلس الإدارة : عماد سالم

جميع الحقوق محفوظة

الإهداء

إلى حواء

الأم والأخت والزوجة والابنة والحفيدة .

البستان العبق بوروده .

edwardgirges@yahoo.com

المؤلف ؛

ليلة من ألف ليلة وليلة

****

دق هاتف موظف استقبال الفندق الذي يحمل علامة الخمس نجوم ، سارع الموظف لالتقاط السماعة :

_ هالو .

_ فندق جراند رويال.

_ تحت أمرك .

_ أريد حجز غرفة من فضلك اعتباراً من الغد .

_ تحت أي اسم سيتم الحجز.

_ مايك كيري من فضلك .

_ تم الحجز مستر كيري .

_ شكرا .

وضعت إيزابيل سماعة الهاتف وهي تتنحنح بعد أن بذلت جهدا في التحدث بصوت أشبه بصوت الرجال ، بدت فوق شفتيها ابتسامة غامضة ، بالرغم من خيوط القلق التي تجمعت فوق جبهتها ، نفضت رأسها وهي تتمتم .. لا داعي للقلق كل شيء سيسير كما خططت له بالضبط .

استقبل موظف الاستقبال مايك كيري بابتسامة مرحبة ، تليق بالأناقة التي تحيط به من كل جانب ، المعطف الثمين والقبعة التي تحمل نفس نسيجه والنظارة السوداء التي حجبت عينيه . الحقيبة السوداء الضخمة توحي بأن فترة إقامته ستطول . سار مايك بضع خطوات ثم عاد لموظف الاستقبال يرجوه أن يتصل بصديقته ويخبرها أن تلحق به في غرفته لأنه يشعر ببعض التوعك مقدما له قصاصة من الورق بها رقم هاتفها . ألقى عامل الفندق بالحقيبة السوداء داخل الغرفة وهو يتصبب عرقا ، ضحك مايك كيري قائلا :

_ أعلم أن الحقيبة ثقيلة لكن أعتقد أن هذا البقشيش كاف لأن يجفف عرقك .

شكره عامل الفندق ، استدار لينصرف ، استوقفه مايك كيري ، استدار عامل الفندق ثانية ليواجهه مستبشرا خيرا وهو لا يزال يمسك بالورقة المالية الكبيرة ، بقشيش لم يتقاضى مثله منذ أن عمل بالفندق ، بدت على وجه مايك كيري ابتسامة غامضة وسأل العامل :

_ في أي ساعة تنتهي نوبة عملك .

_ في تمام التاسعة مساء يا سيدي .

_ هل تحضر لمعاونتي في عمل بسيط تؤديه وسيكون أجرك

أضعاف هذا البقشيش ؟

انفرجت أسارير العامل عن ابتسامة واسعة رافعا يده بتحية كتحية الجندي لقائده وأجاب سريعا .

_ طوع أمرك سيدي .

_ حسنا .. قال مايك كيري جذلا .

انهمك مايك كيري في الإعداد لما يدبره ، أنهى عمله بالاتصال بموظف الاستقبال في طلب عشاء فاخر لاثنين وزجاجة من الخمر الجيد . دقت الساعة التاسعة ، لم تمض سوى خمس دقائق إلا وكان تومي عامل الفندق يطرق باب غرفة مايك كيري ، الأحلام تداعبه ، سيتقاضى مبلغا كبيرا مقابل خدمة بسيطة كما أخبره مايك كيري . فُتح الباب ، تراجع تومي عامل الفندق للخلف وهو يظن أنه أخطأ باب الغرفة ، امتدت اليد التي فتحت الباب وجذبته للداخل وهو غارق في ذهوله . حاول أن يتمالك جأشه وقد انتابه شعور الحالم الذي تتخدر حواسه ويستعصي عليه النطق ، توقع أن يرى مايك كيري لكن هذه المفاجأة لم يتوقعها . غلالة رقيقة تكشف بصراحة تامة عن نهدين فائرين ، الاسترسال في النظر إلى هذا الجسد الثائر له مفعول نهر من الخمر ، دوار انتابه وتخلخلت الأرض أسفل

قدميه ، عيناه تصعدان إلى الوجه الفاتن فتلتصقان به ، ينتزعهما لتهبطا لأسفل ، تزدادان التصاقا مع كل نقلة ، تحدقان في القدمين الحافيتين اللتين لا تقلان سطوة عما اعتلاهما ، بعد جهد تمكن لسانه من فك أسره :

_ هل أنا أخطأت في الغرفة يا سيدتي ؟

أمسكت بيده ، سار خلفها تائها في أفكاره إلى غرفة النوم ، أجلسته على حافة الفراش ، انفرجت شفتاها عن مجموعة فريدة من اللآلئ :

_ أنت في الغرفة الصحيحة ولم تخطيء .

_ لكن نزيل هذه الغرفة مستر مايك كيري وهو الذي اتفق معي على هذا الموعد .

_ أنا صديقة مايك كيري فهل يضايقك أن يكون الموعد معي ؟

_ إطلاقا سيدتي .. قال تومي عامل الفندق والدماء تكاد تمزق شراييه ، ثم أردف بصوت يميل للنعاس ، بماذا تأمرني سيدتي ؟

قالت وهي تدور أمامه دورة سلبته عقله وتركت رأسه فارغاً :

_ أنت الذي ستأمرني .. هذه الليلة أنت سيدي ومليكي وأنا جاريتك ، تأمرني فأطيع ، ستذوق معي ليلة كالتي يُحكى عنها في القصة المشهورة ألف ليلة وليلة ، فهل يرضيك هذا ، أم ترفض دعوة الحب التي أعرضها عليك .

قال وصوته بالكاد يخرج من حنجرته :

_ أعتقد أن الأرض بكاملها لا تحمل فوقها رجلا ، يستطيع رفض مثل هذه الدعوة ، لكن .. كيف ؟! .. ولماذا .. ؟! وأين مستر مايك كيري ؟

، سارت في اتجاه الحقيبة السوداء التي تتوسد أرض الغرفة والتي عانى من ثقلها منذ فترة قليلة . رفعت الغطاء فكشفت عن مايك كيري يرقد بداخلها متكورا ، قفز تومي من هول المفاجأة قائلا بصوت مبحوح وقد أفاقته المفاجأة :

_ يا ألهى .. هل فارق الحياة ؟

_ لا تخف .. إنه حي يرزق لكنه تحت تأثير جرعة كبيرة من المخدر الذي اعتاد أن يتعاطاه ، ألا ترى صدره يعلو ويهبط مع أنفاسه . وضع تومي يده فوق رأسه وهو يشعر أنه على وشك أن يفقد الوعي ، جلس ثانية فوق حافة الفراش وقال وهو ينظر إليها بعينين غائمتين :

_ أشعر بالدوار .. فهل تكرمتِ بتفسير ما أراه . منذ عدة ساعات حضر مستر مايك وحيدا مع هذه الحقيبة الثقيلة ، ثم بعدها بقليل حضرت صديقته التي تختلف عنك في الشكل تماماً ، والآن أنت في الغرفة ومستر مايك فاقد الوعي ولا أثر لصديقته ، تعرضين علىّ ليلة

ساخنة من الحب تحت أنظاره وقد يفيق في أي لحظة وأعتقد أنه لن يسره أن يجدك بين ذراعي عامل الفندق .

قاطعته بإشارة من يدها وقالت بهدوء .

_ وإذا قلت لك بأن ليلة الحب التي أدعوك إليها بناء على رغبته ؟

قفزت خطوط كثيفة من الدهشة وعدم الفهم فوق وجه تومي ، تلبد وجهه بالغباء بالرغم من ذكائه ، لم تتح له فرصة لمزيد من الأسئلة ، جذبته من يده ودفعته نحو الحمام قائلة :

_ لا تكثر من الكلام ، فكل هذا الوقت مقتطع من الليلة التي وعدتك بأنها ستكون ليلة من ألف ليلة وليلة ، هيا اغتسل وتخلى عن ملابس العمل وفوق الفراش سأقص عليك ما يوضح كل شيء .

قبل أن يدلف إلى الحمام نظر إلى الخلف وقال :

_ أشعر بالرغبة فيك تكاد تقتلني يا سيدتي ، لكن الخوف يملأ جوفي .

_ هيا أسرع بالخروج من الحمام وستجد في انتظارك كأس مثلج من الويسكي يزكي من نيران رغبتك ويقتل الخوف بجوفك .

******

حمما من النيران تلهب جسد تومي ، كل شيء فقد اتزانه ، السقف يهوي ويكاد يقترب منهما ثم يصعد مرة أخرى ، الجدران تتراقص كفتيات الباليه ، سمع عن العشق لكن

لـم يصـدق أن يكـون لـه مثـل هـذا المـذاق .. هـو الملـك فعـلا وهـي الجاريـة التـي تتفنـن لتذيقـه مـن لـذة الهـوى ، اختلـط كل شـيء أمـام عينيـه بعد أن احتسـى كأس الويسـكي الـذي أعدتـه لــه بيديهـا . سـلبت إرادتــه بالكامـل بعـد القبلــة الأولـى ، ود لـو انفتحـت كل النوافـذ ليصـرخ ويوقـظ الجميـع ليـروا فـي أي عشـق تـذوب كل خلايـا جسـده ، ألهبتـه حتـى تقطعـت أنفاسـه ، ألقـت برأسـها فـوق صـدره ، عينـاه تحملقـان فـي لا شـيء ، قالـت بنبـرة ناعمـة أحـس بأنهـا توقـظ بداخلـه رغبـة جديـدة :

_ هل أمتعتك شهرزاد يا مولاي ؟

قال وكفه تتحسس الظهر العاري :

_ أنت مولاتي وأنا خادمك المطيع .

أبعدت يـده حتـى لا يحمـى وطيـس رغبـة ثانيـة ، رفعت وجههـا وقبلتـه وقالـت بنفـس النبـرة الناعمـة :

_ مـن حقـك الآن أن تعـرف مـا خفـي عنـك ، لتعـرف مـدى قسـوة الزمـن علـى المخلوقـة التعسـة .

باختصـار شـديد ، كنـت أعمـل فـي أحـد المتاجـر الشـهيرة التـي تبيـع الملابـس الرجالـي ، عندمـا رآنـي المليونيـر مايـك كيـري، كان يحضـر كثيـرا لانتقـاء أحـدث خطـوط الموضـة ، ذات ليلـة وبعـد أن انتهيـت مـن عملـي وجدتـه أمامـي ، سـألني أن تكـون

صداقة بيننا ، سألته عن سبب رغبته في أنا بالذات ، وهو يستطيع أن يحصل على صديقة ذات مركز اجتماعي ، أجابني بغموض بأن المركز الاجتماعي لا يهمه ، لأنه يتوسم في أنني سأكون مخلصة له وأكون له وحده . أصبحت صديقته وأنا أشعر بأنني سائرة في حلم ، لكن منذ الليلة الأولى اكتشفت أنه شاذ بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، تيقنت بأنه اختارني ليمارس شذوذه معي ، اجتمعت كل شذوذ العالم في هذا الرجل ، بلغت قمتها بعد عدة أسابيع عندما أخبرني بأنه يروق له أن يمارس الحب معي بعد أن يراني أمارس الحب أمام عينيه مع رجل آخر ، وبأنه اتخذني صديقة لكي أرضخ لطلبه هذا وفي المقابل سيغدق علىّ من المال ما سيجعلني في سعة من العيش سواء كنت معه أو حتى إذا انفصلنا في يوم من الأيام . سوء أحوالي المادية دفعني للرضوخ لتنفيذ كل ما يطلبه مني ، كنت اعتدت على ما يغدقه عليّ من مال وجواهر وأصبحت أعيش في مستوً لم أكن أحلم به . منذ ذلك اليوم اعتاد كل فترة أن يضعني في حقيبة كبيرة ويأخذني إلى أحد الفنادق ، ثم يتفق مع عامل الفندق مثل ما فعل معك على أن يصعد إليه بعد انتهائه من العمل ليكلفه بعمل بسيط . لم يكن هذا العمل

سوى ممارسة الحب معي أمام عينيه ، بالطبع لم يكن عامل الفندق يرفض وهو يرى أمام عينيه امرأة يسيل لها لعاب أي رجل ، بجانب مبلغ محترم جد أ . بعد أن ينتهي عامل الفندق من مهمته يغادر الغرفة ليبدأ هو ممارسة شذوذه ، وعندما سألك اليوم لتصعد إليه كان يريدك لهذه المهمة ، وعلينا الآن أن نعود مرة ثانية لممارسة الحب لكي يراني وأنا بين ذراعيك عندما يستيقظ ، وبالطبع سيجذل لك العطاء وتغادر أنت الغرفة .. فهل رأيت قسوة مثل هذه؟

شعر تومي بأنه مسلوب الإرادة تماما وسأل بذهن شارد :

_ لكن لماذا يحضرك للفندق داخل حقيبة ، وهل أنت التي كنت بالحقيبة التي حملتها ؟

_ نعم .. أنا التي كنت بالحقيبة الثقيلة ، يضعني في الحقيبة اتقاء للفضيحة ، فهو يخشى أن ينزلق لسان عامل الفندق بالرغم من المبلغ الكبير الذي يكافئه به ، وهناك كثير من الصحف يلذ لها التشهير بالأثرياء ، وبوضعي بالحقيبة يضمن ألا يراني أحد معه في الفندق وحتى لو انزلق لسان عامل الفندق فلا أحد يصدقه والغرفة محجوزة له وحده ولم يرني أحد برفقته ، العجيب أنه بعد أن يُغلق باب الغرفة علينا يخرجني من الحقيبة ويبدأ

فـي تعاطـي المخـدرات ثـم يرقـد فـي الحقيبـة كمـا تـراه الآن .
قال تومي وهو يربت على ظهرها مشفقاً :
_ حقير جدا .
قالت والدموع تنزلق مدراراً :
_ هـل مـا لمسـته فـي جسـدي مـن حـرارة الحـب ، يحتـاج لأن يسـلك معـي مثـل هـذا السـلوك ليوقـظ رغبتـه الشـاذة .
_ حرارتـكِ توقـظ الرغبـة فـي رجـل فـارق الحيـاة ، ولا أعلـم كيـف لهـذا الماجـن يتحمـل أن يـراك بيـن ذراعـي آخـر ؟
_ هـل تصدقنـي إذا قلـت لـك بأنـي لـم أذق طعـم الحـب أبـدا كمـا تذوقتـه بيـن ذراعيـك الآن . قالـت وهـي تقبلـه وتطلـق تنهيـدة سـاخنة ، ثـم أكملـت . هيـا نعـاود الحـب حتـى تفـوز بمكافئتـك عندمـا يفتـح عينيـه ويجدنـي بيـن ذراعيـك ثـم تذهـب وتتركنـي لمأسـاتي مـع هـذا الرجـل .
أبعدها عنه برقة قائلاً:
_ لا أستطيع أن أعـاود مـرة ثانيـة بعد الـذي سـمعته وسـأتنازل لـه عـن مكافأتـه الحمقـاء .
قالت مستعطفة :
_ إذا اسـتيقظ ووجدنـي وحيـدة سـينهال علـيّ صفعـا كمـا حـدث مـرة سـابقة .. فهـل تتركنـي وقـد يقتلنـي فـي ثـورة غضبـه ، إنـه

دائما يهددني بأنني لو خالفت أوامره سيكلف أحد رجاله بذبحي كدجاجة ؟

قال تومي ووجهه مسرح لموجة من الغضب :

_ وما العمل وأنا أشعر بالاشمئزاز منه وأود لو تطبق يداي على عنقه ولا أتركه سوى جثة هامدة .

طوقته بذراعيها وهي تنظر في عينيه بإغراء وقالت :

_ اقتله يا تومي من أجلي ، فلقد أحببتك بالفعل وأود أن أقضي معك بقية عمري ، اقتله وسنهرب أنا وأنت من هنا ولن يكتشف السر أحد ، فأنا لم يرني أحد ، وأنت انتهت نوبة عملك منذ التاسعة والمفروض أن تكون غادرت الفندق .

سار تومي نحو الحقيبة التي يرقد بداخلها مايك مسلوب الإرادة ، أخذ يردد وهو يضحك ضحكة غريبة .. سأخلصك من هذا الحقير .. سأخلصك من هذا الحقير.

تعاونا معا ورفعاه فوق الفراش ، قدمت له السكين التي كانت وضعتها في الحقيبة وهي تردد بصوت خافت يضخ الإغراء في كل أحاسيسه .

_ ضعها في قلبه النجس وأرحنا منه ، لنتمتع بحبنا معا .

ارتفعت يد تومي وهوت السكين لتنفذ في قلب مايك ، لم تبدر من الجسد سوى اختلاجة خفيفة .

قدمت إليه كأس من الويسكي دفعه تومي إلى حلقه في رشفة واحدة ، لم تمض لحظات حتى كان طريح الأرض.

****

ابتسمت إيزابيل وهي تتصفح الجريدة وحلقات من دخان سيجارتها تتلوى في الهواء تردد بصوت خافت :

_ يقول الأغبياء بأنه ليست هناك جريمة كاملة ، لكنني تمكنت من تدبيرها كاملة ، والدليل على ذلك تومي الذي سيقضي بقية عمره ضيفا على السجن.. وأنا حرة طليقة أتمتع بكامل ثروة مايك كيري علاوة على بوليصة تأمين قدرها مليونان من الدولارات .

تبدأ القصة الحقيقية .. بزواج المليونير مايك كيري من الراقصة إيزابيل ، أُعجب بها وأحبها لدرجة العبادة ، أغدق عليها من الحب والحنان ما يفوق الخيال ، لم يجل بخاطره أنه تزوج من شيطانة نهمة للرجال ، تمتلك حسنا رائعا وجسدا عطشا دائما . علم بخيانتها وأهملها، اتخذ له صديقة كان يصطحبها أحيانا إلى بعض الفنادق . خشيت ايزابيل أن يطلقها وُتحرم من البذخ الذي كانت تعيش فيه منذ زواجها منه ، قررت الخلاص منه ومن صديقته لتتمتع بثروته وقيمة بوليصة التأمين وتطفئ نيران الغيرة من هذه

الصديقة، ثم تتفرغ بعد ذلك للتنقل بين أذرع عشاق حسنها ، تفتق ذهنها الثائر كجسدها عن حيلة جهنمية . في اليوم الذي قررت فيه تنفيذ جريمتها ، خرجت لتستقل سيارتها محدثة جلبة أخرجت جارتها الفضولية ، عندما سألتها عن وجهتها أخبرتها أنها ذاهبة إلى المدينة المجاورة لزيارة أمها المريضة . استقلت سيارتها وبدلت من هيئتها مستعينة ببعض الأشياء التنكرية كانت وضعتها في السيارة من قبل ، أوقفت السيارة في أحد الشوارع الخلفية بجانب فندق جراند رويال الذي كانت تعلم أن زوجها مايك يصطحب صديقته إليه أحيانا . عادت مستقلة سيارة أجره أوقفتها بعيداً عن منزلها ثم تسللت من الباب الخلفي وهي متنكرة ، اتصلت بالفندق مقلدة صوت زوجها وحجزت غرفة باسمه . كانت قد أعدت عدتها مستعينة بأحد عشاقها الذين يجيدون فن التنكر واستطاع أن يصنع لها قناعا قريب الشبه جدا من وجه مايك وشعرا مستعارا كشعره بالضبط ، كان من الصعب أن يكتشفها أحد وخاصة من كان قليل الصلة بمايك خلف هذه القطع التنكرية علاوة على معطفه وقبعته ونظارته . عاد زوجها مايك في ذلك اليوم ، قدمت له كأسا من الويسكي ، دست به مخدرا قويا قيل لها إن مفعوله يمتد

لأربع وعشرين ساعة ، رقد مايك بعدها في غيبوبة قوية ، حشرته داخل الحقيبة السوداء الكبيرة وساعدتها ضآلة حجمه . تنكرت في لباس زوجها ووضعت نظارته السوداء فوق عينيها . ذهبت إلى لفندق وتقابلت مع العامل تومي الذي كان حديث العهد بالفندق ووقع اختيارها عليه وهو يظنها مايك كيري ، اتفقت معه على أن يصعد إليها عند انتهاء نوبته في العمل في الساعة التاسعة مساء . بعد حوالي ساعة حضرت صديقة مايك كيري بناء على مهاتفة موظف الاستقبال . صعدت إليه في غرفته ، طرقت الباب وسمعت صوت يدعوها للدخول ، بمجرد أن دلفت للغرفة تلقت ضربة على رأسها من الخلف أفقدتها وعيها فورا ، ابتسمت إيزابيل وهى ترى صديقة زوجها طريحة أسفل قدميها ، أكملت مهمتها بإخفائها أسفل الفراش بعد أن حقنتها بمخدر قوي . استقبلت عامل الفندق تومي واستطاعت أن توقعه في شراك جسدها الخصب ، سردت عليه قصة صديقها الشاذ مايك كيري التي لم تكن سوى قصة وهمية من وحي خيالها ، دفعته لارتكاب الجريمة بعد أن تضافرت أنوثتها الطاحنة مع كأس الويسكي الذي خلطت معه كمية من المخدر عملت على سلب لبه . ارتكب جريمته مسلوب

الإرادة ، هوى فاقد الوعي بعد أن احتسى كأس الويسكي الذي خلطت معه المخدر وقدمته إليه بعد ارتكاب الجريمة . أخرجت إيزابيل صديقة مايك من أسفل الفراش ووضعتها في الحقيبة السوداء ، ارتدت القفاز وأمسكت بالسكين الذي طعن به تومي مايك من قبل وأغمدته في قلبها بعد أن ألبستها الغلالة الرقيقة التي كانت ترتديها عندما فتحت باب الغرفة لتومي . تسللت من الباب الخلفي للفندق دون أن يراها أحد وقادت سيارتها لزيارة أمها في المدينة المجاورة . فاق تومي من غيبوبة المخدر ، ركبه الذهول والهلع عندما وجد نفسه يرقد بكامل ملابسه، وبجانبه جثة مايك كيري والدماء تملأ الفراش ، قفز وكاد أن يغشى عليه عندما شاهد صديقة مايك ترقد جثة هامدة داخل الحقيبة والدماء تحيط بها وهو يظنها شهرزاد التي أضرمت في جسده النيران . المفاجأة والذهول ووضع الجثة المقلوب لم يدع له فرصة التحقق من الجثة وخاصة أنها كانت ترتدي نفس الغلالة التي كانت ترتديها إيزابيل عندما استقبلته بالغرفة . تذكر ما حدث بعقل مشوش ، كاد أن يفقد عقله ، فتح باب الغرفة وأخذ يعدو على غير وعي ، رآه أحد زملاءه وهو يعدو في الممر ، غادر الفندق هاربا إلى منزله .

عندما وصل إلى هناك كانت الشرطة في انتظاره وبتفتيشه وجدت بجيبه محفظة مايك كيري المكتظة بالأوراق المالية وخاتمه الماسي الثمين وساعته ومجوهرات صديقة مايك . وضعتهم إيزابيل في جيبه وهو فاقد الوعي استكمالا لخطتها في إلصاق التهمة به . لم يصدق أحد روايته عما حدث بالغرفة والتي انتهت بفقدانه الوعي . وُجهت إليه تهمة قتل مايك كيري وصديقته وسلبه ممتلكاتهما من مال ومجوهرات ، اعترف بقتل مايك لأنه ماجن وشاذ بناء على رغبة صديقته التي كان يعذبها بشذوذه ، أقسم أنه لم يقتل صديقته ، لأنها أحبها وأحبته بعد ليلة من الهوى تفوق ليالي ألف ليلة وليلة وقررا التخلص من مايك كيري ليهربا معا . كان صادقاً في قسمه لأن الجثة التي بالحقيبة لم تكن لإيزابيل ، اختلط الأمر عليه لأنها كانت ترتدي نفس غلالتها والمفاجأة لم تمكنه من التحقق من وجهها. لم يصدق المحلفون أنه بريء من تهمة قتل صديقة مايك وخاصة أن سكين الجريمة لم تكن عليها سوى بصماته والجريمتان حدثتا بعد منتصف الليل .

رفاق المقهى

****

أحداث هذه القصة وقعت منذ زمن طويل ، زمن الطربوش ، وغوازي شارع محمد علي وكلوت بك ، زمن لم نعايشه لكن سمعنا وقرأنا الكثير عنه .

****

كانت وفاة عمى « ناجي الطويل « صدمة كبيرة بالنسبة لي ، كنت في التاسعة عشر من عمري ، وبالرغم من فارق العمر الكبير ، كان ما بيننا لا يمكن أن يطلق عليه بأي حال من الأحوال سوى صداقة حميمة ، عمي ناجي الطويل كان عازباً رافضاً للزواج ، أرى فيه مدرسة الحياة ، كنت لم أزل في الرابعة عشر عندما سألته عن معنى كلمة « «نسونجي « ، نظر إلى وجهي وكأنه يراني لأول مرة ، فرقع ضحكته المميزة ، ثم سألني وهو يربت على كتفي :

_ من أي ماخور التقطت هذه الكلمة يا فتى؟

أجبت ضاحكاً :

_ لم ألتقطها من ماخور، سنوات عمرى لا تسمح لي

بالذهاب إلى المواخير ، ذات يوم عندما جاء ذكر اسمك أمام جدي ، قال ورنة الغضب تحكم صوته .. عمك ناجي عايش حياته بالطول والعرض ، دا راجل نسونجي .

تحولت ضحكته إلى قهقهة متقطعة وكأنها ينغمها ، حدق في عيني وسأل :

_ هل وصلت إلى سن البلوغ يا أنور ؟

احمر وجهي وطأطأت نظراتي نحو الأرض ، رفعت وجهي سريعاً عندما سمعته يقول غاضباً :

_ إذا رأيت احمرار وجهك ثانية سأحرمك من مجالستي .

أجبته سريعا فحرماني من الجلوس معه يعني فقداني لبهجة الحياة:

_ نعم يا عمي بلغت وأصبحت رجلاً .

عادت ابتسامته وقال وهو يربت على وجهي :

_ ما دمت أصبحت رجلاً يمكنني أن أجيبك ، جدك يصفني بأنني نسونجي ، لأنني مولع بالنساء .

قلت بسذاجة :

_ ما دمت تحب النساء يا عمي فلماذا لا تتزوج ؟!

ازدادت ابتسامته ثم تطلع إلى صور النساء شبه العاريات اللاتي امتلأت بهن جدران الغرفة وقال :

_ سأسألك عدة أسئلة وعليك أن تجيب عليها بنعم أو لا .

_ اسأل كما تشاء يا عمي .

_ هل تحب طاجن اللحم في الفرن ؟

_ نعم .

_ هل تحب أن تأكل منه كل يوم ؟

_ لا .

_ هل تحب طبق الفول بالزيت والليمون ؟

_ نعم .

_ هل تحب أن تفطر به كل صباح ؟

_ لا .

أخذ عمي يعدد أمامي أصناف المأكولات وأنا أجيبه بنعم ولا ثم توقف وسألني :

_ إذاً ماذا تريد ؟

_ أريد أن أذوق من كل المأكولات ولا يكون طعامي مقتصراً على صنف واحد .

فرقعت ضحكته وقال :

_ عظيم ، ستفهمني الآن ، النساء كالطعام كل صنف له مذاقه الخاص ، وأنا أحب أن أذوق من كل الأصناف ، ولا تكون وجبتي من النساء مقتصرة على وجبات

مـن صنـف واحـد ، ولهـذا ينعتنـي جـدك بأننـي نسـونجي.

_ الدين يقول إن هذه الأفعال من المحرمات .

_ لـو طبقنـا يـا أنـور مبدأ الحلال والحـرام علـى الأرض بحذافيره لتحـول البشـر جميعـاً إلـى أنبيـاء وقديسـين وتفقـد الدنيـا متعتها ، لـذة الحيـاة علـى الأرض مكتسـبة مـن أن كل بنـي آدم خطاء وخير الخطائيـن التوابـون ، وبيـن الخطيئـة والتوبـة تنتعش الملـذات ، وتتصـارع الفضيلـة مـع الخطيئـة ، يتناوبـان الهزيمـة والانتصـار ، وهنـاك مـن تنتهـي حياتـه بالفضيلـة ، وهنـاك مـن تنتهـي حياتـه بالرذيلـة ، وإلا فمـا معنـى أن تكـون هنـاك جنـة وجهنـم .

_ وأنـت يـا عمـي هـل سـتقلع عـن مغامراتـك النسـائية وتصيـر فـي طريـق الفضيلـة أم سـتظل للنهايـة راكبـاً هـذا الطريـق ؟

أجاب ضاحكاً :

_ يبـدو أن جـدك أفسـد أفـكارك النسـائية ، لسـت أعلـم لمـاذا يسـتكثرون علـيَّ متعـة الحيـاة ، أنـا لسـت نبيـاً أو قديسـاً ، ولـن أقلـع عـن النسـاء إلا فـي حالتيـن كلتاهمـا سـأكون مجبـراً عليهمـا . الحالـة الأولـى أن أصـل مـن العمـر عتيـاً ويفـرغ فمـي مـن أسـنانه ، وتصيـر العصـا سـاقاً ثالثـة لـي ، أنـدب وأولـول وتنتحـب كلماتـي الواهنـة .. ليـت الشـباب يعـود يومـا . والحالـة الثانيـة أن يطـرق بابـي هـادم الملـذات ، ومفـرق الجماعـات ،

ويحملونني على الأعناق إلى النهاية المحتمة على كل البشر .
قلت وأنا أنظر إليه بإعجاب :
_ أتمنى أن أتعلم الحياة مثلك يا عمي .
_ النساء خير من يعلمك الحياة يا أنور ، مغفل من يستهين بهن ، من عِشقهن تتعلم دروباً لا يمكن أن تصل إليها من أي طريق آخر ، ذكاؤهن لا حد له ، يظن البعض بأن القول الذي شاع عليهن بأن كيدهن عظيم سُبة لهن ، وهو في الحقيقة إطراء ، فلا يستطيع الكيد إلا من كان له عقل مفكر ، لكنهن لا يكدن إلا إذا غدر الرجال بهن .
استعدت هذه الذكريات وأنا في شقة عمي بعد وفاته ، رائحة أنفاسه لا تزال عالقة بالهواء . ذهبت إلى هناك يدفعني هدف ، يمكن أن أدفع بضع سنوات من عمري ثمناً له وهو الحصول على عالم النساء كما كان يطلق عليه ، مجلد ضخم دون فيه كل مغامراته النسائية .
عُدت إلى المنزل وأنا أخفي مذكرات عمي ، انتظرت متلهفاً حتى استكان الليل وهجع الجميع . قررت أن أبدأ من المغامرة الأخيرة ، عنوانها (رفقاء المقهى) وتحت هذا العنوان كتب عمي .. نُقلت للعمل بالقاهرة بناء على رغبتي ، أُلحقت بوظيفة بديوان وزارة المعارف العمومية

، انضممت إلى مكتب لم يكن به سوى رئيس المكتب وثلاثة موظفين وكنت أنا خامسهم ، الألفة التي جمعت بينهم عرفت سرها من بعد ، شيء مشترك بينهم ، النهم نحو المغامرات النسائية بالرغم من ارتباطهم بالزواج . رئيس المكتب الأستاذ «زكريا « قام بواجب التعريف ، ابتدأ بالصيرفي ، ثم عادل البرديسي ، وأخيرا فتحي جلال . احتفلوا بي وانتهى اليوم الأول وكأنني أعرفهم منذ وقت طويل . رحبت بدعوة رئيس المكتب الأستاذ زكريا للقائهم بالمقهى الذي لا يتغيبون عنه إلا للضرورة القصوى . عندما دلفت إلى المقهى كان الأربعة هناك ، نظر الأستاذ زكريا في ساعته ذات السلسلة ، وابتسم مرحباً وهو يقول :

_ لقد عرفت الآن أول صفة تميزك ، وهي احترامك للمواعيد ، صفة لا يحملها سوى الرجال ، شكرته بابتسامة وجلست ، تبارى الأربعة في إظهار الكرم الحاتمي ، لاحظت أن الصيرفي ترتفع عيناه بين الوقت والأخر نحو الشرفة التي تواجه المقهى ، فجأة وضع طربوشه فوق رأسه ونهض مستأذناً ، رأيته يهرول قاطعاً الطريق للجانب الآخر، غاب داخل باب البيت الذي كان يراقب شرفته ، نظر فتحي نحوي وهو يبتسم وقال :

_ لا تندهش ، فعندما يتلقى الإشارة من الشرفة يفقد صوابه.

هززت رأسي مستفسراً :

_ أية إشارة ؟

نظر فتحي البرديسي نحوي وقبل أن ينطق بكلمة واحدة قال الأستاذ زكريا وهو يبتسم :

_ ناجي لا يعرف هذا الطريق إياكم وإفساد أخلاقه .

قهقه فتحي قائلاً :

_ عيناه تخُبران بأنه أستاذ الأساتذة .

تركت بعض الخجل الذي لم أعرفه يوماً يأخذ طريقه إلى وجهي ، وقلت كاذباً ومموهاً :

_ لقد فهمت المقصود من تلميحاتكم ، وأنا كما يقول الأستاذ زكريا لا أعرف في هذه الأمور .

قال عادل مقهقهاً :

_ لا بأس فلتكن رفيقنا على المقهى فقط الآن ، وأنا متأكد أنك بعد الزواج بعام على الأكثر ستصبح رفيقنا في النساء أيضا . لم أحتج لوقت طويل لكي أعرف كل الخبايا النسائية لرفقاء العمل والمقهى ، هواية مشتركة جمعت بينهم ، اللقاء على المقهى ، ثم امتداد السهرة في بيت غازية في شارع كلوت بك حتى ما بعد منتصف الليل ، قد يتغيب أحدهم إذا أسعده الحظ برفيقة خاصة ، كما استطاع

الصيرفي أن يقتنص صاحبة الشرفة التي تواجه المقهى. بالنسبة لي لم أرحب بدعوتهم للمشاركة في المومسات والغوازي ، لم يكن يستهويني هذا النوع من النساء .

ذات يوم تغيب الأستاذ زكريا عن حضوره اليومي ، علمت أنه مريض ، ذهبت إلى منزله للسؤال عنه ، طرقت الباب ، فتحت والتقت الأعين دون سابق إنذار وارتعشت الشفاه دون أن تنطق ، أُنثى كاملة بكل ما تحمله الكلمة ، سألتها بلسان متلعثم :

_ حضرتك بنت الأستاذ زكريا ؟

ابتسمت وكأنها اعتادت على هذا السؤال ، أجابت بصوت يسيل عذوبة ورقة :

_ أنا زوجته .

حاولت أن أخفي دهشة لا تُخفى وقلت وقد ازداد اللسان في تلعثمه :

_ أنا آسف على إزعاج حضرتك .

_ لا داعي للأسف ، معتادة على فتح الباب ، لا أستعين بخادمة لأنني لا أستريح لوجودهن، والأولاد يقيمون مع جدتهم لأن منزلها ملاصق لمدرستهم .

أرشدتني إلى غرفة زكريا ، تأملته مفكراً ، ما الذي يدعوه للقفز على المومسات وغيرهن وهو متزوج بامرأة يمكنها أن تروي ظمأ هجير الظهيرة ، استأذنت في الانصراف ،

عند الباب مددت يدي مصافحاً ، تبادل كفها الحديث مع كفي . تعمدت أن أكرر الزيارة بعدها بيومين ، أخفيت في جيبي زهرة حمراء ، وعندما تأكدت أن زكريا لا يزال ملازماً الفراش قدمتها لها ، تلقفتها كمحرومة ، استنشق قلبها الرحيق ، تلامست أيدينا ثانية وأحسست انتفاضة قلبها . في الأيام التالية ترددت الأفكار جيئة وذهاباً داخل عقلي ، زوجة متعطشة للحب ورجل غارق في أحضان العاهرات ، قررت أن أتخذ خطوة مجنونة . غادرت المقهى في ذلك اليوم تاركاً الأربعة هناك بعد شفاء زكريا وعودته لعمله ومقهاه وسهراته ، دون أدنى تفكير وجدت نفسي أطرق بابها ، نطق وجهها تلهفاً وسروراً وكأنها تنتظر هذه الزيارة ، فوق الفراش لعنت زكريا وأبو زكريا ، ما الذي ينقصه وهو بين ذراعي امرأته ، امرأة تجمع بجسدها كل ما يصبو إليه الرجل ، خفة الظل مع حرارة الحب ، ووجه لا تمل العين من الطواف به ، وبالرغم من أنها المرة الأولى ، أحسسنا بأن عشقنا يعود زمنه لما قبل التاريخ . وجدت نفسي مندفعاً لأقص عليها كل غزوات زوجها زكريا ورفقاء المقهى ، قرأت في عينيها التشفي وهي تزيد من التصاق جسدها العاري بي ، قالت وصوتها يجمع بين الغضب واللامبالاة :

_ كنت أعلم بخيانته ، من السهل أن تكتشف المرأة خيانة من يعاشرها ، لكن لم أكن أعلم أنه انحدر إلى مستوى القاذورات . افترقنا قبل أن يحل موعد عودة زكريا ، وهي ترجوني ألا أتغيب عنها ، قلت وأنا أقبلها :

_ يمكن للشمس أن تتأخر عن موعد شروقها ، لكني لا أستطيع أن أتأخر عنك .

تكررت اللقاءات وفي إحدى المرات وجدتها مصرة على أن تكشف لزوجات عادل وفتحي والصيرفي عن ألاعيب أزواجهن . أبديت رفضاً مزيفاً للفكرة وأنا أحبذها بكل قوة ، كنت متلهفاً لرؤيتهن وفكرة وأمل يغزوان عقلي . تم لقائي بهن جميعا في منزل زوجة زكريا ، الدهشة التي غزت عقلي يوم أن تقابلت مع زوجة زكريا لأول مرة تضاعفت وأنا أشاهد كل واحدة منهن تفوق الأخرى حسناً وجمالاً ، شفاه ناضجة ممتلئة ومنفرجة دائما في دعوة للحب ، أزواج خائنون ، وزوجات يندفعن للخيانة من أجل الانتقام ، ثم ينسين الانتقام ويتحولن إلى عاشقات يذبن في الهوى . إذا أقبلت الدنيا فإنها تفتح ذراعيها ، في فترة قصيرة أصبحت عاشقاً لأربع نساء ، كل واحدة منهن تتفنن كيف تقدم من عصير أنوثتها ، عند لقائنا بمنزل زوجة

زكريا ، تركن معي أرقام هواتفهن بحجة إبلاغهن عن خيانات أزواجهن ، لم يلزم بعدها سوى مكالمة بالهاتف لكل واحدة ، ثم دعوة للقاء في منزلها ، بداخل كل واحدة رغبة معربدة كما لو كانت تعدها منذ فترة طويلة وتنتظر من يطرق الباب لتقدمها له ثائرة محمومة . بركان زوجة الصيرفي كان من نوع آخر ، يقذف حممه النارية فوق الفراش ثم يخمد للحظات ، يتحول فيها لنسمة من نسيم الربيع ، تداعب أذني بأرق كلمات الحب والهيام ، ترجوني أن أصبح زوجاً لها بعد أن تطلب الطلاق من زوجها ، في الحقيقة لم تكن همساتها تحرك في داخلي أي شيء ، رفضي للزواج مبدأ لا أتزحزح عنه ، شهيتي دائماً مفتوحة للنساء وأطماعي النسائية لا تقف عند حد ، في منزل زوجة الصيرفي خادمة عيناها تبوحان دائما برغبة وحشية ، قالت لي زوجة الصيرفي أن زوجها يتحين أي فرصة لمناوشتها ، تحركت رغبتي نحو الخادمة اللعوب ، قاومتها خوفاً من أن أفضح نفسي مع زوجة الصيرفي وأفقدها ، في إحدى المرات انهارت المقاومة تماما ، عقب نظرة للنهدين الجامحين التي تركتهما يثبان للخارج ونظرة تفوقانهما جموحاً ، عند انصرافي كانت زوجة الصيرفي تغط

في النوم كعادتها عقب ثورة العشق ، أمسكت الخادمة بيدي صامتة وصعدت بي إلى غرفة بسطح المنزل مخصصة لها ، كان لضراوتها متعة أعادت لي حيوية جامحة كجموحها ، توقدت بداخلي بوهيمية سوداء ، أصبحت أتطلع إلى الوقت الذي أقضيه مع الخادمة أكثر من الزوجات الأربع . انتهى ما دونه ناجي الطويل عن مغامرته الأخيرة في مذكراته عند هذه الكلمات ، فالموتى لا يدونون مذكراتهم . الكارثة وقعت ، زوجة الصيرفي فطنت بخيانته دون أن يدري ، الأمر بالنسبة لها كان بمثابة طعنة نجلاء ، زواجها بالصيرفي كان تقليدياً ، لم تهزها كثيرا خيانته لها ، أصبح ناجي في نظرها المجرم الحقيقي ، ما بينهما من وجهة نظرها حب وعشق لا يُنهيه سوى الموت .

****

وقف الصيرفي في قفص الاتهام ، التهمة قتل خادمته وزميل العمل والمقهى ناجي الطويل . نجحت زوجة في انتقام مزدوج ، الزوج الخائن والعشيق الأشد خيانة ، دبرت كل شيء بذكاء فائق . ذهب ناجي الطويل في موعده كالعادة ، لم يجدها في المنزل ، تركت له خبرا مع الخادمة بأنها ذهبت لقضاء الليلة مع أختها المريضة ، كانت فرصة له

وللخادمة أن يكون فراشها مسرحاً لعشقهما ، مكالمة هاتفية في المقهى للصيرفي جعلته يندفع كالمجنون دون أن يستأذن ، امرأة تطوعت أن تخبره بأن زوجته تخونه في فراشه ، تسلل إلى داخل المنزل بهدوء ، سمع الهمسات قادمة من غرفته ، تأكد من خيانتها بالفعل ، أخرج مسدسه وأفرغه في الرجل والمرأة الراقدين في نشوة فوق الفراش ، قبل أن يتأكد من خطئه بأن العاشقين لم يكنا سوى ناجي الطويل وخادمته ، مهاتفة وصلت إلى الشرطة من مجهول عن جريمة قتل ، قُبض على الصيرفي وهو لا يزال أمام جريمته . في قاعة المحكمة كانت زوجته تجلس مبتسمة ، تنتظر الحكم لتبدأ في إجراءات الطلاق .

نساء ولآلئ

****

_ هل لا نزال نعيش في فكر الزمن الماضي يا أبي ؟!

ابتسامة مغضنة على وجه الأب وقال :

_ يا «عادل» يا ولدي لا تسئ بقولك إلى الزمن الماضي ، ليتنا لا نزال نعيش فيه ، لقد كان زمناً فاضلاً ، لاتخلط بين التقدم وأفكار الحياة وتجاربها ، لا بأس وبل من المفروض أن نأخذ من الحاضر تقدمه لكن لا يجب أن نتخلى عن فكر وتجربة الأباء والأجداد ، صدقني فكر الزمن الماضي كان كنوزاً استبدلتها الأجيال الحاضرة بكومات من التراب تحت مسمى التقدم ، التقدم يمكن أن يحدث في وسائل المعيشة والرفاهيات ، لكن لا يمكن أن نغير به مكنونات الإنسان كإنسان ، أو نستبدل به الأخلاقيات والفضائل .

_ وهل زواجي من « زيزيت» سيغير من مكنونات الإنسان والأخلاق والفضيلة ؟! .

_ يا ولدي اعتدت ألا أسئ إلى أي إنسان ، لكن لا تنسَ أنك مهندس وهي راقصة .

_ الرقص مهنة كأي مهنة يا أبي ، ألم أقل إن أجيالكم لا تزال تعيش في أفكار الزمن الماضي !! .

أجاب الأب والأسف رفيق كلماته :

_ ليس العيب في الرقص ، إن اقتصر الأمر عليه ، لكن هل الثراء والبذخ الذي تعيش فيه « زيزيت» حصيلة مهنتها كراقصة فقط !!!! .

علق عادل غاضباً :

_ إن بعض الظن إثم يا أبي ، وأنا لم أر شيئاً يعيب سلوكها ، وأنت أيضاً لا تعرف عنها شيئاً ، فلماذا ترتكب الإثم يا أبي .

قال الأب بطول أناة :

_ هناك ظواهر تقابلنا في الحياة يا ولدي ، لا تحتاج لأدنى تفكير ، لأنها تعلن عن نفسها ، والنار إذا اشتعلت ، لا بد أن يكون هناك من أشعلها ، فهل هذه تحتاج إلى تفكير أو ظن أو إثم ؟!! .

قال عادل محاولاً الهرب من الحصار :

_ لكنني أحبها يا أبي ، ولا أستطيع الحياة بدونها .

قال الأب في نبرة واعظة :

_ لو حاولنا أن نفعل أو نحصل على كل شيء يروق أمام أعيننا ونتمسك به تمسكنا بالحياة لارتكبنا الكثير من المعاصي !!

قال عادل غاضباً :

_ زواجي من « زيزيت « ليس معصية يا أبي ، ألم أقل لك إن أجيالكم تعيش بالأفكار القديمة وأول هذه الأفكار التفرقة أو التمييز بين الرجل والمرأة ، الرجال ملائكة حتى لو غرقوا في المعاصي ، والنساء تدان حتى على أنفاسها .

قال الأب وابتسامة رثاء فوق شفتيه :

_ لا يا ولدي قولك جانبه الصواب ، أجيالنا قدرت المرأة وحافظت عليها ، ولا تميز ولا تفرق بين الرجل والمرأة ، لكن كما أن هناك بعض الرجال غير أسوياء فأيضاً هناك بعض النساء غير سويات ، الاثنان بشر يقفان سواسية تحت بند الصواب والخطأ .

قال عادل ونبرة عنيدة تؤكد كلماته :

_ إنني مصر على الزواج من « زيزيت « يا أبي ولن أسمح لأي سبب أن يبعدني عنها .

قال الأب بصوت الحسرة على وحيده :

_ هل تقبل « زيزيت « أن ترفع قدميها عن هذا الطريق الموحش ، وتعيش معك كزوجة فاضلة ؟!! ، لو قَبِلَتْ يا ولدي سأ قف وسط الجميع رافع الرأس وأصيح بأعلى صوتي ، من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر .

قال عادل وهو يحاول أن يرسل بعينيه بعيداً عن عيني الأب :

_ لقد عرضت عليها ولم توافق .

قال الأب وعيناه تفيضان حزناً ورأسه تهتز أسفاً :

_ لن أغلق باب الأمل في أن تعيد تفكيرك ، لكن لا تنسَ أنك إذا أقدمت على هذه الخطوة ، ستكون نهاية أبوتي لك ، وحسرة في قلب أمك ، وعارا على اسم العائلة التي توارثت الفضيلة .

****

« عادل صالح العدوي « ، شاب لم يصل إلى نهاية العقد الثالث ، نشأ في أسرة محافظة تنتمي إلى عائلة كبيرة عُرفت بالتقوى والفضيلة ، تحت رعاية عميدها « صالح العدوي « والد عادل ، لم يبخل عليه الأب ولا الأم حتى بلبن العصفورة كما يقولون ، نال من التدليل ما يكفي ويزيد ، الابن الوحيد الذي أتى بعد حرمان عشر سنوات من الإنجاب ، والوصول إلى درجة اليأس لأن تكون لهما ذرية ، ولد وفي فمه ملعقة من ذهب ، لم يبخل عليه الأب بأرقى المدارس ، وتخرج من كلية الهندسة معتلياً مرتبة النبوغ ، مما أهله لوظيفة مرموقة في إحدى الشركات الكبرى ، لم تبخل عليه الأم بالحنان والدلال الزائد الذي كان يعترض عليه الأب أحياناً ، يريد له أن ينشأ قوياً صلباً كرجال العائلة ، لكن الأم الفاضلة كانت تستطيع دائماً أن تكسب الجولة بكلمات بسيطة أمام

زوج يحبها ويقدرها بأنه الأبن الوحيد الذي رأته عيناها بعد سنوات من الحزن واليأس ، كان الأب يصمت على مضض وعن غير اقتناع ، لكن عادل لم يخيب ظنه وسار على الدرب القويم شاغلاً نفسه بالرياضة فأكسبته رشاقة وقوة ، ولم يبخل عليه الخالق بوجه جميل يجذب إليه القلوب ، وباختصار كان شاباً ملء العين والبصر ، لم يلوث رئتيه دخان ، أو يكوي حلقه كأس ، وقعت في هواه فتيات العائلة ، لكنه لم ينجذب إليهن ، ولم يضغط عليه الأب وإن كان في قرارة نفسه يود لو يختار عادل زوجة منهن معروفة الحسب والنسب . المرة الوحيدة التي خرجت فيها قدمه عن الدرب القويم أتت عليه بكارثة ، أصر زملاء وأصدقاء العمل أن يحتفلوا بعيد ميلاده في أحد الملاهي ، لم تطأ قدمه مكانا مثل هذا من قبل ، انبهر به وبكل ما حوله ، والانبهار الأكبر كان بالراقصة التي تعمدت أكثر من مرة أن تقترب منه وترمقه بنظرة خاصة ، انتهت السهرة وعاد إلى منزله لكن قلبه لم يعد معه ، لم تفارق مخيلته نظرة من أسفل أهداب جارحة ، رقد واستيقظ في الصباح وقلبه كان لا يزال هناك ، لم تنسهِ ساعات النوم نظرتها الداعية في صمت . أحس بحتمية العودة إلى الملهى ليسترد قلبه ، وليعيد النظرة

إلى صاحبتها ، خابت حساباته ، خرج في المرة الثانية أسير شباك أنوثتها وسهام رغبة متوحشة لا تزال بكراً تخترق كل خلية في جسده . بدأت حكاية عادل الذي سجنته « زيزيت « خلف قضبان إغرائها وقالت وفوق شفتيها ابتسامة شيطانية ، إن استطعت الهرب فاهرب ، لم يحاول ، رأى في سجنها الجنة التي كثيراً ما سمع حكاياتها من والده . أذاقته من فتنتها مرة واحدة ، وعندما أطلقته من بين ذراعيها كان أشبه بمدمن للمخدرات لا يتورع عن دفع حياته ثمناً لجرعة ثانية ، لكن الجرعة الثانية في مقامنا هذا كان ثمنها التوقيع على عقد الزواج شرطها الأول والأخير ، ذاقت واستمتعت بشبابه الغض وهو يضخ داخل جسدها الحب الحقيقي الذي لم تسمع عنه طوال حياتها ، منذ أن افترسها ذئب من ذئاب البشر وهي لا تزال في الرابعة عشر ، ومروراً بنزوات وشهوات وقاذورات لرجال يأخذون حق الثمن الباهظ الذي دفعوه للاستمتاع بالجسد الرخيص ومفاتنه التي تغري قديساً على هجر حياة القداسة . سألها عادل المزيد من رشفات الهوى المسكر ، سألته التوقيع على رباط الزوجية أولاً ، بعزيمة حديدية قررت أن يكون من ممتلكاتها ، حاول أن يفتش عن البديل لإدمانه مراعاة لأسرته ولعائلته ، إلى

جانب خوفه من مفاتحة الأب والمعلم والناصح والمرشد برغبته في الزواج من راقصة ، أبداً لم يعثر على ما ينسيه النشوة اللانهائية وهو يتمرغ في حضنها ، ضاقت الدنيا أمام وجهه واكتست بثوب أسود وقاتم وحزين ، تحشرجت أنفاسه التي أدمنت أنفاسها بعد المرة الأولى ، لم يعد يسمع لقلبه سوى نغمة حزينة ، لا بد من الجرعة ، والجرعة ثمنها التوقيع على عقد الزواج ، ولماذا كل هذه المتاعب والقنوط ، الثمن لا يتعدى التوقيع ، ثمن بخس مقابل نعمة ما بين ذراعيها ، فليوقع ، وليوقع أمام العالم كله كشرطها الذي لن تتنازل عنه ، وليتحدِّ كل شيء حتى لو كانت طاعة الأب ، يقولون يا روح ما بعدك روح ، لديه إحساس بأن روحه تنسحب منه رويداً رويداً وتكاد تطير بعيداً عنه .

معذرة يا أبي أُقسم بالله أنني لم أكن أود مخالفتك ، الموت أهون عندي عن الخروج عن طاعتك ، لكن ماذا أفعل ؟ ، أنت لم تجرب أن يُسلبَ منك كامل إرادتك وتسير كالتائه وكأنك تسير في دنيا غير الدنيا التي نشأت بها وتعرفها ، لم تجرب ما معنى كلمة الإدمان ، وكيف يتحول المدمن إلى مجنون يمكن أن يرتكب أي شيء حتى القتل للحصول على جرعة واحدة ، طينتك غير طينتي يا أبي ، طينة أجيالكم غير

طينـة أجيالنـا ، طينتكم تعرضت لصهد الفرن فتقوت وأصبحت صلبـة يصعب تفتيتها ، طينـة أجيالنـا لـم تصهرها النـار، تتفتت بسـهولة أمـام أي ضغطـة مـن ضغطـات الحيـاة وتجاربهـا وقسـوة امتحاناتهـا ، سـامحني يـا أبـي ، سـأتزوج « زيزيـت « وتخيـل أنـك لـم تنجبنـي ، أو أن المـوت اختطفنـي صغيـراً .

****

صعـب .. صعـب .. الموقـف فـي غايـة الصعوبـة ، « صالـح المعداوي « سـجن نفسـه بعد زواج ابنه « عـادل « من الراقصة « زيزيـت « ، لـم يحضـر حفـل الـزواج سـوى بعـض الأصدقـاء ، لـم يقتـرب مـن بابـه أحد مـن أسـرته ، بـل أعُلـن الحـداد داخـل العائلـة ، عـادل مـات أو فـي عـداد الموتـى ، خـرج ولـم يعـد ، تـرك محـراب العائلـة وسـكن فسـق الملاهـي ، تـزوج مـن راقصة تكبـره بخمسـة أعـوام ، وثـروة أتـت مـن الحـرام لا تحصـى ولا تقـدر ، لا يجـب أن نظلمـه ، الثـروة أبـداً لـم تكـن هـي الجـاذب لـه ، الجسـد القاهـر جـذب كل عروقـه وأوردة الحيـاة بداخلـه ، المـرة الأولـى التـي ذاق فيهـا معنـى كلمـة الأنثـى كانـت مـن خـلال ذراعيهـا ، امتـص ثديهـا فأعـاده إلـى الطفولـة وثـدي أمـه ، الطفـل الكبيـر توسـد وسـادة النشـوة وأصبـح مـن الصعـب جـداً بـل مـن المسـتحيل انتزاعهـا مـن أسـفل رأسـه ، الأب المسـكين

لا يفهم كل هذه الأشياء ، لم ينظر إليها كمرض أو فايروس يصعب علاجه بالنسبة لابنه صاحب المشاعر العذراء البكر . توارى « صالح المعداوي « بين الجدران كمرتكب لجريمة أو لعار ، يشعر بالخزي ويرفض أن يكشف وجهه أمام العائلة وهو عميدها ، حاولت زوجته أن تهون عليه الأمر ، لكن رجولته منعت عليه الفضفضة بدموع تحرق داخله ، كتمها كنار لا تبرد ولا تنطفئ ، فاجأ زوجته ذات يوم بقراره الذهاب إلى أمريكا ، ليقضي بقية عمره بجانب أخيه وزوجته وأولاده الذين هاجروا منذ فترة طويلة ، فقد تعينه الغربة على رتق جرحه ، أيضاً ستعفيه من الظهور أمام أناس يضحكون أمام وجهه ويتغامزون خلف ظهره ، شق على الزوجة أن تترك بلدها ووطنها وعائلتها وابنها الذي تحاول أن تتشمم أخباره من بعيد ، وأمل يراودها في لقاء معه حتى لو من وراء علم زوجها ، قلب الأم وعاطفتها يغفران له نزوته حتى لو حطمت هذه النزوة كيان العائلة ، أمام إصرار الأب كان الرحيل ودموع تملأ الجِرار ذرفها خلسة وذرفتها الأم علانية

****

العسل حلو جداً ، والغيرة قاسية جداً ، وبين حلاوة العسل وقسوة الغيرة ، يحاول رفض أن تعيش حياتها وشفاه أخرى

ترتشف من عسلها ، اشتباكات تبدأ عنيفة وتنتهي بالصمت والخنوع والاستسلام أمام جرعات التأديب التي تناله بين الوقت والآخر ، يعود إلى الطفل الطائع الذي يلهيه ثدي أمه عن كل شيء حوله ، مناقشات وحوارات تدور كتحصيل حاصل ،لا تبالي لتأكدها من أنها تقبض على زمام اللجام بيد قوية وحاكمة ، ولأنها تعلم جيداً أنه أصبح غير قادر على تقيؤ إدمانه وعلى استعداد أن يزحف في الطين من أجل جرعة ، دارت بينهما ذات مرة مناقشة إثر عودتها قرب الفجر :

_ لماذا صممتِ على الزواج وأنتِ تسلكين هذا السلوك ؟!

أجابت « زيزيت « وهي تهز كتفيها :

_ أعتقد أنك كنت متلهفاً على الزواج أكثر مني ، وأنك لم تتزوجني كراهبة من داخل الدير ، لكن كراقصة من داخل ملهى !!

_ نعم لم أنس هذا، لكن كنت أظن أن ثوب الراقصة فقط هو الذي سيبقى ، أما باقي الأثواب ستودعينها صندوق القمامة .

قالت بلهجة متهكمة :

_ وهل كنت تظن أن والدك سيغدق علينا بمعيشة كالتي نعيشها ؟! ، انظر حولك لتعرف أننا نعيش في مستوً يسير على قدم المساواة مع أكبر مسئول في البلد ، فلماذا نخسر كل هذا ؟!!

أجاب عادل ونظرة صارخة تستنكر صراحتها الفجة :

_ من أجل أن تكوني زوجة لرجل يحبك وأسرة وأولاد !! .
قالت بلهجة أكثر تهكماً :
_ ثم أستجدي لتبديل سيارتي ، أو لأشتري فستانا أو قطعة حلي ، ومشيرة بإصبعها ، انظر إلى هذه الحلي ، ملكة بريطانيا لا تقتني مثلها .
_ هناك فرق بين الحلال والحرام ؟!
أربد وجهها ، وقالت ونظرة كحد الخنجر تنطلق من عينيها :
_ منذ أن تزوجتني وأنت تغوص في الحرام ، كنهم أو جائع لم يذق طعاماً طوال عمره ، فما الذي نكأ جراح الشرف داخلك هذه الليلة ، ومن أجل هذا سأعفيك من الحرام هذه الليلة وسترقد وحيداً كدواء لجراح الكرامة التي بدأت تنزف .
قفز كمن لدغته حية ، أمسك بيدها يقبلها ، كاد يهبط حتى القدم ، يصرخ كطفل أبعدوه عن ثدي أمه وهو لم يشبع بعد ، يستعطفها ألا تلفظه من حضنها ، ألا تحرمه من جرعة الإدمان التي اعتاد عليها كل ليلة حتى لو شاركه فيها أحد قبله ، شمة واحدة كافية أن تعيد إليه ارتخاء أعصابه ، وتحلق به في جو من السعادة ، لا تحرمينني أيتها القاسية ، لقد قبلتها مهما كانت ، فأنا من المؤمنين بالاشتراكية حتى لو كانت في جسدك ، دفعته القاسية ، حكم التأديب صدر ولا

عـودة فيـه ولا اسـتئناف ، رقـد ودمـوع الأطفـال تمـلأ مقلتيـه ، يؤنـب لسـانه الـذي أوقعـه فـي مصيبـة الانتظـار إلـى فجـر اليـوم التالـي لينـال الجرعـة ومـن يـدري فقـد تطـول فتـرة التأديـب !! .

****

الغربـة موحشـة ، وألـم فـراق الأهـل والأحبـاب ، والقلـب الممزق علـى وحيـده الـذي عصـى طاعتـه ، تـزوج زواجـة كالمـوت ، نعم زواجـة المـوت ، ثـلاث سـنوات قضاهـا « صالـح المعداوي « فـي الغربـة لـم يـر فيهـا وحيـده ، لـم يسـمع صوتـه ، لـم يهنـأ بحفيـد كان يحلـم بـه ، حتـى الإنجـاب تمـردت عليـه « زيزيـت « ، قالـت لـه إنهـا لا تفكـر مطلقـاً فيـه الآن ، يجـب أن تشـبع مـن الحيـاة والشـهرة وتُتخـم مـن المـال قبـل أن تفكـر فيـه ، فـي الحقيقـة كان عـرض عـادل بالنسـبة للإنجـاب عرضـاً واهيـاً ، فهـو أيضـاً يريـد أن يشـبع مـن مفاتنهـا قبـل أن يفسـدها الحمـل والـولادة ، الوقـت الـذي يقضيـه معهـا بعـد عودتهـا فجـر كل يـوم لا يُشـبع نهمـه ، الغيـر يمتلكـون جسـدها وهـو مجـرد ضيـف لوقـت قصيـر تكـون فيـه منهكـة ، شـيطان الرغبـة فيهـا امتلكـه وارتضـى أن يكـون الـزوج المخـدوع بعلمـه ، كلمـات الحـب والغنـج التـي تهمـس بهـا فـي أذنـه وهـى تتثـاءب أعمتـه عـن أنـه يقـف علـى هاويـة الرجـال ، حبـذ فكـرة عـدم الإنجـاب ، حتـى لا يشـاركه فيهـا طفـل

لـه احتياجاتـه الخاصـة ، بفكـر غريـب وشـاذ تقبـل أن يشـاركه فـي جسـدها الغيـر ، استسـلم لهـذا الفكـر بـل وكيفـه بمـا يرضـي رغبتـه العاشـقة ، وبأنهـا دائمـاً تكـون لـه فـي آخـر الليلـة ، ولا تـزال تحبـه ، تبـرر لـه انحرافهـا المخجـل علـى أنـه مجـرد عمـل لا أكثـر تجنـي مـن ورائـه مكاسـب طائلـة تزيـد مـن كومـة ثروتهـا ضمانـاً للمسـتقبل ، صَـدقَ أو لـم يصـدق لا يهـم لكنـه تقبلـه مقتنعـاً نفسـه بأنـه الصـدق ، مـرات كثيـرة يتمـرد عليهـا فـي صمـت وعلـى نفسـه علنـاً فـي غيابهـا ، يتذكـر أبـاه وأمـه ، يفتقدهمـا ويشـعر بطوفـان مـن الوحشـة ، لكـن أسـرِه كان مـن النـوع الثقيـل ، أسـر لا مهـرب منـه إلا بالمـوت . كـم سـالت دمـوع الأب خلسـة أيضـاً وخيالـه يسـرح فـي ابنـه العـاق الـذي حرمـه مـن متعـة حفيـد يحمـل اسـمه . ذات يـوم كان الأب يطالـع الصحـف المصريـة كإحـدى وسـائله التـي يقطـع بهـا وقـت الغربـة ، فجـأة هـب واقفـاً وقـد طـار عقلـه ، حادثـة بالجريـدة ، تقـول إن رصاصـات أُطلقـت علـى الراقصـة « زيزيـت « وزوجهـا « عـادل صالـح « ، النتيجـة مصـرع الراقصـة وإصابـة الـزوج إصابـة خطيـرة ، فـي سـاعات كان يجلـس داخـل الطائـرة المتوجهـة إلـى القاهـرة ، فـي المستشـفى الـذي يرقـد بهـا ابنـه علـم أن الإصابـة أنهـت علـى إحـدى « كليتيـه « و الأخـرى فـي حالـة خطـرة ، ولا

توجد سوى « كلية «واحدة من متبرع لا تطابق أنسجتها « كلية « عادل ، تقدم الأب طالباً التبرع بإحدى « كليتيه « لابنه ، تطابقت الأنسجة لكن للأسف التقرير أوضح أن إحدى كليتي الأب تعمل بصورة جيدة والأخرى كفاءتها ضعيفة جداً ، ولهذا لن يستطيعوا انتزاع « كليته « السليمة وتركه يواجه الموت بكلية واحدة ضعيفة ، أصر الأب وهدد بالانتحار إن لم يُقبل تبرعه بكليته السليمة لابنه ، وقع على قبوله التبرع تحت مسئوليته ، أُجريت العملية وتمت بنجاح دون أن يعلم عادل أنه يحمل بداخله « كلية « من أبيه ، بناءً على رجاء الطبيب تقابل الأب والابن كل واحد يرقد على فراش ، تولت الابتسامات الضعيفة مهمة العناق وتبادل الأشواق ، حاول عادل حتى سمحت حنجرته بخروج كلماته الواهنة:

_ سامحني يا أبي .

بصوت أضعف من الوهن قال الأب :

_ قلب الأب لا يعرف سوى التسامح يا عادل .

_ أريد أن أشعر بأنني عدت إلى منزلتي القديمة في قلبك ، فأهدني نصيحة من نصائحك التي كانت تلازم كل خطواتي قبل وقوعي بين براثن الشيطان .؟

قال الأب وعلى وجهه ابتسامة تحاول الهرب :

_ إذا فكـرت فـي الـزواج ثانيـة تذكـر قـول سـيدنا سـليمان « امـرأة فاضلـة مـن يجدهـا ثمنهـا يفـوق اللآلـئ .

دمـوع حـارة كسـيول الصيـف انهمـرت تغسـل وجـه عـادل ، وامتـدت يـد لتسـحب المـلاءة البيضـاء فـوق وجـه الأب !! .

تمت

امرأة العزيز

****

_ لا تقرص على الزهر يا أستاذ حكيم .

قهقه حكيم قائلاً :

_ أنا لا أداعب الزهر يا أستاذ عادل ، دائماً تُرجِع هزيمتك إلى مداعبتي للزهر ، إننا عائلة طاولجية ، ورثنا المهارة في لعبة الطاولة أباً عن جد .

علق الأستاذ عادل مقهقهاً وهو يحاول أن يقلد الأستاذ حكيم في القرص على الزهر قائلاً :

_ يبدو أن الزهايمر أصابك مبكراً ، هل نسيت فوزي الباهر بالأمس .

حوار دائم بين الأستاذ حكيم والأستاذ عادل منذ أن تعارفا وصارت القهوة ملتقاهما اليومي ، لا يكسر هذه القاعدة سوى ظرف طارئ .

تعارفهما وليد عدة أشهر وحدث بالصدفة البحتة ، عندما انزلقت قدم الأستاذ حكيم على رصيف المقهى الذي لم يكن من رواده ، قفز الأستاذ عادل وأنهضه وأصر أن يصطحبه في سيارته إلى المستشفى القريب ، لكن الإصابة كانت بسيطة لم تتعد التواء في القدم ولم تحتج لأكثر من رباط ضاغط

. عاد به الأستاذ عادل إلى المقهى ثانية ، تجاذبا أطراف الحديث ، لينتهي بمباراة حامية في الطاولة ، أصر بعدها عادل أن يصطحبه بسيارته إلى منزله. منذ تلك الليلة عرف الأستاذ حكيم الطريق إلى المقهى واحتفلت الشلة بانضمامه. ترك الأستاذ حكيم الزهر من يده قبل أن تنتهي المباراة وقال وهو ينظر إلى الجميع وعلى فمه ابتسامة تشي بتعجبه :

_ ألا يذكركم ما وقع منذ أيام بقصة امرأة العزيز ؟

بدت في عين الأستاذ عادل نظرة مستفهمة وقال :

_ من هي امرأة العزيز ؟

تنقلت النظرة المتعجبة داخل عين الأستاذ حكيم بين وجوه الشلة واستقرت فوق وجه الأستاذ عادل قائلاً:

_ ألا تعرف من هي امرأة العزيز ؟ ، لقد جاءت قصتها في كتب الأديان السماوية ، انقلبت النظرة المتعجبة إلى ضحكة وأردف قائلاً : تصدق يا أستاذ عادل حتى الآن لا أعرف ما هي ديانتك !!!

أجاب الأستاذ عادل مقهقهاً :

_ ولا أنا يا أستاذ حكيم لا أعرف ما هي ديانتك !!

علق أحد أفراد الشلة قائلاً :

_ عدة أشهر مرت على تعارفكما وأنتما تجهلان ديانة بعضكما ؟!!

عادت النظرة المتعجبة بقوة أكبر إلى عين الأستاذ حكيم

ودارت على أوجه أفراد الشلة وانتهت إلى وجه السائل وقال :
_ هذا الموضوع لم يرد في ذهني وأعتقد أنه لم يرد في ذهن الأستاذ عادل أيضاً ، حياة البشر مبنية على العلاقات الإنسانية ، أما النواحي الدينية فهي علاقة الإنسان بخالقه ، عندما انزلقت قدمي أمام المقهى وقام الأستاذ عادل بحملي في سيارته سريعاً دون سابق معرفة إلى المستشفى ، ما دفعه إلى هذا السلوك هو إنسانيته والعلاقة الصحيحة التي يجب أن تكون بين البشر ، بغض النظر عن أي عوامل أخرى ، العوامل الإنسانية لو وجدت داخل الإنسان كافية لكي تنشيء أقوى العلاقات ، أعتقد أن سؤال إنسان عن ديانته بالضبط كسؤال سيدة عن لون ملابسها الداخلية ، الديانات داخل الإنسان وليس خارجه والسؤال عن أي ديانة يعتنق لا معنى له ، ثم غامزاً بعينه وموجهاً حديثه نحو السائل : انهض واسأل هذه السيدة الجميلة التي تسير على الجانب الآخر عن لون ملابسها الداخلية ، وعد احكِ لنا كيف كانت الإجابة ؟!! .
تعالت التعليقات والضحكات من كل أفراد الشلة ، وقال الأستاذ عادل وهو يحاول أن يكبح جماح ضحكة لا تريد أن تتوقف :
_ معك حق في كل ما قلته يا أستاذ حكيم ، الإنسان وإنسيانته ، والديانة وخالقه ، لكن أعتقد أنه لو كانت مرت مناسبة

دينية خلال هذه الأشهر كانت ستجيب دون سؤال ، وعموماً من باب العلم بالشيء فقط ، أنا مسيحي أرثوذوكسي .
قال الأستاذ حكيم مع ضحكة وحركة كوميدية من رأسه :
_ وأنا مُسلم حنفي ، أنت مسيحي وأنا مسلم ، ولم نعلم هذه المعلومة سوى الآن ، فهذا الموضوع كما قلنا ليس من شأن أي واحد منا ، ولا يجب أن يدخل في سياق تعاملاتنا ، التعامل في الدنيا أن نقدم إنسانيتنا في أحلى صورها إلى بعضنا البعض في جميع الاتجاهات ، أما مسلم ومسيحي ويهودي وما تلاهم من مذاهب وتفرعات أتت على أيدي البشر ، ليس هو ما نقدمه إلى بعضنا البعض ، لأن ليس لها سوى اتجاه واحد لا يقبل التبديل أو التحوير ، اتجاه عمودي من الأرض إلى السماء ، طرفاه محددان بالفرد والله وليس الجماعة والله .
صاح أحد أفراد الشلة مصفقاً :
_ الله .. الله يا أستاذ حكيم ، والله ما تقوله أنغام .. مزيكا ، غنوة وطرب .
وعلق واحد آخر من الشلة وهو يغمز بعينه :
_ ياأستاذ ، أنغام ومزيكا ، وغنوة وطرب ، هل تريد أن يسمعنا واحد من إياهم ويتهمنا بالكفر ولا مانع بالفجور ، ونحن نتحدث عن الطرب والموسيقى .

ضحك الأستاذ حكيم قائلاً :

_ عندك الحق يا أستاذ ، أصبحنا الآن نسمع من المساخر الكثير والكثير ، وبهذه المناسبة سأروى لكم واقعة جميلة ، كنت أقود سيارتي عندما لمحت « قساً « يقف منتظراً مرور تاكسي ليستقله ، توقفت إلى جانبه وناديته لكي يركب إلى جانبي ، تردد بعض الشيء ثم فتح الباب وركب وهو يردد بخجل .. شكراً .. شكراً .. لا أريد أن أتعبك ، رحبت به وسألته عن وجهته فأخبرني أنه ذاهب إلى كنيسة مارجرجس ، ابتسمت في داخلي وأنا ألاحظ أنه يرمقني من ركن عينه القريبة وكأنه يريد أن يتذكر وجهي ، أو يعرف من أنا ، ابتسمت وقلت : من الصعب أن تجد تاكسي بسهولة ، اليوم هو وقفة عيد الأضحى المبارك ، كل عام وأنت بخير ، ومعظم الناس تنتظر لآخر وقت لقضاء متطلبات العيد ، رأيت بعض الخجل على وجهه وهو يردد :

_ آسف يا استاذ ، أخشى أن أكون قد تسببت لك في عَطَلة ، من المؤكد أن لديك ارتباطات بخصوص العيد ، كل عام وأنت بخير .

أجبته بفرحة حقيقية :

_ إطلاقاً يا أبونا ، فرحة العيد ازدادت بوجودك معي الآن .

وصلنا إلى باب الكنيسة ، وفوجئت به يُصر أن يستضيفني

فـي مضيفـة الكنيسـة ، ورأيـت منـه كرمـاً شـديداً يقدمـه بفرحـة وسـرور ، وحتـى الآن نتبـادل التهنئـة فـي الأعيـاد .
قال الأستاذ عادل وهو يربت على كتفه :
_ هـذا تطبيـق عملـي لكلماتـك الجميلـة عـن الإنسـانية ، لكـن دعنـا نعـود إلـى موضـوع امـرأة العزيـز ، ففـي الحقيقـة بالفعل هـذه المـرة الأولـى التـي أسـتمع فيهـا إلـى هـذا الاسـم :
قال الأستاذ حكيم :
_ هـذه القصـة موجـودة فـي الإنجيـل علـى مـا أعتقـد فـي أسـفار العهـد القديـم لكـن قـد تكـون الأسـماء مختلفـة ، وعمومـاً هـي قصـة سـيدنا يوسـف مـع زوجـة الرجـل الـذي كان يعمـل لديـه عندمـا باعـه التجـار فـي مصـر ، وعندمـا رفـض سـيدنا يوسـف أن يخـون سـيده معهـا ، اتهمتـه أمـام زوجهـا بأنـه حـاول أن يغتصبهـا وكانـت النتيجـة أن هـذا الرجـل الـذي كان يطلـق عليـه العزيـز وهـو منصـب يشـبه قائـد الشـرطة ،أنـه ألقـى ب « يوسـف « فـي السـجن ، والقصـة التـي تداولتهـا الصحـف منـذ عـدة أيـام تشـبه قصـة امـرأة العزيـز .

****

« فرج المويلحي « من رجال الأعمال أصحاب الوزن الثقيل ، تعدى الحديث عن المليون وقفز إلى المليار ، وكما يقولون « رب العباد إذا وهب لا تسألن عن السبب « ، والوهبة التي وهبها الله لفرج المويلحي لا تحسب ولا تقدر ، كتخمين واجتهاد يمكن أن نقول لأنه إنسان طيب ولا غبار على قلبه ، بدأ حياته يحصي الملاليم ثم القروش ثم الجنيهات ثم قفزت ثروته خارج حدود العد والإحصاء ، ومن تاجر صغير يضع بضاعته على عربة صغيرة يدفعها بيديه إلى صاحب دكانة ، ثم قفزة إلى عالم الاستيراد والتصدير وشركات الاستثمار والتجارة شطارة ، وهو تاجر شاطر بكل ما تحمله الكلمة ، لكن الحقيقة أنه لم يدع فرصة لكي تهاجمه أمراض الضمير ، سار على درب الأمانة والأخلاق ، الذي أوصل هبة الله إليه دون حساب ، وعلى قدر حظه المتلألئ في عالم التجارة ، أدار له الحظ ظهره مع النساء ، تعثرت زيجاته جميعاً ، تعددت مرات الزواج والطلاق ، ومع كل زواجة وطلاق كانت هناك الأسباب ، لعب الشيطان فيها دور البطولة دائماً . ظل عازباً لفترة طويلة بعد آخر طلاق ، لكنه أحس أن العزوبية تنحت في رجولته ، وخاصة أن الحرام لم يكن طريقه ، حاولت معه الكثيرات من أجل أن يذقن طعم ماله ، لكن محاولتهن كانت

تبوء بالفشل دائماً ، مضت الأيام والعزوبية تعذب رجولته وباب العلاقات الحرام مغلق تماماً ، لم يكن يدري أن الحظ السئ الذي أوقعه مع نساء زيجاته السابقة ، يُعد له مفاجأة المفاجآت ، ليضع أمامه « نورا « ، كل حرف من كلمة امرأة لعب دوره معها ، لتكتمل الأدوار وتُخرج حورية من حوريات الجن ، قيل إن القمر في ليلة اكتماله اغتصب أمها وحبلت وأنجبت منه نورا ، وقيل أيضاً إن الشيطان هو الذي اغتصبها ، فأنجبت أنثى لا يستطيع رجل أن يصمد أمام إغوائها ، حاول كثير من عباقرة الكتاب أن يصف فتنتها لكن الجميع صعب عليهم مزج الوجه الذي يضيء الظلام ، مع مفاتن الجسد التي تُشعل النار في جبال الصقيع ، الوصف الوحيد الذي نجحوا فيه ، أنها مغناطيس أنثوي ينجذب الرجال نحوه ولا حول ولا قوة لهم . انجذب فرج المويلحي مستسلماً لقدره ، فوران الأنوثة جذبه ودار في دوامته العنيفة حتى غرق إلى شوشته ، شرعية الزواج لم تمنعها أن تحاسبه على كل دقيقة تسمح له فيها أن يعب من اللذة التي تخرجه عن وعيه كمراهق سمحت له الظروف أن يدخل لأول مرة إلى عالم الأنوثة وخفاياها ! ، ويخشى ألا تتاح له الفرصة ثانية ، فأطلق كل حواسه تجوس وترتوي من لذة لم يقابلها حتى

في أحلامه ، فأصبحت حقيقة واقعة بين يديه . ضاع فرج المويلحي ووقع إقراراً بالعبودية ، الإخلال بأقل بند فيه يوقعه في عذاب الحرمان من متعة تزداد كل مرة عن سابقتها ، الدنيا بكل مباهجها تركزت بين نَهدي نورا وما يتبعهما.

****

المعارك طاحنة ، الانتخابات على الأبواب ، وجوه جديدة على الساحة الانتخابية ، وجوه كانت تختبئ داخل عباءة الخوف ، وفجأة شُقَّتْ العباءة وخرجت وقد تحولت فوقها مسحات الخوف إلى مسحات التحدي والعناد ، اختفت أقنعة وظهرت أقنعة أخرى ، لكل زمان أقنعته ، سقط زمن وسقطت معه عصا التخويف ، لم يعد هناك ما يخيف ، الساحة فسيحة وفارغة ، الحواجز هُدِمت ، فتسابقت الأقدام ركضاً خلف السلطة ، وتبدلت الأقنعة ، من قناع الخوف إلى قناع التخويف ، من قناع المحظور إلى قناع الظهور علناً ، يشاركه قناع التقوى كلازمة تفيد ولا تضر ، تستميل ولا تُميل ، يجذب كجاذبات الضوء للفراشات المسكينة التي لا تعلم أن نهايتها في الاقتراب ، سقط زمن مريب وأتى زمن أريب ، سقط زمن يحمل لوناً واحداً ، وأتى زمن يحمل جميع الألوان ، وكل لون وله مناسبته .

« العسقلاني « واحد من الأقنعة التي بدلت الخوف بالتخويف ، محاطاً بإطار من التقوى يعمل كجاذبات الضوء لجذب الفراشات المسكينة ، وإطار من لعبة اسمها السياسة ، يتبادل الأماكن مع إطار التقوى ، القناع بما يحمله يدور في فلك قناع أكبر ، الخروج عنه كخروج النجم الشارد عن فلكه ، مكتوب عليه أن ينطفئ ويسقط . « العسقلاني « واحد من الأقنعة التي ركضت خلف انتخابات تقود إلى باب السلطة ، كلل كل جهوده للوصول إلى هذا الباب ، مستخدماً كل ألوان الزمن الجديد ، لم ينس لون التقوى أو إطار التقوى فوق القناع فله فراشاته التي تنجذب إليه وهي تائهة عما يخبئه لها ، حرب مباح فيها جميع الأسلحة والوسائل للوصول إلى غاية يمكن أن تُبذلَ أمامها الأقنعة الغالي والرخيص ، وتستخدم فيها كل ألوان المكر والدهاء ، العسقلاني وضع نصب عينيه اختراق باب السلطة حتى ولو عبر فوق جثته هو شخصياً .

****

الطبيعي والصناعي ، فارق كبير بينهما ، الجمال الطبيعي له وزنه ، أما الجمال الصناعي فليس له وزن ، حتى في الغذاء ، المعمرون يعرفون الفرق بين خيرات الأرض الطبيعية ، وبين ما دخلت الصناعة فيه لإنتاجه ، شكل

بـلا طعـم أو مـذاق ، كل شـيء تغيـر وتبـدل ، نحـن فـي زمـن تغلبـت فيـه الصناعيـات علـى الطبيعيـات ، تغلـب فيـه المظهـر علـى الجوهـر ، وبـلا دهشـة ولا اندهـاش ، حتـى التقـوى والإيمـان ، أخـذا دورهمـا فـي الطبيعـي والصناعـي ، أخـذا دورهمـا فـي تقـوى القلـب كمـا أتـت بهـا الأديـان ، والتقـوى الصناعيـة بالشـكل والمظهريـات ، تقـوى حقيقيـة مسـارها محـدد بخطـوات إلـى الآخـرة ، وتقـوى مشـكلة ومكيفـة حسـب الموقـف والمنـاخ مسـارها محـدد بخطـوات إلـى دنيويـات مغلفـة بدينيـات ، والغـلاف ليـس أكثـر مـن وسـيلة لتزكيـة الدنيويـات . علـى ثـلاث نـواص يقـع المسـجد الكبيـر ، يقـف علـى منبـره ، تقـوى طبيعيـة وحقيقيـة ، الشـيخ « حافـظ التبينـي « ، لـم تدخـل أي صناعيـات علـى تقـواه وورعـه ، الحـرف الـذي ينطـق بـه يـوزن قبـل الكلمـة ، الخطـوة نحـو الدنيـا تحكمهـا وتسـيرها الخطـوة إلـى الآخـرة ، الأفعـال محكومـة بوصايـا لا يمكـن التبديـل أو اللعـب فيهـا ، لا تميـل ولا تحيـد ولا تجامـل ، ولا تطلـب مـن الأرض سـوى مـا يعيـن علـى رحلتهـا القصيـرة ، عوامـل بداخلـه أدت إلـى قلـب لا يخـاف ولا يهـاب سـوى وجـه الحـق . نشـأت بينـه وبيـن فـرج المويلحـي علاقـة وطيـدة ، منـذ أن كان فـرج المويلحـي لا يـزال يُحصـي الجنيهـات ، أحبـه الشـيخ

حافظ وهو يرى عليه تقوى حقيقية وليست مصطنعة ، تولاه بالنصح دائماً ، الأمور خرجت عن مسارها بزواجه من « نورا « ، عندما علم الشيخ بتاريخها الذي تحيطه الشبهات ، رمى « فرج « بنظرة حادة قائلاً : هل تُدخِل الشيطان بيتك يا رجل يا تقي ، النصيحة هذه المرة ضاعت بنفخة من بين شفتي نورا ، انقطع فترة عن المسجد وعن شيخه وصديقه حافظ ، عندما عاد لم يحتج لأن يخبره بأنه تزوج نورا ، لأن الشيخ حافظ قابله بابتسامة أقل ما تفسر به أنها ابتسامة رثاء ، بادره على الفور ، تزوجت بها وأصبحت زوجتك ، حاول أن ترشدها إلى طريق الصواب ، لكن فرج المويلحي بعد أن ذاق عذاب الحرمان الذي تفرضه عليه لأقل هفوة ، كم فمه ،أخطأ وأبلغها ذات ليلة أن الشيخ حافظ لامه على تبرجها والسهرات المريبة التي لا تخلو منها ليلة ، لو تركنا فرج يصف هذه الليلة ، لبادر فوراً بقوله إنها كانت ليلة زفت وقطران ، هل هناك زفت وقطران أكثر من حرمانه من الحضن الذي يدخله وكأنه يدخل إلى الجنة ، المصيبة أن الحرمان امتد لعدة ليال أطفأت فيها الدنيا كل أنوارها في وجهه ، لم تعد ثانية إلا بعد أن وزع قبلاته بالعدل بين قدميها ، كادت الدموع تفر من عينيه

وهو يرجوها أن تتنازل عن شرطها بقطع علاقته بالشيخ والمسجد ، أمام هذه الهبة كانت هناك وعود أخرى أقلها تبديل سيارتها بأحدث موديل ، تنازلت نورا عن شرطها لكن الشيخ بقى في ذاكرتها كغريم يجب أن يحتسب حسابه .

لم تكن نورا وحدها التي ناصبت الشيخ العداء ، العسقلاني عدو أشد لدودية ، الشيخ حافظ لا تخلو خطبة من خطبه عن التحذير من متسلقي الدين وتجاره ، الذين يستخدمونه في مآربهم للوصول إلى مكتسبات سياسية ، شبههم بمن يدس السم في العسل ، وبالتأكيد تشبيهات مثل هذه تطيح بأصوات انتخابية لا يتوانى العسقلاني عن جمعها بأي طريقة وأي أسلوب ، حاول أن يصل إلى الشيخ حافظ ليكسب رضاءه ، خاب ظنه لأن الشيخ حافظ طريقه لا تصلح معه كل أساليب الدنيا ، وإن كانت نورا نظرت إلى الشيخ حافظ على أنه غريم يحتسب حسابه ، إلا أن العسقلاني نظر إليه كغريم يجب القضاء عليه !!! .

****

لأول مرة تخطو قدم الشيخ حافظ التبيني نحو قسم الشرطة ، للأسف خطواتها كانت بسبب اتهام مشين هو بريءً منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

وقف أمامه فرج المويلحي مطأطئ الرأس ، وكلمات تخرج من بين شفتيه متقطعة الأوصال :

_ آسف يا مولانا ، آسف ، لا أجد كلمات تعبر عن خجلي وأسفي !!

قال الشيخ وفي عينه نظرة أسف على الرجل الذي هوت إمرأة بكرامته إلى الحضيض :

_ لا داعي للأسف يا أخ فرج ، أنا أعلم أنك بعيد عن هذه اللعبة القذرة تماماً ، المهم أن تقنع زوجتك بأن تعترف بالحقيقة .

نظر فرج نحوه وفي عينيه نظرة تعلن استحالة ما يطلبه منه الشيخ ، لكن لسانه لم يستطع أن يقر بها وأجاب وهو يحاول أن يبتعد بعينيه عن عيني الشيخ قائلاً :

_ نعم ، بالتأكيد ، سأحاول ، سأحاول ، كلمات منهزمة كانهزام صاحبها أمام مفاتن زوجته نورا ، استدار وأطلق ساقيه ليفر من نظرات الشيخ ، أحس بها وكأنها ضربات سوط موجعة تنهال فوق بدنه .

قصة هذا المشهد المؤلم تتلخص في جملة واحدة ، تحالُفَ الشر الذي عرفه الإنسان منذ بدء الخليقة ، تحالف شر العسقلاني مع شر نورا ، والضحية لم تكن سوى الشيخ الفاضل حافظ التبيني . لم تخف على العسقلاني كلمات الملامة التي يوجهها الشيخ دائماً إلى فرج المويلحي بسبب

ضعفه أمام زوجته وتركها لتفعل كما تشاء ولو على حساب كرامته ، دون مراعة لدين أو لأخلاقيات ، دعى نفسه إلى سهرة من سهرات نورا ، وبدهاء ومكر تمكن أن يتقرب منها ، الشر دائماً يتشمم الشر ويتعرف عليه ، تمكن أن يعقد اتفاقا معها لتتخلص هي من غريم يحتسب حسابه ، ويتخلص هو من غريم يجب القضاء عليه ، غريم يمكن أن يفقده أصواتا انتخابية ، نتيجتها عدم الاقتراب من باب السلطة أو الجنة بالنسبة له ، لعب الشيك الذي دونت فيه ستة أصفار أمام الواحد الذي قدمه لها العسقلاني دوره ، ترك لها رسم خطة فضيحة الشيخ ، خطة سهلة بالنسبة إلى حواء التي أخرجت آدم من الجنة بنصف تفاحة ، الشر لم ينقصها لتقوم بنفس دور امرأة العزيز ، تحايلت من خلال الهاتف حتى أقنعت الشيخ بأنها تبغي التوبة على يديه ، وأنها تريدها مفاجأة لزوجها ، وبأنه يجب أن يذهب إليها في المنزل ليرشدها إلى طريق التوبة ، لأنها لن تذهب إلى المسجد إلا بعد أن تنفض عن نفسها خطيئة سنوات وسنوات ، الشيخ الطيب ولأنها زوجة صديقه وحبيبه فرج المويلحي صدقها ، بل أحس بالرضا وهو يتخيل أنه يقدم إلى صديقه زوجة تائبة تثلج صدره ، ذهب بناء على الموعد المحدد

إلى منزلها ، لم يعلم أنها أطلقت سراح جميع الخدم في ذلك اليوم ، قابلته من خلف النقاب ، استبشر خيراً ، استأذنته لتحضر له كوباً من الشاي بنفسها ، دخلت وخرجت بثوب وزينة شيطان الجمال والفتنة ، الذهول أحاط به من كل جانب ، اتجهت نحوه في محاولة إغواء جادة ، انتفض الرجل وهب واقف ، لملم رداءه وفي خطوات قافزة اتجه نحو الباب وتمكن من فتحه ، قفزت خلفه كنمرة شرسة وجذبته من ردائه ، تمزق كم الرداء وخرج بيدها ، أطلقت صرخت مدوية مستنجدة ، طلت بعض الوجوه لترى الشيخ يهبط سريعاً بردائه الممزق ونورا تعوي في صرخات كسيرة ، أمام الباب الخارجي كان بضعة من بلطجية العسقلاني ، أمسكوا بالشيخ حتى حضرت عربة الشرطة ، قالت امرأة العزيز أن الشيخ استغل عدم وجود زوجها بالمنزل وذهب ليراودها عن نفسها ، شيء لا يصدق بالنسبة لكل من يعرف الشيخ ، لكن القانون له الوقائع التي أمامه ، فرج المويلحي يمكن أن يشك في نفسه لكن من المستحيل أن يشك في شيخه ، يعلم تماماً أنه ملعوب من زوجته ، لكنه لم يبح بأي من شكوكه ، حتى لا يُطرد من جنة تهون أمامها جنة الآخرة .

****

_ أنت الذي تقرص على الزهر الآن يا أستاذ عادل .

ضحك الأستاذ عادل وقال وفوق وجهه دهشة وعجب لا حدود لهما قائلاً :

_ على الأقل لن تكون كقرصة امرأة العزيز التي أسالت دماء الشيخ الفاضل .

هطل المطر وقال حكيم موجهاً كلماته إلى الشلة :

_ هيا بنا إلى الداخل ، إنها سحابة صيف سرعان ما تنقشع !!!!! .

تمت

دمية خلف الواجهة الزجاجية

****

لم يكن من اليسير على « مايا « أن تزحف قدماها* إلى داخل المتجر الكبير، الذي يشغل مساحة شاسعة على أحد جانبي الشارع الخامس بمدينة منهاتن وفي يدها طفلها « روجر « يطلق صيحات لا تتوقف رافضة الهدنة حتى ولو للحظات . رمقها المدير بنظرة رافضة مندهشة لجرأتها على اجتياز عتبة المتجر ، الذي لا يؤمه سوى الموسرين والباحثين عن الجديد في عالم الأنتكيات. ثيابها البسيطة وحذاؤها الذي يشكو الإجحاف وطفلها الباكي ينطقون بأنه المكان غير المناسب لهما. سألت بحياء وخجل كشف عنه احمرار وجهها الرقيق عن ثمن الدمية الكبيرة التي على شكل دب يقف على قدميه الخلفيتين ويكاد أن ينطق ، المعروضة خلف الواجهة الزجاجية . لم ينتظر مدير المتجر إجابة العامل ، تقدم منها سريعاً، يعلنها كاذباً أن الدمية للعرض فقط . دخول السيدة الرقيقة الحال إلى داخل المتجر ينظر إليه المدير كما لو كان فضيحة أمام عدد لا بأس

بـه مـن عملائـه إلموسـرين ، سـارع لطردهـا بطريقـة تبـدو مهذبـة ، ممـا زاد مـن تسـارع دمـاء الخجـل إلـى وجنتيهـا ، لمعـت عيناهـا بسـحابة بللوريـة مـن الدمـوع . تراجعـت منسـحبة للخلـف للهـرب وكأنهـا تخشـى أن تسـتدير فتغتالهـا نظـرات المديـر التـي أحسـت بهـا أحـدً مـن نصـل الخنجـر . صيحـات الطفـل وصرخاتـه التـي يلازمهـا إيقـاع دبدبـة أقدامـه فـوق الأرض الخشـبية المصقولـة كالمـرآة ، رافضـاً مغـادرة المتجـر إلا بعـد أن يحصـل علـى الدميـة لفتـت الأنظـار . بيـن الموسـرين لا يُعـدمَ أن تكـون هنـاك بعـض القلـوب الرحيمـة ، اسـتوقفها أحدهـم بإشـارة مـن يـده ، انقلبـت نظراتـه المؤنبـة نحـو مديـر المتجـر ، سـأله عـن ثمـن الدميـة ، أجابـه المديـر برقـم مرتفـع لـم يأبـه لـه الموسـر الكريـم ، ألـف وخمـس مائـة دولار لا تعنـي شـيئاً بالنسـبة لثرائـه . الدميـة فاخـرة الصناعـة ، لا ينقصهـا سـوى أن تتحـول إلـى دب حقيقـي . أضـاف المديـر ثمنهـا علـى مـا اشـتراه هـذا المحسـن الرحيـم، وكأنـه بضعـة سـنتات بجانـب الرقـم المهـوول الـذي يمثـل جملـة مشـترياته . نظـرت السـيدة الرقيقـة الحـال إليـه وكأنهـا تنظـر إلـى مـلاك هبـط مـن السـماء فجـأة ، ابتسـم وهـو يـرى النظـرات الحائـرة داخـل عينيهـا ، لا تريـد أن تصـدق أن هنـاك مـن يدفـع مبلغـاً

كبيراً ثمناً لدمية ويقدمها لابنها ببساطة كقطعة من الحلوى . توقفت صيحات الطفل ، فهم المضمون بصفة عامة ، وأن الدمية أصبحت قاب قوسين أو أدنى من يده . خرج الموسر الكريم من المتجر بعد أن داعبت يده رأس الطفل ، رد له الطفل صنيعه بابتسامة طفولية رائعة . أمرها مدير المتجر بأن تنتحي جانباً إلى أن يعد لها الدمية داخل صندوقها ، تلقفت الصندوق منبهرة بالموقف ، توجهت قدماها نحو الباب ، الطفل أصر على أن يشاهد الدمية ويلمسها فوراً، لم تفلح معه توسلات أمه للانتظار حتى العودة للمنزل . أمام إصراره وخوفاً من انطلاق صيحاته ثانية انتحت ركناً من المتجر بعد أن انشغل المدير مع بعض عملائه ظاناً أنها ستطلق ساقيها للريح بعد أن حصلت على الدمية الباهظة الثمن ، كالريح هبت صيحات الطفل ثانية تلازمها دبدبة أقدامه فوق الأرض الخشبية المصقولة ، الصندوق به دمية لا تمت بصلة للدب الذي دفع ثمنه الموسر الكريم ، قبل أن تمتد يد الفضيحة إلى مدير المتجر اللص، كان قد استدعى الشرطة متهماً إياها بإثارة الشغب داخل المتجر . انتهت المأساة برحلة هي وطفلها وصندوق الدمية المزورة داخل سيارة الشرطة ، الخوف أطلق

جسدها في ارتعاشة تكاد تهتز لها سيارة الشرطة ، المشكلة أكبر من تهمة إثارة الشغب داخل المتجر. منذ أحد عشر عاماً، كانت « مايا « تقيم في بلدها ، تعيش حياة بسيطة جميلة مع أسرتها بعد أن حصلت على شهادة متوسطة ، قررت خوض مجال العمل ، تعرفت على زميل يقاربها سناً وشهادة وحياة بسيطة ، تحركت العواطف وصاحبتها همسات الحب ، تم الاتفاق على الارتباط بالزواج ، تقدم لطلب يدها ، كالعادة وقف شبح الفقر ، يحارب بأسلحته الحجرية الثقيلة كالمعاول دون رحمة أو تفهم لدقات القلوب والمشاعر والأحاسيس ، مثل الكثيرين في هذا العالم الظالم ، وقف احتياجهما المادي يعلن رفضه لإتمام سعادتهما ، محاولات الالتفاف تارة ، والصمود تارة ، باءت كلها بالفشل ، بدأت الريح القاسية تداعب شعلة الغرام المتوقدة داخل القلوب ، تتراقص ظلالها رقصة متهكمة فوق حائط الفراق ، تخرج لسانها وتصم أذنيها عن نداء القلوب المستعطفة ، تطلب الرحمة من قلب الحجر ، فاقد الشيء لا يعطيه ، قلوب الأحجار كقلوب الموتى لا تبالي بزفة الأفراح ، ولا حتى انقباضة الأحزان . أمام ستار اليأس الأسود قد تنفرج أحيانا فرجة ، قد لا

تبعث على الاطمئنان ، لكنها قد تلقي بفتات من الأمل ، يندفع لالتقاطها اليائسون كمسحة من الشبع أفضل من جوع كافر ، كان القرار أو المهرب الذي يلجأ إليه الكثيرون ممن تضيق بهم الأحوال في بلادهم فتتساوى أمامهم كل الأمور ، حتى الاندفاع نحو الهلاك ، من مبدأ العيش الكريم أو الهرب من عذاب الحرمان إلى راحة الموت .
قرار الهجرة غير الشرعية دون تفكير أو روية ، مخاطره قد تكون هي الأمل أو الاندفاع إلى قمة اليأس ، ومع اليأس تتساوى الرأس مع الأقدام .
النظرة المطحونة نحو واقعهم تصور لأذهانهم المكدودة من عناء التفكير أنه سيستقبلون بالطبل والمزمار في البلدان التي يهاجرون إليها بطريقة غير شرعية ، هذا إذا شملتهم العناية الإلهية ولم تنته المغامرة بالنهاية الغير سعيدة، إذ يلاقي الكثيرون حتفهم بصور شتى أثناء مغامراتهم غير المحسوبة .
القدر كان رحيماً ب « مايا « وفتى أحلامها ، تمكنا من دخول الولايات المتحدة الأمريكية ، لكن للأسف لم يكن في انتظارهما طبل أو مزمار، استقبلتهما مخاوف لا تنتهي ليلاً أو نهاراً من اكتشاف أمرهما ومحاولة الهرب دائماً من أي مشكلة حتى ولو كانت تافهة ، يمكن أن تضعهما في طريق

الشـرطة ، أمـام الواقـع المريـر ، تقبـلا العمـل فـي أي مجـال ، وفـي أي ميـدان ، تلقفتهمـا الأيـدي التـي تبحـث دائمـاً عـن أمثالهمـا لتدفـع بهـم إلـى الأعمـال الدنيـا مقابـل أجـور زهيـدة . كان العمـل الـذي وكل إليهمـا هـو أعمـال التنظيـف فـي المنـازل والمحلات التجارية ، قبلا بهذا العمل بعد أن ارتبطا برباط الزوجية ، وبالرغم من مشقة العيش ، كانت حياتهما لا تخلو من السعادة . القـدر لـه مواقفـه التـي لا نتفهمهـا ، شـاء أن يقتـص طـرف السـعادة الضئيـل أيضـاً ، فـي الشـتاء المثلـج القـارص البـرودة سـعل الـزوج وازداد سـعاله ، فـي مثـل ظروفهمـا ومتطلبـات الحيـاة الباهظـة لا مجـال للراحـة أو العـلاج سـوى ببعـض العقاقيـر ، التـي لا تجـدي نفعـاً مـع غـول السـعال الـذي افترسـه بـكل وحشـية . ذات ليلـة أغمـض عينيـه للأبـد وهـو يعانـي مـن التهـاب رئـوي حـاد . بيـن يـوم وليلـة وجـدت مايـا نفسـها تواجـه الحيـاة وحيـدة فـي بـلاد غريبـة مـع ثمـرة زواجهمـا ، طفلهمـا « روجـر « الـذي لـم يتعـد العاميـن ، خاضـت غمـار المشـقة مـن أجـل طفلهـا ، قانعـة وهـي تـراه ينمـو ويكبـر أمـام عينيهـا ، تبـذل قصـارى جهدهـا لتوفـر لـه احتياجاتـه ، حتـى لـو كانـت علـى حسـاب لقمـة تنتزعهـا مـن فمهـا. تحملـت العمـل فـي أكثـر مـن منـزل ومـكان فـي مدينـة منهاتـن

، التحق روجر بإحدى مدارسها في المرحلة الأولى ، تذهب لاصطحابه كل يوم من المدرسة ، تسير به في طريق عودتها إلى غرفتهما الصغيرة التي تأجرتها فوق إحدى البنايات القديمة ، يلتهم إيجارها المرتفع معظم ما تتكسبه من عملها . هي وطفلها يمثلان الفقر الذي يبدو شيئاً غريباً وهو يجتاز الشارع الخامس في منهاتن ، حي الأغنياء والموسرين. معاناتها شبه يومية ، عندما يجتذب نظر طفلها أي شيء في الطريق أو في المحال المبعثرة على جانبي الشارع ، التي تزهو بما داخلها من سلع ، لا يستطيع أن يدفع ثمنها أو يقتنيها سوى أصحاب الجيوب الثقيلة ، لا يعلم أن ما تتقاضاه أمه طوال الشهر قد لا يصمد لمدة ثوان أمام أي شيء تعرضه الواجهات الزجاجية في هذا الشارع المتغطرس بأثريائه. ذات يوم تعلقت عيناه بالواجهة الزجاجية لمتجر التحف والأنتيكات ، تكاد عيناه تقفزان أمام الدمية الناطقة على شكل دب وكأنه تنظر نحوه وتناديه ، في المرة الأولى وقف أمامها مبتسماً ، في المرة التالية راودته فكرة اقتنائها ، في المرات التالية أصبحت شغله الشاغل ، يصر كل يوم أن تتوقف به لبعض الوقت أمامها ، ثم تحول الأمر في النهاية إلى المطالبة بها بكل ما يملك من دموع وصيحات ودبدبة الأقدام ، انتهى

الأمر بالموقف السعيد عندما تقدم الموسر الكريم ودفع ثمن الدمية . الحزن أيضاً له أنيابة المستعدة لالتهام سعادة لم تدم سوى دقائق ، استكثر مدير المتجر اللص عليهما أن يحصلا على الدمية بلا مقابل كهدية لدموع الطفل المسكين ، طلب من أحد عماله الذين على شاكلته أن يستبدلها بدمية أخرى لا يتعدى ثمنها مائة دولار، على أن يكون له نصيب من ثمنها عند بيعها خلسة عن صاحب المتجر ، شاء القدر بدلاً من أن ترحل «مايا « مع طفلها في سعادة مع الدمية التي خلبت لبه ، أن ترحل في سيارة شرطة تهددها أكثر من تهمة ، أكثرها خطورة تهمة الإقامة غير الشرعية.

****

هب « مايك « من نومه مذعوراً، للمرة الثالثة يأتيه هذا الكابوس المزعج ، ثلاث ليال متعاقبة ، يرقد ثم يستيقظ على نفس الكابوس الذي تحتبس له أنفاسه ، ينهض سريعاً ، يقطع المسافة من غرفة إلى غرفة نوم طفلته التي لم تتعد العامين مهرولاً يتخبط في كل ما يقابله ، يقتحم غرفتها ولا تزال أنفاسه محتبسة ، تخرج أنفاسه المحتبسة في زفرة طويلة ، عندما يشاهد وجهها الملائكي يرقد في هدوء ، وبجوارها مربيتها . يعود إلى غرفته ، يعلم أن النعاس لن

يداعب جفنيه لفترة طويلة ، يُشعل سيجارة ، يسترجع أحداث الكابوس ، الدب الشرس الذي يقف فوق قدميه الخلفيتين لينقض على جسد طفلته اللين ، يفترسها في غمضة عين . عندما يفكر في هذا المشهد غير الحقيقي لمجرد التفكير يشعر بأن أنفاسه توشك أن تغادره للأبد ، طفلته الحبيبة وأحب شيء له في الحياة ، يجب أن تعيش ، يرى فيها أمها زوجته وحبيبته وعشيقته التي شاء القدر أن تغادر الحياة وهي تضعها ، أقسم بعدها أن يعيش من أجل طفلته فقط ، بالرغم من المحاولات المستميتة من بعضهن للفوز به كزوج وبملايينه التي لا تحصى ، هذا إلى جانب وسامته وكياسته التي تضعه في مرتبة الجنتلمان . رفض رفضاً باتاً وقاطعاً كل هذه المحاولات ، زوجته التي عشقها ، رفضت أن تغادره حتى بعد رحيلها عن الحياة ، تركت له العزاء والسلوى في الطفلة الجميلة التي أنجبتها له ، أقسم أن يعيش حياته من أجلها .

الكابوس الذي يطارده ، يكاد أن يذهب بعقله ، المصيبة أنه في نفس الليلة عندما اطمأنت أجفانه على طفلته وغفلت وكأنه العناد ذاته زاره ثانية . لكن هذه المرة زاد عليه مشهد تذكره جيداً ، السيدة ذات الوجه الرقيق والعينين العائمتين في الدموع وهي تمسك بيدها طفلها الباكي ،

وقعت عيناه عليهما للحظات فقط وهو يترجل من سيارته الفارهة أمام متجره الكبير في الشارع الخامس ، رجل الشرطة يسوقها أمامه إلى مصير لا يعلمه سوى الله .
عندما دخل إلى الداخل وسأل عن هذا المشهد ، تقدم مدير متجره وانتحى به وقص عليه رواية كاذبة بأنها لصة حاولت السرقة من المتجر فاستدعى الشرطة ، وقتها لم يفكر كثيراً ، أكثر من مرة حدثت مثل هذه الحوادث وتأتي الشرطة لتصطحب اللص .
لكن عندما اقترن وجهها ومعها طفلها بالكابوس الذي هاجمه للمرة الثانية في نفس الليلة ، قرر أن يستعلم عن هذه الواقعة من أحد عماله الذي يعرف فيه الأمانة والصدق وكثيراً ما لمح أمامه عن لصوصية المدير .
استمع لقصة السيدة الرقيقة الملامح والحال وطفلها ، وما قام به الموسر الكريم ، والدور القذر الذي لعبه المدير اللص .
هبط لأسفل ووقف أمام الواجهة الزجاجية لمتجره ، أثارت عجبه الدمية التي على شكل دب يقف على قدميه الخلفيتين ، نفس الدب الذي يراه من خلال الكابوس يهاجم طفلته الحبيبة ويفترسها ، اتخذ قراراً بدأ في تنفيذه على الفور .

****

كان فرحاً أسطورياً ، أمسك مايك بيد مايا قائلاً :

_ هل أنت مسرورة ؟

_ منذ أن جمعتني الحياة معك لم أعرف سوى الفرحة .

_ وغداً ستسرين أكثر بأولادهما .

_ أنظر إليهما يا مايك وكأنني زوجت ابني بابنتي .

_ نعم يا مايا ، روجر ابنك وجاكلين ابنتي تربيا معاً وكأنهما إخوة ، جمعهما حب كبير منذ طفولتهما ، عندما كبرا قررا أن يمضيا بقية عمرهما معاً ، هذا ما يسعدني جداً ، ابنتي مع روجر ابنك ، ستكون في أمان طوال عمرها . إنني كثيراً ما أذهب إلى غرفة روجر وأقف أمام الدمية وأشكرها لأنها كانت السبب في زواجي منك ، وهاهي الآن تجمع أيضاً بين ابنك وابنتي .

_ على قدر ما قاسيت العذاب في ذلك الوقت بسبب هذه الدمية يا مايك ، إلا أنها إرادة الله التي تتخير الصالح دائماً ، نفس هذه الدمية أيضاً كانت السبب فيما أرفل فيه من سعادة الآن ، بل والسعادة التي لم أكن أحلم بها لابني روجر ، أوشكت على الموت عندما انتزعوه مني في ذلك الوقت .

_ نعم إنها إرادة الله يا حبيبتي ، هي التي تختار الصالح دائماً ، البشر دائماً يشكون في هذا ، يخورون

أمـام بعـض المواقـف المؤلمـة ، ينسـون أنهـا قـد تكـون سـبباً فـي إسـعادهم بعـد ذلـك ، كمـا حـدث معـي ومعـك .

_ هـل تعلـم أننـي ذهبـت إلـى مديـر متجـرك الـذي كان سـبباً لـكل مـا حـدث لـى فـي ذلـك الوقـت وشـكرته ، لأنـه كان السـبب فـي لقائـي بـك ، اعتـذر عـن فعلتـه بدمـوع صادقـة .

_ نعـم ، هـو الآن شـخص آخـر ، ناديتـه فـي ذلـك الوقـت ووبختـه علـى أفعالـه ، لكنـي سـامحته مـن أجـل زوجتـه الفاضلـة وأولاده ، منـذ ذلـك الحيـن تحـول إلـى شـخص آخـر ، أصبـح مثـالاً للأمانـة والشـرف والفضيلـة بشـهادة جميـع العامليـن معـه ، وهـا أنـت تريـن أن هـذه الدميـة لـم يكـن فضلهـا عليـك وعلـيَّ فقـط ، لكـن كان لهـا الفضـل أيضـاً علـى مديـر المتجـر الـذي تحولـت حياتـه إلـى الخيـر بعـد أن عفـوت عنـه .

_ بالفعـل يـا مايـك ، العفـو عنـد المقـدرة قـد يكـون سـبباً فـي عـودة الكثيريـن إلـى طريـق الخيـر .

_ نعـم .. نعـم .. يـا حبيبتـي .. قالهـا مايـك وقـد عـادت إلـى رأسـه الأحـداث التـي مـر عليهـا قرابـة عشـرين_عامـاً .

****

عندمـا علـم مايـك من عاملـه الأمين الظلم الذي وقع على السيدة الرقيقـة الملامـح والحال وطفلها ، قرر أن ينصف السيدة وطفلها

ويعوضهما على ما لحقهما علي يد مدير متجره غير الأمين . كانت الخطوة الأولى التي فكر فيها هي الذهاب إلى قسم الشرطة القريب ، الذي اقتيدت إليه السيدة وطفلها ، كان مايك من الشخصيات المعروفة للجميع ، وهناك علم بالقصة البائسة لهذه السيدة ، المشكلة لم تكن ما اتهمها به مدير المتجر من إثارة الشغب داخل المتجر فقط ، لكنها تحولت إلى مشكلة أكبر بكثير ، عندما اكتشفت الشرطة أنها تقيم بصفة غير قانونية . صدر القرار القاسي الذي شطر نفسها وروحها إلى مئات الأجزاء وبعثرها في أكبر ساحة لقسوة الحياة . هي تُرحل إلى بلدها ، والطفل يربى في دار للرعاية داخل أمريكا لأنه أمريكي الجنسية بحكم مولده . أدرك مايك حجم الكارثة وسأل صديقه رئيس قسم الشرطة عن الحل لهذه الكارثة التي لحقت بها ، أجابه رئيس الشرطة ضاحكاً بأنه إذا كان يريد حلاً فعليه الزواج من مايا .. قالها رئيس الشرطة مازحاً . لكن المزحة تحولت إلى فكرة داخل رأس مايك ، الفكرة بدأت تتحول إلى حيز التنفيذ ، اتجهت سريعاً من المزاح إلى الجد . بُهت رئيس الشرطة عندما علم بقرار مايك ، لكن كانت هناك عقبة أخرى ، المفروض أن تُرحل أولاً إلى بلدها

ثم يتم الزواج هناك ، وبعدها يمكن أن يشرع مايك في اتخاذ الخطوات القانونية لاستقدامها ، خلال هذه الفترة يودع الطفل داخل دار للرعاية . تحركت الفكرة ثانية داخل رأس مايك ، وسأل إن كان يمكنه أن يضم الطفل إليه من الآن ، أجابه بأن لا بد من موافقة أمه ، وعندما سأل عن أمه ، علم أنها اقتيدت إلى المطار في حراسة اثنين من الشرطة لتلحق بأي طائرة تذهب بها إلى بلدها . لم ينتظر مايك ، أسرع ومعه محاميه متوجهاً إلى المطار ، لحقها في اللحظات الأخيرة ، رأى البؤس وقد تجمع بخطوطه الجبارة فوق وجهها ، الدموع رسمت لها مجرى فوق كل وجنة من وجنتيها ، كادت أن تنتابها حالة هستيرية عندما علمت السبب من حضور هذا الرجل ومحاميه ، ألجمت لسانها المفاجأة وخرجت كلمات الشكر متآكلة من بعض حروفها بطريقة أضحكت مايك ومحاميه ، وافقت فوراً على ضم طفلها إلى مايك وكأنها في حلم أو مسلوبة الإرادة ، أمدته بكل بياناتها وعنوانها في بلدها ، طارت متأرجحة بين الأمل والخوف أن يكون كل ما حدث مجرد حلم ستستيقظ منه على الواقع الأليم . كان أول ما فعله مايك بعد عودته من المطار هو ذهابه

إلى المتجر ، أمر بأن توضع الدمية داخل صندوق جميل وذهب بها إلى الطفل ، كانت بمثابة عربون الصداقة بينه وبين مايك وسبب ترحيبه بأن يقيم معه .
المفاجأة الثانية أنه بعد عدة أشهر وجد أمه أمامه ، ذهب مايك إلى بلادها وعقد زواجه عليها وعادت بطريقة قانونية .
بعد أيام الحزن التي أعقبت رحيل زوجته ، ابتهج القصر المثلج الجوانب ، استدفأ بأسرة جميلة ، أصبحت ابنته جاكلين تأنس لروجر وتلتصق به بعد عودته من المدرسة ، مرت الأيام وهما يكبران معاً و كبر داخل قلبيهما حب لم يرضَ سوى بارتباط أبدي بينهما .
عقب انتهاء حفلة الزواج ، قال مايك لزوج ابنته :
_ هل تسمح لي ياروجر بأن أضع الدمية خلف الواجهة الزجاجية للمتجر لأن كل المخزون منها قد بيع ؟
اندهش روجر وأجاب :
_ ولماذا وهي السبب في سعادتنا جميعاً ؟!
_ ولهذا السبب أنا أريد إعادتها إلى هناك ، فقد تكون سبباً في إسعاد آخرين .
انفجر روجر وجاكلين في ضحكة طويلة وقالا بلسان واحد :

_ إذا كان هذا هو السبب ، فمرحباً بعودتها ، فنحن نتمنى أن تشمل الجميع سعادة مثل سعادتنا .

قال مايك ضاحكاً :

_ سأكتب على الدمية إنها ليست للبيع ، لكن لجلب السعادة فقط .

مات وما زال يقتل

****

امتلأ سرادق العزاء ، المواسون معظمهم أتى من باب المجاملة الكاذبة أو الخوف أن تتسرب أخبار إلى الأتباع بأنهم لم يقوموا بواجب العزاء ، ويحدث ما لا يحمد عقباه ، كان لا يزال الشيخ يقرأ عندما مال أحدهم على أذن رفيقه الجالس بجواره قائلاً :

_ كلب وراح .

لامه الرفيق على تحدثه قبل انتهاء المقريء قائلاً :

_ ألا تنتظر حتى ينتهي الشيخ ؟!! .

وكأنه لم يستمع لقول رفيقه فأضاف قائلاً :

_ حرام أن يُقرأ عليه القرآن !!

لومة ثانية من الرفيق قائلاً :

_ الصبر يارجل حرام عليك اصبر واكتم تعليقاتك الآن !!!!

بدا بعض الخجل على وجهه وإن كان يبدو عليه أنه فقد السيطرة على فمه لكن من حسن حظه أن الشيخ توقف فتلفت الرفيق نحوه قائلاً :

_ الآن تستطيع أن تفضفض عما بداخلك .

أصلح من جلسته وارتشف رشفة عميقة من فنجال القهوة الرابع ويبدو أنه لم يذهب سوى لارتشاف القهوة والفوز ببعض السجائر وقال محاولاً أن يبدأ الحديث من جديد :

_ بأقول كلب وراح .

علق الرفيق قائلاً :

_ اذكروا محاسن موتاكم .

قال وهو يمد يده لالتقاط الفنجال الخامس ويكاد يحشر شفتيه في أذن صديقه حتى لا تتسرب بعض الأحرف فتلتقطها آذان يبدو أنها جالسة خصيصاً لتلتقط ما يقال :

_ وهل الكلب له محاسن ؟!

قال الرفيق بصوت أقرب إلى الصمت وهو يهز برأسه موافقاً، وإن كانت تبدو وكأنها الأسف على الفقيد :

_ أعتقد أنك احتسيت من القهوة ما يكفيك ليومين هذا غير السجائر التي ملأت بها جيبك ، دعنا نقوم قبل أن يبدأ الشيخ وقبل أن تتمرد كلمة من كلماتك وتفر إلى أذن أحدهم وكلاب ابن الفقيد كثيرة . سرادق العزاء كان ل» شعبان الزعيطي « وشهرته « السياف « لكثرة ما عمل سيفه الكافر بالحياة في

رقاب تسربت الأرواح منها لتصعد إلى خالقها وهي تلعن القاتل الذي ولد وفمه متعطش إلى الدماء . ولد السياف في إحدى قرى الصعيد وفي اللحظة التي شقت صيحاته الفضاء معلنة الخروج للحياة، كان أبوه يساق إلى خلف القضبان في جريمة نكراء ، شب السياف عن الطوق وسأل عن الأب الذي أنجبه ، وكانت الإجابة أنه لفظ الحياة وبمعنى أدق لفظته الحياة لترحم الخلق من إجرامه ، مات داخل الزنزانة وفي عنقه بضعة أعوام مديناً بها للقانون الذي حكم عليه بالسجن المؤبد ، بعدها أقسم العم أن لا يربي ابن شقيقه أحد سواه ، في الحقيقة لم يكن الدافع الحقيقي لهذه المروءة سوى اشتهائه لزوجة أخيه الصبية التي لا تزال في ريعان الشباب، فهي الزوجة الأخيرة في سلسلة من الزواج والطلاق ، وكما أقسم على ألا يربي الولد أحد سواه أقسم ألا تكون الزوجة لأحد سواه أيضاً وهو الأولى بلحمها الشهي ، نشأ السياف في كنف العم الذي لا يختلف كثيراً عن الأب من الناحية الإجرامية، إن لم يكن فاقه ، عائلة شربت كل الخصال اللابشرية من منابعها الأصيلة فتحول الدم داخل عروقها إلى ماء آسن فاقد الإحساس معتقاً في الإجرام ، وقد يكون تاريخ السياف كافيا لكي يتحدث عن هذه العائلة

الكريمة جداً في اجتياز كل أبواب الشر والإجرام ، لم يكن السياف قد بلغ العاشرة من عمره عندما اقتيد إلى قسم الشرطة بتهمة سرقة الدجاج من بعض الحظائر ، ضمنه العم وأخرجه من قسم الشرطة وكال له من اللوم والتعنيف الكثير لأنه لص فاشل ومغفل لا يعرف كيف يسبك جريمته ، مما دعا السياف لأن يبدأ في التدرب على كيفية اتقان اللصوصية ليكون لصاً محترفاً يمكنه أن يسرق الكحل من العين دون أن تشعر به المكتحلة كالمثل الذي يردده دائما أهل القرى عندما يصفون أحد اللصوص بأنه « يسرق الكحل من العين « . صال السياف وجال في كل الموبقات ولم يتمكن أحد من إيقافه أو حتى عتابه وهو في حماية العم الذي يطل الإجرام من عينيه ويفتح له الطريق وسط خوف وجبن أهل القرية ، العم دائماً يفخر به ويقول إنه التلميذ الذي فاق معلمه إلى أن أتى اليوم الذي قفز فيه التلميذ قفزة تضاءلت أمامها كل أفعال معلمه ، ضربة قاضية وجهها التلميذ للمعلم وتركه يترنح كمسطول في وقت الظهيرة ، عوى العم كذئب جائع في ليلة أعلن فيها الزمهرير سلطانه وكادت مخالبه أن تطول عنق التلميذ ليحتسي من دمه كؤوساً وكؤوس ، المشهد يستوجب ذلك بعد أن سمع همسات متأوهة قادمة من غرفة

لإحدى زوجاته ، فاندفع نحو بابها كالثور الهائج ونطحه نطحة كادت أن تقلعه من أساسه ، أطلق خواراً كخوار الثور الهائج واندفع نحو الفراش الخائن الذي سمح لابن أخيه أن يمتطي زوجته ، لم تكن هناك فرصة حتى لينتزع السياف نفسه من حضن الزوجة التي بلغ بها الشبق أقصى ثوراته بعد أن أهملها الزوج لفترة طويلة مستمتعاً بالحضن القشدي لزوجة أخيه والدة السياف ، امتدت يده كَكُلاب يقلع مسماراً مستعصياً قابضة على عنق السياف ينتزعه انتزاعاً من فوق زوجته ، سقط السياف فوق الأرض يلهث وكأنه كان في سباق مع المتعة ، انهالت يد الزوج في صفعات مجنونة عشوائية فوق جسد الزوجة العاري دون أن تطلق صرخة واحدة ، وكأنها خُدرت بمخدر المتعة التي حرمت منها منذ فترة طويلة ، أفاق الزوج واستدار ليمسك السياف من قفاه ويرفعه حتى وقف على قدميه ينظر نحو عمه بعينين اختلط ذعرهما مع انتصارهما وبعض المتعة التي لم تتبخر بعد ، عوى صوت عمه مدعما بصفعة ارتجت لها جدران الغرفة :

_ مع زوجة عمك يابن الكلب !!! .

أجابه السياف بنبرات هزتها شدة الصفعة لكنها لم تخلُ من التحدى :

_ لقد شاهدتك وأنت تعاشر أمي كثور هائج ولم تعتنِ حتى بإغلاق باب الغرفة .

طارت صفعة أخرى ترنح لها السياف وعوت كلمات العم :

_ لقد تزوجتها في الحلال يابن الكلب .

أجاب السياف وهو يبذل مجهوداً شديداً حتى لا تنزلق دموعه :

_ أنا لا أعرف الحلال والحرام ، لا أعرف سوى أنها أمي ، ورأيتك تنهش لحمها بأسنانك وكأنها فريسة بين مخالب ذئب ، فانتقمت لنفسي من زوجتك وكم أشعر بمتعة تفوق متعة اللذة التي مارستها معها وقد لوثت شرفك ووضعت رأسك في التراب .

جحظت عينا العم ، امتدت ذراعاه للأمام تعلن أنها ذاهبة إلى عنق السياف في قرار بإنهاء حياته ، في سرعة مهولة بصق السياف في وجهه وأطلق ساقيه للريح ، استدار الرجل وذراعاه لم تتزحزحا عن امتدادهما لتطبقا على عنق الزوجة الخائنة ، كانت كما هي ولم تعتنِ حتى بستر عريها ، مغمضة العينين وفوق شفتيها ابتسامة لم تحدد إن كانت بقايا متعة أم شماتة وسخرية من الزوج ، لفظت الزوجة الحياة من هول الصدمة ، ووقف الزوج يضحك ويبكي وقيل إن خطوته التالية كانت إلى مستشفى الأمراض العصبية ، لم يتحمل الصدمة وفقد عقله بعد أن صار أضحوكة القرية .

قفز إلى القطار وقد بدأ في التحرك ، لم تتوقف قدما السياف عن الانطلاق في هرولة مجنونة حتى وصل إلى محطة القطار ، يلتفت خلفه كل لحظة والرعدة تهزه خوفاً أن يكون عمه في إثره وأن الكفين الغليظتين سيطبقان على عنقه ، ما كادت انفاسه تبدأ في الهدوء حتى ظهر أمامه شبح آخر ، محصل القطار قادماً من الناحية الأخرى تسبقه دقاته على علبة التذاكر ، تقهقر للخلف وانطلق إلى العربة التالية ، ظل في فراره من عربة إلى عربة ، وأحياناً يندس داخل دورة المياه متجنباً أن يقع بين يدي المحصل وهو لا يمتلك مليماً واحداً ، تنفس الصعداء عندما استمع إلى أحد المسافرين معلناً عن وصول القطار إلى محطة الجيزة ، قفز قبل أن يتوقف القطار تماماً واندس في الزحام حتى وجد نفسه خارج المحطة ، المرة الأولى التي تلامس قدماه مكاناً آخر غير قريته ، لم يعرف عن محافظة الجيزة سوى أنها تحتضن الأهرامات ، نداء آخر بدأ يقلقه ، نداء الجوع وعصافير الكرش المزقزقة ، تسربت إلى أنفه رائحة الطعمية والفول من المطعم القريب من المحطة وازدادت زقزقة العصافير ، سار نحوه لكن لفت نظره محل العصير القائم إلى جوار المطعم وصاحبه الذي يحمل وجهه الملامح الصعيدية ، تقدم منه بجرأة متناهية

وقال بصوت آمر لا يحمل أسلوب الشحاذة المعتاد :

_ أشعر بالجوع وأريد أن أفطر !

إكراماً للهجته الصعيدية أجابه صاحب المحل :

_ ادخل واشرب كوباً من العصير .

نظر نحو صاحب المحل وقال بنفس لهجته الصعيدية الجافة :

_ أقول لك جوعان وأنت تعرض عليَّ كوباً من العصير !!

ضحك صاحب المحل واستشعر أنه أمام صعيدي في ورطة وليس شحاذاً فقال وهو يشير نحو المطعم :

_ اذهب وتناول ما يملأ كرشك وعد لتتناول كوباً من العصير .

استدار واتجه نحو المطعم دون حتى كلمة شكر، ونظرات صاحب محل العصير المتعجبة تتابعه متأكداً أن وراء هذا الصعيدي الصغير وملامحه القوية قصة ، عاد بعد أن تناول وجبة من الفول والطعمية تكفي لعدة أيام وأنهاها بطبق من شوربة العدس مطالباً بكوب العصير وكأنه حق من حقوقه ، وضع الكوب على فمه ولم يهبط به إلا بعد أن فرغ تماماً ، تقدم من صاحب المحل الذي ظن أنه سيشكره لكنه قال بلهجته الصعيدية القحة :

_ ألاقي عندك شغل .

أجاب صاحب المحل :

_ عاوز تشتغل إيه ؟

أجاب بلهجته الصعيدية الفجة :

_ يعني هاشتغل إيه يا بوي؟! ، دكتور!! ، هاشتغل شغلتكم دي ، أشيل القصب وأقشره وأحطه في العصارة .

قهقه صاحب المحل مُعجباً بجرأته وسأله :

_ حكايتك إيه يا ولد ؟!

تحرك الذكاء الفطري بداخله وأجاب مراوغاً :

_ عاوز تعرف حكايتي بشوية فول وطعمية وكباية عصير ، شغلني وأبقى أحكيلك حكايتي .

ازدادت قهقهة صاحب المحل وقال دون تفكير وهو ينظر نحوه بدهشة

_ ادخل اشتغل يا ولد ، إنت باين عليك صعيدي مفتح ، إنت اسمك إيه يا ولد .

أجابه ضاحكاً ضحكة مراوغة :

_ اسمي أبو الصعدان ، في البلد بينادولي كدا .

لكن أبو الصعدان لم يستمر في العمل سوى عدة ساعات تبخر بعدها وفي جيبه إيراد اليوم كله للمحل ، بعد أن غافل صاحبه ولملمت يده ما بداخل الدرج من أوراق مالية تاركاً له الفكة ، عض صاحب المحل على نواجزه

ولـم يذهـب حتـى للإبـلاغ عـن السـرقة خوفـاً ممـا سـيلاقيه مـن سـخرية داخـل قسـم الشـرطة، عندمـا يتقـدم بشـكواه متهمـاً مـن يدعـى أبـو الصعـدان ولا معلومـة غيـر ذلـك . تعلـق السـياف أو أبـو الصعدان كمـا أوهـم صاحـب محـل العصير بأحـد الأتوبيسـات دون أن يعـرف وجهتـه فـاراً بالغنيمـة التـي جاءتـه علـى غيـر موعـد ، وقـف الأتوبيـس وسـأل أحـد الـركاب أيـن هـو ، أجابـه الراكـب بأنـه فـي السـيدة زينـب ، هبـط سـريعاً ويـده تتحسـس الغنيمـة التـي فـاز بهـا ولـم يـزل لا يعـرف قيمتهـا ، فانـزوى فـي أحـد الشـوارع المظلمـة وأخرجهـا وأطلـق زفـرة ارتيـاح ، كان الليـل قـد أرخـى سـدوله وهـو لا يعلـم أيـن يضـع رأسـه ، نقلتـه قدمـاه مـن حـارة إلـى حـارة ووقعـت عينـاه علـى زاويـة وصـلاة العشـاء لـم تنتـه بعـد ، انـدس بيـن المصليـن ولـم يكلـف خاطـره حتـى بالوضـوء ، انتهـت الصـلاة وبنفـس الجـرأة والشـيطانية التـي دفعتـه ليقفـز فـوق زوجـة عمـه تقـدم من شـيخ الزاويـة بوجـه كسـير يسـأله أن يدبـر لـه أمـر رقـاده إلـى أن يسـتطيع العثـور علـى عمـل ، رمقـه الشـيخ بنظـرة شـاملة ورأى فيـه الشـباب الدافـق وعضـلات ثيرانيـه ، فأمره بالجلوس وسـأله عـن حكايتـه ، قفـز الـذكاء الفطـري الشـيطاني إلـى رأس السـياف وحـاك لـه قصـة اسـتدرت عطـف الشـيخ قائـلاً إن أبـاه طلـق أمـه

وأتى له ولأخوته بزوجة أب أذاقتهم المرار فهرب من أجل أن يعمل وينقذ باقي إخوته من ضراوة زوجة الأب ، وعندما سأله الشيخ عن ما تحصل عليه من علم أجاب بنفس اللغة الكاذبة بأن أباه حرمه من التعليم ليساعده في أعمال الحقل بل منعه من الصلاة في المسجد قائلاً له إن الدين مفسدة للعقول ، بدت على وجه الشيخ حالة من الاشمئزاز لاعناً هذا الأب الكافر الزنديق ، وبهذه الرواية الكاذبة نال السياف شفقة الشيخ بدرجة امتياز وأنعم عليه بالرقاد داخل الزاوية وأن يكون خادماً لها وضحك السياف في عبه لسذاجة الشيخ .

****

حتى الآن لم يكن السياف حصل على لقبه هذا ، لم يكن يُعرف سوى باسمه الحقيقي « شعبان الزعيطي « ، لكن إنجازاته الإجرامية في أفغانستان وسيفه الذي كان لا يقبل سوى احتساء الدماء ولا يطفئ ظمأه شيء غيرها تحت مسمى الجهاد هو الذي أعطاه شرف الانتساب للقب السياف الذي أصبح كشعلة بين رفقاء الجهاد الباطل ولهذا قصة . السياف ولد ليعيش في الحرام ، أصناف من البشر لا تقبل العيش في الحلال وتتعامل معه على أنه مرض مزمن يصيب البشر ، نفدت غنيمته الحرام التي استولى عليها من محل

العصير ، ورأى في عمله كخادم للزاوية مقابل فتات يقدمها له الشيخ علاوة على إجباره على الصلاة مضيعة للوقت ، بدأت الرأس الشيطانية تفكر في كيفية الفكاك من هذا الأسر ، عيناه لم تفارقا صندوق النذور منذ يوم وصوله ، يراه يمتلئ ويُفَرغ في عب الشيخ ، تتلمظ شفتاه شوقاً إلى أن قرر قراره بأن تكون حصيلة الصندوق من نصيبه عندما يمتلئ تماماً وتبرز أطراف الأوراق النقدية من فتحته العلوية ، كان له ما انتظره ذات ليلة ، تسلل وحطم الصنوق وأفرغ ما فيه وهو لا يصدق عينيه أمام كومة النقود التي تبدو أمامها حصيلته من محل العصير وكأنها ذرة رمل في الصحراء ، نهض سريعاً وكان قد أعد عدته للهرب ، ما كاد يبتعد عن الزاوية مهرولاً حتى وجد أمامه ثلاثة من الشباب يحمل كل واحد منهم بنية جبلية ، عاد إلى الزاوية دون مقاومة تُذكر ليجد الشيخ في انتظاره وفوق شفتيه ابتسامة ، أمر الشيخ الفتيان بالانصراف وانقلبت الابتسامة إلى نظرة صارمة قائلاً :

_ لماذا فعلت هذا الأمر المشين بعد أن آويناك وأكرمناك ؟!

_ أجابه ورأسه المرتفع تأبى أن تطأطئ .. لا أعلم !!

قال الشيخ وهو يرمق بنيته القوية ووجه الجامد ونظرة التحدى داخل عينيه :

_ أقول لك أنا لماذا ، لأنك ولدت وبداخلك شيطان ، لم أصدق قصتك وأرسلت من سأل عنك في قريتك وعلمت بهروبك بعد أن زنيت مع زوجة عمك .

قال ولم تهزه المفاجأة :

_ كان هذا عقابه على معاشرة أمي دون مراعاة لشعوري، وفي كثير من الأحيان لا يهتم حتى بإغلاق باب الغرفة .

تغيرت النظرة في عيني الشيخ متحولة إلى نظرة إعجاب يزيد منها فتوة بادية من خلال بدن قوي وقال :

_ هل تعلم ماذا سيكون عقابك لو سلمتك للشرطة ؟

قال ولم ترتعش قسماته بأي خلجة خوف :

_ نعم .. السجن ، لا يهم ، سأجد هناك المأوى والطعام !!

اتسعت حدقتا الشيخ وهو يرمق كتلة صخرية غير قابلة للتفتت وامتدت يده إلى الكيس الممتلىء بالغنيمة التي لم يهنأ بها السياف وكمش كمشة كبيرة من الأوراق المالية وألقاها أمامه قائلاً :

_ خذ هذا المال لتعلم أنني لا أضن عليك بشيء ومن الآن ستصبح أحد رجالنا ، غداً تذهب إلى الجبل لتتدرب مع إخوانك على فنون القتال ، لتحظى بشرف انضمامك إلى الإخوة المجاهدين ، فلقد رأيت فيك ما يؤهلك لذلك .

نظرة متسائلة بدت في عينيه وقال :

_ لا أفهم ماذا تعني بكلمة المجاهدين

قال الشيخ باقتضاب :

_ المجاهدون هم من يدافعون عن دين الله ، وعندما تنخرط وسط الجماعة ستتعلم كل شيء واستعد ففي الأسبوع القادم ستكون لك زوجة حتى لا تعود للحرام .

لم يستوعب السياف كلمة مما قاله الشيخ وأحس بأنه في حلم أو كابوس ، الشيخ بدلاً من أن يسلمه للشرطة ينعم عليه بهذا الشرف الذي قال له عنه بانضمامه إلى المجاهدين ، وإن كانت المرة الأولى التي يسمع عن هذه الكلمة التي أحس أنها تحظى بمكانة من تلميحات الشيخ والأهم هو امتلاك امرأة يمتطيها كيفما شاء دون خوف .

الحلم تحول إلى حقيقة وانتقل السياف إلى ميدان التدريب على القتال ، حظى بزوجة لا بأس بها يهجع إلى حضنها كل ليلة ، برزت مواهبه بسرعة فائقة وأصبح أقرب الوجوه إلى قادة الجهاد وتحول شيخ الزاوية إلى طالب لرضائه .

****

عندما انضم السياف إلى الجهاديين في أفغانستان كان قد مر على زواجه خمس سنوات أنجب خلالها طفلين ، عندما سأل

كيف سيترك زوجته ويعيش في حكم العازب هناك ، قوبل بابتسامة اطمئنان بأنه هناك لن يموت وهو يتحرق جنسياً ، وأن البدائل موجودة ولا خوف على غرائزه الثيرانية ، ذهب وتزوج من امرأة لا يهمها من الرجل سوى فحولته ، الغريب أن زوجته التي تركها مع طفليها عندما ذهبت شاكية إلى شيخ الزاوية أبلغها أنه سيتشير الجماعة في أمرها وعاد ليخبرها بأن الجماعة قررت تطليقها من زوجها وتزويجها من أحد الإخوة الأتقياء ، فزع داخلها وفي ظلام الليل هربت مع طفليها إلى ملاذ أمين وقررت التفرغ لتربيتهم وعدم الزواج ثانية بعد تجربة قاسية في زواجها الذي أُجبرت عليه من السياف وخاصة بعد أن تناقلت إليها أخباره الدموية في أفغانستان . مرت الأعوام وعاد السياف مع ابنه الذي أنجبه هناك ، صورة طبق الأصل منه دموية وذكاء شيطاني فأطلقوا عليه السياف الابن ، كان ينظر إليه بفخر ولم يهتم كثيراً بالبحث عن زوجته التي تركها ولا على ولديه اللذين أنجبهما قبل أن يذهب ليعوم في بحار الدماء وقد يكون هذا من لطف الله على هذه الزوجة وأطفالها ، شتان بين نشأتهما ونشأة السياف الابن ، تفرغت لتربيتهما ولم تحاول أن تحكي لهما عن الأب الذي ضاع وفقدت أقدامه طريق البشر فتحول إلى

وحش كله أنياب ومخالب ، عاد إلى الوطن الذي لم يعد وطنه ومعه الابن الذي لم يفهم أو يحس أو يفرق بين أرض غالية تسمى أرض الوطن وبين أي أرض خراب ، عاد الأب والابن فقط من أجل اللحاق بالعائدين الذين سمحت لهم الدولة تحت قيادة العار بالعودة ، عادا ليس اشتياقاً لكن من أجل إكمال المجرى الدموي الذي تعهدا بأن لا يدعاه يفرغ من الدماء ، لم تخفف سنوات عمر السياف من فوران داخله المتعطش للدماء ولم يكفه أن ابنه يحمل نفس مواهبه الإجرامية وزاد عليها وكمن مع الكامنين في انتظار الفرصة ليطلق عوامل الشر المتوارثة وحانت الفرصة وكان أول من اقتنصها .

****

قالوا لهم إن ميدان رابعة العدوية هو ميدان الشرف الذي سيعيد الشرعية إلى أصحابها ، قالوا لهم إنه الأرض المقدسة التي يمكنهم أن ينالوا ثواب الحج فوقها ، قالوا لهم إن الاستشهاد فيه هو الطريق إلى الجنة الفيحاء ، قالوا لهم إن المقيم به لن ينقصه شيءً ، كل شيء بالمجان الطعام والشراب حتى النساء مباحة ، أبدع السياف الابن في أساليب قتل وتعذيب الضحايا التي تقع بين أيديهم وكأنه يتلذذ بذكرى السنوات الدموية التي قضاها مع أبيه

فـي أفغانسـتان ، وبالرغـم مـن انـه ذات صبـاح وجـد السـياف الأب وقـد فـارق الحيـاة بصـورة طبيعيـة إلا أن الابـن قـال إنـه شـهيد الدفـاع عـن الشـرعية ، لـم يسـتطع السـياف الابـن أن يكـون فـي جنـازة الأب خوفـاً مـن القبـض عليـه ، عندمـا تحـول الميـدان إلـى بـؤرة إجراميـة وكان علـى الشـرطة أن تداهمـه قبـض علـى السـياف الابـن وكتبـت الصحـف معلقـة أن السـياف الأب سـلم سـيفه الغـارق بالدمـاء إلـى السـياف الابـن ، وفـي تعليـق آخـر قالـت إنـه مـات ولا يـزال يقتـل بسـيف ابنـه ، وبنـوع مـن السـخرية أضافـت « صحيـح اللـي خلـف مماتـش «

****

قال وهو يضع يده فوق أمعائه :

_ لـم أعلـم هـذه القصـة مـن قبـل وأشـعر أننـي أريـد أن أتقيـأ كل القهـوة التـي احتسـيتها فـي السـرادق .

أجاب رفيقه :

_ هـذه مجـرد قصـة مـن آلاف القصـص التـي يمكـن أن تسـمعها عـن هـؤلاء الذيـن باعـوا الديـن والـرب والوطـن .

أخـرج مـن جيبـه السـجائر التـي حصـل عليهـا من داخل السـرادق وداسـها أسـفل قدمـه قائلاً :

_ من المؤكد سيكون لدخانها رائحة الدم .

فتـــاة البـــــار

****

لـم يكـن اختيـاري لهـذا البـار محـض صدفـة ، عندما هاجـرت إلى أمريـكا منـذ فتـرة ليسـت بالقليلـة ، كنـت قـد قـررت أن اختـار كل شـيء بتدقيـق شـديد، والغـرض مـن هـذا التدقيـق ، هـو أن يكـون كل مـكان سـيحظى منـي أو أحظـى منـه بقضـاء بعـض الوقـت ، قريـب الشـبه جـدا بالأماكـن التـي اعتـدت عليهـا فـي مصـر أو الإسـكندرية حيـث كنـت اقتسـم أيامـي قبـل الهجـرة . الأسـباب التـي دعتنـي للهجـرة ، قـد تكـون مختلفـة تمامـا عـن أسـباب الكثيريـن الذيـن هاجـروا مـن قبلـي أو مـن بعـدي ، الإجابـات التـي يمكـن أن تسـمعها مـن المهاجريـن جميعـا إلـى أي مـكان ، يمكـن أن ألخصهـا فـي مقولاتهـم سـواء كانـت تحمـل الصـدق أو بعضـه أو الكـذب أو بعضـه ، بالدرجـة الأولـى إمـا مضطهـد سياسـي أو دينـي ، أو باحـث عـن المـال الـذي لـم يتمكـن سـوى مـن شـمه فقـط فـي بلـده ، وحتـى هـذه الشـمات الماليـة لـم يكـن يهنـأ بهـا ويعطسـها فـي وجـه كل المطالبيـن والدائنيـن ، وسـعيد الحـظ منهـم مـن كانـت تلحقـه عطسـة أو بعـض رذاذهـا قبـل

أن تنتهي الشمة وتنتهي معها العطسات ، أيضاً من هاجر كباحث عن العلم الذي سيتمكن من خلاله الحصول على وظيفة في بلاد المال ، ليحقق الثروة التي ستمكنه من النوم على فراش من حرير ، قد تستمع لحكايات وروايات أخرى تصدقها أو لا تصدقها أنت حر لكنك ستستمع إليها . بالنسبة لي السبب الذي دفعني للهجرة لم يرد في القائمة السابقة ، حرفتي القلم والقلم يبحث عن المزاج ، المزاج أنواع ، قلمي مزاجه الكأس والنساء ، قد ينفر البعض من قولي هذا ، لكن من « كان بلا خطيئة فليبدأ برجمي « ، لكي يكون المزاج خالصا دون قيود ، يلزم له مساحة من الحرية ليفرد ساقيه عن آخرهما ، أو يجلس متربعا ، أو يلقي بثيابه عن آخرها ويخرج إلى الشرفة مناديا ربه ، ألم يخلق آدم عاريا ، ها أنا ابن آدم ، ولا أحد يريد أن يعترف بحريتي ، أريد أن أنطلق لكنني أشعر بالقيود حول قدمىَّ ، أليس هذا ظلماً ، يقولون إن هناك عالماً من الحرية ، افعل ما تشاء ولا أحد يحاسبك لكن لا تؤذِ الغير . شددت الرحال وهاجرت إلى عالم الحريات ، أول شيء أردت أن أمارسه أن أكون عاريا مثل آدم ، قيل لي إن هناك شاطئاً للعراة ، ذهبت يدفعني الفضول ، سأُلقي بكل ملابسي

وسأسير كما ولدتني أمي ، سأبحث هناك عن حواء مكشوفة ، لا غش ولا خداع ، سأمسك بيدها وأغمض عيني وأسير ، متخيلا آدم وحواء وهما يسيران عاريان. لم تطل إقامتي داخل جنة العراة لأكثر من خمس دقائق ، لم تنتقل قدماى داخلها لأكثر من بضعة أمتار ، قيود العالم كلها التفت حول قدمىَّ ، الشلل أصاب أطرافي ، سمعت صوتاً داخلي يعلو ويعلو وكأنه أمسك بكل مكبرات الصوت ، أنت حر .. أنت حر .. انزع ثيابك وسر كما ولدتك أمك ، تنقل بين العاريات وتخير دون خوف من غش وخداع ، متع نظرك واملأه ، أليست هذه الحرية التي تريدها وتبحث عنها . عش واقض أيامك هنا وصر واحدا منهم . تراكمت أنفاسي فوق صدري ، أحسست بالاختناق ، الهواء يرف من حولي ، يقترب من أنفي ويرفض اختراقها . شعرت بمثل هذا الشعور عندما كنت على وشق الغرق ذات مرة ، أحسست بصدري وكأن السكاكين تعمل به ، تجمدت كل رأسي ، أبحث عن طريق العودة ، لم أقطع سوى بضعة أمتار فكيف تتوه قدماى ، عندما خرجت خارج سور العراة ، لم أصدق أنني لا زلت أتنفس الهواء ، تحسست ملابسي التي لم أنتزع منها قطعة واحدة ، أحسست أنه يجب أن أقدم لها جزيل الشكر .

عندما ابتعدت وعادت إلىَّ حريتي ، سمعت صوتاً يقهقه داخلي ، وجدت نفسي أقهقه معه ، لماذا تعجلت..!! ألست تبحث عن الحرية وتصورتها مجسمة في أن تكون عاريا كما خلق الله آدم ، تجربتك لم تزد عن خمس دقائق وقفتها وأنت ترتدي كامل ثيابك ، لماذا لم تخضها للنهاية !! لماذا لم تبحث عن حواء العارية !!. بحركة لا إرادية أخرجت قلمي الذي لا يفارقني أبدا ، التقطت ورقة من القمامة وجلست فوق الرصيف وكتبت عنوان «الحرية والحياء « . الحرية سجانة غليظة القلب إن لم تقرأ حدودها جيدا ، وتتحسس طريقك وأنت سائر في طريقها ، حتى لا تنزلق قدماك في حفرة ، فينكسر شيء بداخلك لا يمكنك إصلاحه أبدا ، كسور العظام يمكن أن تجبر لكن كسر الداخل لا علاج له.. إلخ ، كان هذا هو عنوان الموضوع الأول الذي خطه قلمي في بلاد الحرية .

كنت ممن رفضوا فكرة الزواج من منطلق الحرية أيضا ، أرى في المتزوجين عبيداً لا تنتهى عبوديتهم إلا بالنهاية المحتومة ، عبيد لزوجاتهم ولأولادهم ، وللمجتمع الذي يفرض عليهم التقيد بالوضع الأسري . عصا الالتزامات والمسؤولية والمشاكل لا تكف عن مطاردتهم ، الويل لمن يتوقف ليلتقط أنفاسه ، ستنهال

العصا المغمضة العينين على بدنه دون تمييز ، الرأس ، المؤخرة ، القفا ، لا رحمة ولا هوادة . ليس من حقه كلمة « الآه « ، عليه دائما أن يردد الشكوى لغير الله مذلة لتخفف من ضربات العصا ولو لبعض الشيء ، كُنت أرجع سبب انحناء ظهر أي رجل يسير في الطريق إلى زواجه ، حتى وإن كان لا يضع خاتم الزواج بإصبعه . مرت الأعوام متشبثا بحريتي ، وعندما تعديت مرحلة الزواج ، كنت أشعر في بعض الأحيان ببعض الغيرة عندما أُدعى إلى زفاف أحد أبناء معارفي أو أصدقائي ، أرى الأسر مجتمعة مع بعضها ، والابتسامات على الشفاه ، كنت أبعد عن رأسي هذا الخاطر متعللاً بأنها ابتسامات مزيفة ، وأن العصا فقط توقفت بعض الوقت للراحة وستنهال مرة أخرى عقب انتهاء الحفل ، أسرع الخطى نحو مكاني المفضل. في القاهرة دائما كان باراً يسمى « ... « في شارع سليمان باشا والذي أطلق عليه بعد ذلك اسم طلعت حرب ، الأميريكين يحتل ناصية شارع فؤاد الذي أطلق عليه بعد الثورة اسم ٢٦ يوليو مع شارع سليمان الذي سمي أيضاً بطلعت حرب . ثم يليه الممر المسمى باسمه ثم صيدلية كاليسيكر ثم هذا البار ، صاحبه يوناني ، كنت معروفا هناك لأنه من النادر

تغيبي عن الذهاب ، العاملون يضعون أمامي ما أريد تلقائيا ، عرفوا ما أفضله مع التكرار ، محشي ورق العنب ، وحبات السوداني غير المقشور . سألتني إحداهن كانت تجلس معي ذات مرة عن سر تمسكي بأن تكون حبات السوداني غير مقشورة ، أجبتها بأنني أحب أن أقشر كل شيء بيدي ، فهمت تلميحي واحمر وجهها ووصفتني ضاحكة بأنني قبيح . ديمتري أكبر العاملين سنا ورتبة يوليني عناية كبيرة ، كنت عميله المفضل ، أشعر وأنا في هذا المكان بأنني صاحبه ، كثيرا ما استلهمت منه ومن عملائه قصصاً ناجحة ، الطراز الكلاسيكي الذي يستهويني ، الأرض المصقولة وكأن الأقدام لم تمسها ، وعملاؤه من الطبقة الراقية . لكن للأسف أغلق أبوابه ورحل أصحابه مع التغيرات التي قلبت كل شيء رأسا على عقب في المجتمع ، تحول إلى واحد من محلات بيع الملابس الجاهزة التي يمتلك منها العديد أحد بهوات الانفتاح . هذا ما دفعني لاختيار البار الذي أصبح مكاني المفضل عندما هاجرت إلى أمريكا ، بحثت طويلا حتى عثرت عليه في وسط مدينة منهاتن أو ما يطلق عليها بالإنجليزية « داون تاون منهاتن « ، بار يحمل نفس الطراز الكلاسيكي ، الأرض المصقولة كالمرآة ، الأخشاب البنية التي تشبه في

لونها حبات البن المحمص ، الخدمة الممتازة التي تذكرني بالعاملين هناك وعلى رأسهم ديمتري ، علاوة على عملائه المحترمين . آنست إلى هذا البار منذ أول مرة وطئته قدماي ، الشعور بالراحة لأي شيء لا يحتاج لوقت طويل ، حتى في البشر ، قد تقابل إنساناً تشعر نحوه بالراحة منذ اللحظة الأولى ، وقد تعرف آخر لفترة طويلة لكن هناك شيئاً بداخلك دائما يحذرك منه ويدعوك إلى عدم الاطمئنان إليه . استهوتني «داون تاون منهاتن» وخاصة الجهة الشرقية التي تطل على المياه ، تذكرني بأيامي التي كنت أقضيها بالإسكندرية ، كنت دائما أنزل بإحدى الشقق التي تطل على مياه البجر الأبيض المتوسط . لحظات الانتعاش في الصباح الباكر عندما كنت أطل من الشرفة ، الهواء يأتي نقيا لم يمر بعد على آلاف المصطافين التي كانت تزدحم بهم الشواطئ ، الشارع مغسول دائما ، لا يشغله سوى بعض المترجلين ، أو بعض سيارات استيقظ أصحابها مبكرا لسبب أو لآخر . عندما شاهدت البيت الصغير المعروض للبيع في الجهة الشرقية من «داون تاون منهاتن» ، شدني نحوه وشعرت بالراحة إليه وهو يجذبني لتشابه موقعه مع المنطقة التي كنت أنزل بها بالإسكندرية ، لم أتردد كثيرا ودفعت فيه مبلغا

كبيرا من المال الذي أتيت به معي . ما جذبني إليه أكثر قربه من البار الذي اخترته ليكون مجلسي الدائم مساء كل يوم ، مسافة يمكن أن تقطعها الأقدام في الطقس المعتدل . بيت صغير لكنه جميل ، الهدوء يحيط به ، الشرفة على امتداد واجهته ، على يساره مطعم راق تخصص في الأسماك والمأكولات البحرية ، وعلى يمينه أحد البنوك الكبرى يغلق أبوابه في الساعة الثالثة مساء . عندما فتحت حساباً به نلت اهتماما شديدا عندما علموا أنني أقطن البيت المجاور لهم . الاهتمام الأكثر نلته من العاملات عندما علموا أنني أمرح في عالم العزوبية . انتظم رتم حياتي ، كنت أحافظ دائما على مكاني المفضل بالبار ، تكونت ألفة بيني وبين عملائه المستديمين ، لكنها لم تخرج عن التحية المبتسمة الصامتة . ساعدني هذا المكان على مراقبة الوجوه والتصرفات التي كنت أصبها دائما على الأوراق التي لا تفارقني ، كنت أجد سعادة وأنا أحول هذه اللفتات أو الإيماءات أو الغمزات أحيانا ، إلى كلمات أمزجها ببعض الخيال ، لأخرج منها قصة لمجتمع جديد بالنسبة لي ، ولبشر لم ألم تماما بعاداتهم وتقاليدهم . في إحدى الأمسيات وأنا ألملم شتات فكري لأخط بعض الكلمات ، سمعت صوتاً يمكن أن نقول

إنـه رقيـق أو حالـم أو رقيـق وحالـم معـا يأتينـي مـن الخلـف .

_ هل أنت وحيد ؟

_ علـى الأقل هذه الليلـة .. أجبت وأنـا أستدير نصف استدارة لأرى صاحبـة الصـوت ، عينـان كحبـات العنـب الأسـود الكبيـرة تحتـلان نصـف وجههـا الصغيـر والمسـتدير كمـا لـو كان مـن صنـع الفرجـار ، اضطـررت أن أعـود إلـى نفـس وضعـي وهـي تلتـف لتصبـح أمامـي ولا تـزال عينـاي منجذبتيـن إلـى حبتـى العنـب الأسـود الكبيرتيـن ، جلسـت علـى المقعد أمامـي كمـا لـو كانـت مدعـوة مـن قبـل ، قبـل أن تجلـس تمامـا كنـت قـد تمكنـت مـن فـك الاشـتباك بيـن عينـيّ وعينيهـا ، لتكتشـفا فـي جولـة سـريعة هذا الجسد النحيل بخصره الـذي يمكـن أن ينقصم لأقل ضغطـة ، لسـت أعلـم لمـاذا ذكرتنـي بالممثلـة أودري هيبـورن في فيلـم اللغز ، قـد يكـون الشـعر الفاحـم القصيـر الـذي يكشـف عـن عنـق شـاهق البيـاض ، لدرجـة أننـي توهمـت أننـي أرى قطـرات النبيـذ الأحمـر وهـي تنسـاب داخـل حلقهـا والفسـتان الأسـود البسـيط العـاري الذراعيـن . لـم تكـن ترتـدي مشـدا للصـدر فبـرز الفسـتان بـروزا خفيفـا علـى قـدر مـا دفعتـه النبتتـان الصغيرتـان خلفهمـا ، كفتـاة فـي أولـى سـنوات مراهقتهـا ، قوامهـا لـم يكـن به البـروزات التـي تخلـع أعيـن الرجـال ، لكـن لا أسـتطيع أن أفـرط

في حق الساقين المرمريتين البديعتي التكوين ، أو حبتيْ العنب الأسود الكبيرتين ، مضافا إليهما رقة تشبه زهور الياسمين البيضاء . خلاصة القول إنها أنثى من الطراز الذي يشدك إلى شاطئ الأحلام بليونة ورخاوة ، لتملأ كل طاقات عاطفتك بعيدا عن عنفوان الغرائز ، هذا ما كنت أحتاج إليه في ذلك الوقت ، وأنا أعاني غربة عجفاء وأذوب حنينا إلى الوطن.

ضحكت ضحكة لا تقل عن رقة تكوينها وقالت :

_ أعتقد أنني أعطيتك فرصة جيدة لتتفحصني وترسمني بكلماتك على الورق ، فأنا أراقبك منذ فترة وتأكدت من أنك كاتب من هؤلاء الذي يفضلون لكتاباتهم صورة حية.

_ هذه هي المرة الأولى التي أراك فيها منذ مجيء إلى هذا المكان .

_ كنت أتفحصك مختفية كما تتفحص أنت الرواد كل ليلة لتكتب عما تراه .

_ وهل خرجت بشيء نتيجة لتفحصك هذا ؟

أجابت مبتسمة :

_ أعتقد أنك قلق ، ينتابك أحيانا بعض الضيق ، لهذا رأيت أن أخفف من قلقك وأبعد عنك الضيق .

_ أعتقد أن بك شيئاً من السحر ، بالفعل القلق والضيق غادراني بمجرد ظهورك .

_ هل تبالغ أم هذا خيال الكاتب ؟

_ أعتقد أنني لست مطالبا بالمبالغة ، الكاتب ينقل الخيال ويصوره على أنه حقيقة ، لكنه لا يحول الحقيقة إلى خيال ، وأنت حقيقة أمامي .

_ وهل ستحتفل بالحقيقة التي أمامك احتفالا عاما هنا ، أم ستحتفل بها احتفالاً خاصا .. أنا وأنت فقط ..ـ !!

_ ألم أقل إن بك شيئاً من السحر .. لقد قرأتِ بالضبط ما كنت أفكر به ، كنت أعد في رأسي الصياغة المناسبة لأوجه لك الدعوة لهذا الاحتفال الخاص ، لكنك اختصرت الطريق أمامي .

_ أذن هيا بنا .. فأفكارنا واحدة .

تأبطت ذراعي ببساطة شديدة وخرجنا من البار ، لمحت في أعين الجميع ابتسامة مهنئة ، فهذه المرة الأولى التي أخرج فيها وفي يدي شيء آخر غير الأوراق التي تصاحبني أينما ذهبت .

البساطة الشديدة التي تتعامل بها جعلت من هذه الليلة ليلة لا تُنسى كما يقولون ، منحتني كل شيء دون ابتذال ، لم أكن أتخيل أن هذا القوام الذي يخلو من بروزات الإغراء يمكن أن يكون بهذا العطاء ، لمساتها الرقيقة مع صوتها الهامس ونداء عينيها اللتين تشبهان حبات العنب الأسود الكبيرة أعطوا الحب مفهوماً آخر ، كانت كأول نسمة يأتي بها الربيع بعد أن

يتأكد من مرورها على زهور الحدائق كلها . بعد أن أغمض النعاس عينيها ، تأملت وجهها الصغير الرقيق ، شعرت نحوها بعاطفة غريبة قد تكون عاطفة أبوة لم أعرفها ولم أجربها . المفاجأة التي لم أتوقعها أنني عندما استيقظت ظهيرة اليوم التالي لم أجدها بجانبي ، ولولا وجهها الذي سكن رأسي لتوهمت أن ما حدث لم يكن سوى مجرد حلم ، انتظرت على أمل أن تدق الباب ، فقد تكون ذهبت لقضاء مصلحة وفضلت أن لا توقظني بعد ليلة الحب الساحرة . أتى المساء وذهبت كالعادة إلى البار ولا يزال الأمل لم يتخل عن وجداني في لقائها هناك . كما مر النهار أتى ميعاد عودتي للمنزل ولم تظهر أيضا ، مئات من علامات الاستفهام تطن داخل رأسي ، لماذا ظهرت ولماذا اختفت ؟ . مرت ثلاثة أيام والأمل يخبو يوما بعد يوم في لقائها ثانية . في الليلة الرابعة وأنا في نفس مجلسي بالبار وقد أمسكت القلم وخططت عنوان قصة جديدة عن هذه المخلوقة الرقيقة التي منحتني نضارة الحياة والحب معا لليلة واحدة واختفت أسميتها « الزهرة التي تفتحت وذبلت في ليلة واحدة « ، كنت أفكر كيف أبدأها عندما

شعرت بصوتها الرقيق يطل من فوق كتفي ويهمس :

_ هل أنا هذه الزهرة ؟

لست أعلم إن كان كل شيء من حولي أطلق ضحكاته ، أم من فرط سعادتي توهمت ذلك ، كل ما استطعت أن أفعله هو أن أنهض واحتوي وجهها بين كفيّ وأحدق في حبتي العنب الأسود الكبيرتين وأهمس بحنان :

_ أين اختفيت أيتها الساحرة الصغيرة؟

_ أعتقد أنني فعلت الصواب ، فلقد داهمني شعور بعد الليلة التي قضيناها معا ، بأنني أنا التي فرضت نفسي عليك ، أو أن تكون أنت من طراز الرجال الذين تستهويهم العلاقات العابرة.

_ أنا بالفعل تستهويني العلاقات العابرة ، لكن معك أنت أحسست بشيء آخر وأنت تتوسدين ذراعي كطفلة صغيرة ، تمنيت أن تطول هذه اللحظات وتطول ، أحسست بأنك نسمة الربيع اللطيفة ، والمظلة التي تقيني هجير الصيف ، والأمل الحلو عندما يتجرد كل شيء من اخضراره أمام كآبة الخريف الموحشة ، والدفء الذي يغمر قلبي ويقيه من التجمد تحت وطأة ثلوج الشتاء.

_ مهلك ، مهلك ، كل هذا حدث في أول ليلة قضيناها معا؟

_ كل شيء يقاس بالوقت والزمن إلا المشاعر والأحاسيس

، لا وقت ولا زمن ، تسقط من حساباتها كل ماديات الحياة .

قالت وداخل حبتي العنب الأسود بدت نظرة غريبة :

_ لا تندفع بعاطفة الكاتب فقد تغير كل أقوالك ، وتندم على كل كلمة تغنيت بها .

قلت وأنا أدفعها أمامي برقة :

_ هيا إلى حفلنا الخاص ، ولا تحاولي أن تخيفيني فالعصفور لا يخيف النسر .

قالت وقد شاب النظرة الغريبة بعض الحزن :

_ لكن العصفور يمكنه أن يلتقط الحبة ويطير دون أن يلحق به النسر .

لم أولِ اهتماما لتعليقها وبررته بأنه قد تكون هناك مأساة في حياتها ، لم أحاول أن أدفعها للحديث عن ماضيها تاركاً لها الحرية في اختيار الوقت لتحدثني عنه .

مرت بضع ليال ونحن معا ، أستيقظ في الظهيرة لأجدها خرجت إلى عملها ثم تعود في المساء لنمضي الليلة معا ، لم تعد بي حاجة للذهاب إلى البار وهي معي .

كنت أستغل الوقت الذي كنت أمضيه وحيدا ، عقب استيقاظي وحتى عودتها مساءً ، في كتابة روايتي الجديدة بعد أن غيرت اسمها إلى « الزهرة التي أيقظت خريف العمر» .

لاحظت تغيراً في سلوكها يزداد يوما بعد يوم ، مساحة الحزن احتلت تقريبا حبتي العنب الأسود بأكملهما وبعض العصبية في تصرفاتها ، لم أحاول أن أضغط عليها لتتحدث . لكن ما زاد من قلقي هو هذا الثقل في رأسي الذي كنت أعاني منه عند استيقاظي كل يوم ، كنت أحاول أن أتذكر أحداث الليلة الماضية لكنها دائما كانت تقف عند نقطة واحدة ، لا أتذكر شيئا بعدها . كانت هي التي تعد لي بضعة كؤوس كل ليلة ، شككت في الأمر . ذات ليلة قررت أن أتخلص من هذه الكؤوس دون أن تلاحظ شيئا وأن أظل في حالة يقظة . بعد أن رقدنا وتوهمت أنني أغط في النعاس وجدتها تنهض وتقبلني ثم انسلت من الغرفة ، تتبعتها حذرا ، هبطت إلى الطابق السفلي ثم البدروم ، وضعت يدي على فمي حتى لا تفلت من بين شفتي صيحة الدهشة ، كان بالبدروم عدة رجال يقومون بالحفر ويعبئون ناتج الحفر في زكائب ، لم أفهم شيئا ، لكنني سمعتها توجه حديثها إلى أحدهم قائلة بعصبية شديدة :

_ ألا تنتهون من هذه المهمة ، لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك .

_ قريباً جدا ، واذهبي الآن حتى لا ينتبه لغيابك .

عدت إلى الغرفة سريعا وتظاهرت بأني أغط في النوم ، عادت وظلت للحظات تتأمل وجهي ثم قبلتني ورقدت متوسدة ذراعي .

لا يسعفني القلم لأصور جبل الحزن الذي داس على قلبي ، تكشفت الحقيقة أمامي ، صعُبَ على عقلي تصديقها ، لكنها الحقيقة . عندما تفحصت البدروم في صباح اليوم التالي ، انبلجت الحقيقة أمامي ، استيقظت من وهم الزهرة الرقيقة التي لم تكن سوى فرد في عصابة ، استغلوا منزلي لعمل نفق يصل بين البدروم والبنك للسطو عليه ، الزهرة الجميلة لم تكن سوى وسيلة لكي تضع بعض حبات المنوم في كأسي كل يوم ، حتى يستطيعوا العمل بحرية في البدروم ، لا يغادرونه صباحاً إلا بعد أن يعيدوا كل شيء إلى مكانه ولا يظهر من الحفرة شيء بعد أن يعيدوا السجادة فوقها ، تقريباً لم أكن أهبط إلى البدروم الذي لم أكن أعددته بعد ليكون صالحاً للجلوس به. نصحتني الشرطة بأن أظل على علاقتي معها ، وألا أظهر شيئا من التغيير نحوها ، وأنهم سيتولون كل شيء بطريقتهم الخاصة . لكم شعرت بالأسى من أجلها ومن أجل قلبي الذي سيذبحه فراقها ، لست أعلم لماذا لم أفكر فيها أبدا كلصة . كنت متأكداً أنها أحبتني فعلا كما أحببتها ، فهذا شعوري الذي لا يخطئ نحو النساء ، أعلم بمن تضع

كل مشاعرها وأحاسيسها في قلبها ، وأفهم من لا يهمها سوى إرضاء غرائزها ، كنت أشعر بها وهي بين ذراعي وقلبها يضخ المشاعر والأحاسيس دون حساب . وهذا ما حول أفكاري إلى أشتات تطير في كل اتجاه دون هدف ، كنت أضغطها في صدري بقوة كانت تدهشها ، يكاد يصيبني الجنون كلما تخيلت الشرطة وهي تقتحم الغرفة لتشدها من بين ذراعي ، وهذا ما حدث ذات ليلة ، عندما قفزت العصابة من النفق إلى داخل البنك كانت الشرطة في انتظارهم ، ثم حضروا إلى منزلي . ذهبت معهم دون أن تنبس بحرف واحد ، ذهبت وهي تقبض على قلبي ، كنت أريد أن أصرخ فيهم أن يتركوها لي ، لم أندم على شيء في حياتي قدر ما ندمت على ذهابي للشرطة والإبلاغ عنها وعن العصابة . لكنها ليست مسألة سهلة ، أعلم أن مثل هذه العصابات دموية وتقتل كما لو كانت تحتسي كأساً من النبيذ . عدت إلى مجلسي بالبار والحزن يلف قلبي بأكفانه ، وضعت الأوراق أمامي لأغير عنوان قصتي لثالث مرة ليكون «واستيقظت على الحقيقة المرة « . مرت ثلاثة أيام وأنا أذهب كل مساء إلى البار ، أضع الأوراق أمامي ، لم أخط بها كلمة واحدة سوى العنوان . ظننت

أنني أحلم وأنني على الفراش بين اليقظة والمنام ، عندما أطل وجهها الرقيق من فوق كتفي وصوتها الرقيق يهمس :

_ هل أنا الحقيقة المرة .

لم أشعر إلا وأنا أحتويها بين ذراعي أقبل كل وجهها ، نسيت كل شيء ، البار وعملاءه ، النفق والعصابة والبنك ، لم يعد شيء يهمني سوى حبتي العنب الأسود اللتين أحدق فيهما وهما ممتلئتان بالحب ، دفعتني برقة وهي تقول :

_ إننا لا زلنا في البار احتفظ بهذا كله لاحتفالنا الخاص .

كعادتي لم أسألها وتركتها تتحدث :

_ من حقك أن تعرف الآن كل شيء ، لم أكن قبل هذه اللحظة أستطيع أن أبوح بأي شيء ، لقد علمت من الشرطة أنك كنت تعرف كل شيء وأنك قمت بإبلاغهم ، لكن الذي لا تعلمه أنني كنت قد أبلغت الشرطة قبلك ، دعني أسرد عليك قصتي بإيجاز شديد . أنا من أصل فرنسي ، كنت أعمل مدرسة للغة الإنجليزية في بلادي ، ذات ليلة حاول زوج أمي اغتصابي ، ومن باب الدفاع عن نفسي أمسكت بسكين وجدتها كانت على المائدة ، كان كالثور الهائج ، اندفع نحوي فانكفأ على السكين وهي في يدي ، سقط على الأرض يسبح في دمائه .

تملكني الذعر وهربت من المنزل ، تمكنت من السفر إلى أمريكا ، اضطررت أن أعمل في بار إيطالي ، لأن إقامتي لم تكن قانونية ، فوجئت ذات ليلة بمن يهددني بأنه سيبلغ عني الشرطة لأنني لا أملك إقامة قانونية ، والأدهى من ذلك لست أعرف كيف علم بواقعة زوج أمي ، قد تكون من الصحف الفرنسية التي تصدرت صورتي صفحاتها الأولى . دون إطالة هددوني إما أن أقوم بمهمتي معك أو إبلاغ الشرطة عني ، كانوا قد أعدوا كل شيء خاص بالسطو على البنك ، ولم يبق سوى أن أشغلك وأقدم لك المشروب الذي يحتوي على المخدر ليعملوا ليلا بالبدروم ، لم يكن في الحسبان أني سأغرق في هواك حتى أذني ، وهذا ما دفعني للتضحية بنفسي ، ذهبت للشرطة وقصصت عليهم كل شيء ، وطُلب مني أن أقوم بدوري حتى النهاية ولا أبلغك بشيء حتى يسير كل شيء كما رسموه . لم أكن أعلم وقتها أنك أيضا أبلغت الشرطة ، وعندما حضرت الشرطة لاصطحابي كنت ذاهبة معهم للشهادة . تعاطفت معي الشرطة ووعدوني بأنهم سيساعدونني للحصول على الإقامة ، خاصة أنهم اتصلوا بالشرطة الفرنسية وعلموا أن زوج أمي لم يمت ، واعترف بأنه هو

الـذي هـوى علـى السـكين عندمـا اندفـع نحـوي ليغتصبنـي . هـذه قصتـي باختصـار ، واعتقـد أنـه حـان الوقـت لنذهـب لنحتفـل احتفالنـا الخـاص .. ثـم مبتسـمة .. لكـن دون مخـدر . قلـت وأنـا ألـف ذراعـي حـول خصرهـا برفـق حتـى لا ينقصـم .

_ مـا رأيـك لـو نجعلـه احتفـالاً خاصـاً مسـتديماً ، إذا لـم يكـن لديـك مانـع أن تتزوجـي بمـن هـو فـي سـن أبيـك!

_ لكني علمت منك أنك قضيت عمرك من أشد الرافضين للزواج .

_ نعـم أعتـرف بأننـي قلـت هـذا ، لكـن لـم أقـل لـك بأننـي سـأظل مغفـلا طـوال عمـري ، وأطلـق عصفـورة جميلـة لتضيـع مـن قلبـي وعينـي ، لكـن دعينـي أولا أغيـر عنـوان القصـة لرابـع مـرة .. ليكـون « فتـاة البـار»

حدث في ليلة عاصفة

****

نظر الضابط نحوه بإشفاق ، الحزن والبؤس ينضحان من وجهه ، شعر مشعث ، لحية لم تر الموسى منذ عدة أيام ، عينان حمراوان تشيان بأنهما قاطعتا النوم منذ فترة ليست بالقليلة . ابتسم الضابط ليدخل بعض الطمأنينة إلى قلبه الواجف ، أمره بالجلوس وقال بنبرة هادئة :

_ لا تدع القلق يأخذك يا جلال ، ليس هناك أي شيء ضدك سوى جواز سفرك الذي انتهت صلاحيته منذ عام ، هذه ليست جريمة يعاقب عليها القانون ، تحرينا عنك ولم نجد شيئا معيبا في سلوكك ، لكن أود أن أسألك ولك مطلق الحرية أن تجيب أو لا تجيب ، سؤال خارج عن النطاق الرسمي ، لقد تم ترحيلك من قبل السلطات الأمريكية لانتهاء صلاحية تأشيرة دخولك ، لكن ما الذي دعاك للمكوث هناك ؟ وكيف أمسكوا بك؟ وغيرك الألاف من جميع الجنسيات لهم نفس وضعك .

بدت في عيني جلال نظرة كافية للإجابة عن سؤال الضابط ، ابتسم ابتسامة محاطة بالكآبة ثم قال :

_ ألم تسمع يا حضرة الضابط هذه المقولة من قبل :

إن حظي كدقيق يوم ريح بعثروه فوق شوك بعثروه .. ثم قالوا لحفاة قوم يوم ريح اجمعوه .

سقطت بضع قطرات من عينيه لتكتمل لوحة مرسومة بريشة البؤس ، تعبير صادق عن أحلامه التي اختطفها القدر فجأة ودون سابق إنذار ، أكمل وهو يعبث بعصبية بمنديله المبتل : قصتي لن تختلف كثيرا عن القصة التي كنا نسمعها ونحن صغار عن الثعلب الذي شعر بالجوع الشديد واستطاع أن ينفذ من فجوة صغيرة في سور حديقة إلى داخلها ، أكل بنهم من فاكهتها ، عندما حاول العودة من الفجوة الضيقة استعصى عليه النفاذ من خلالها بعد أن امتلأ كرشه . انتظر حتى هضمت معدته ما أكله ونفذ من الفجوة إلى الخارج ، ينعي حظه ، جوعانً دخلت جوعان خرجت. الاختلاف الوحيد بيني وبين هذا الثعلب ، أنني عندما دخلت لأمريكا لم أكن جوعان لدرجة الموت ، لكن الطمع هو الذي دفعني إلى مائدتها ، للأسف تركت كل شيء وخرجت والجوع يكاد يقتلني .

قصتي أو مأساتي بمعنى أدق ، بدأت مع تخرجي من كلية التجارة ، عملت بأحد البنوك عن طريق الواسطة بالطبع ، ورشوة مقنعة يسمونها هدية لمن توسط في

توظيفي ، حصلت على مرتب محترم كان مسار غيرة وحقد وحسد من الزملاء الذين عملوا بمجالات أخرى . تعرفت في البنك على زميلة لي ، وكما يحدث دائما ، النظرة ثم الابتسامة فاللقاء وكلمات مبعثرة عن الحب تطلبت الوعد بالزواج . لم يكن الوعد سهلا ، لكي يتحقق لابد من وجود الشقة وغيرها من متطلبات ومصاريف باهظة لا تنتهي إلا برؤية فتاتي في ثوب الزفاف ، كنت لا أملك سوى خمسة عشر ألف من الجنيهات ورثتها عن أبي ، وبالرغم من تواضع المبلغ أمام الكبرياء المستفز لمتطلبات الزواج ، وجدت تشجيعا من فتاتي في أن ننتظر بعض الوقت وندخر ما نكسبه ، بالرغم من اقتراحها المثير للضحك والأشجان في وقت واحد ، حاولت أن اقتنع به كنوع من العلاج لمرض ميئوس منه ، إلى أن جاء اليوم الذي تمردت فيه على الداء والدواء . ذهبت للمطار لأستقبل أحد أقربائي كان قادما في إجازة ، هاجر إلى أمريكا وعاد وكل شيء عليه أو معه حاول أن يضع عليه صُنع في أمريكا ، حتى لسانه لم ينس أن يصبغه بالصبغة الأمريكية ببعض العبارات التي ينطقها باللغة الإنجليزية . لن أنكر الحقيقة ، بهرني كل هذا ، تخيلت نفسي مكانه ، تمنيت أن ينتقل الخيال للواقع ، قضيت ليلتها ساهرا مفكرا في

كيفية الانتقال من الخيال للواقع الذي سيحقق لي أحلامي . في اليوم التالي بدأت في اتخاذ الخطوة الرئيسية ، الحصول على تأشيرة الدخول لأمريكا . تحدثت مع زميل في البنك كنت أسمع أنه على اتصال ببعض الموظفين بالسفارة ، يسهلون له الحصول على التأشيرة لقاء مبلغ يتفق عليه . استنزفت هذه الخطوة وحدها ثلثي مدخراتي ، دفعت عن طيب خاطر عشرة آلاف جنيه للحصول عليها . لم أصدق عينيّ عندما تسلمتها ، قضيت ليلتها في مغازلة لها تفوق غزل العشيق لعشيقته . كنت أخفيت الأمر عن فتاتي وعندما نقلت إليها الخبر استنكرت ورفضت فكرة سفري غير المضمونة العواقب ، أخبرتها بأن السيف قد سبق العذل ، وأنني دفعت عشرة آلاف جنيه مقابل هذه التأشيرة ، وبأنني لن أتغيب أكثر من عامين سأقضيهما في عمل مستمر حتى يمكنني أن أدبر ما يلزم من نفقات لإتمام زواجنا ، وافقت مضطرة وأنا أقرأ داخل عينيها حديثاً صامتاً لا يعبر عن شيء لكن قد يكون له مغزاه. حلقت بي الطائرة وأنا غير مصدق ، أُصبر جوع جيبي بأحلام الوجبة الدسمة من الدولارات التي تنتظرني فوق المائدة الأمريكية بعد أن فقدت الخمسة آلاف جنيه

الباقيــة ثمنــا لتذكــرة الســفر وبعــض المتطلبــات الأخــرى . كان مــن اليســير أن أحصــل علــى بعــض الأعمــال بالرغــم مــن افتقــاري إلــى الإقامــة الرســمية ، لأن التأشــيرة التــي حصلــت عليهــا للزيــارة فقــط وليســت للعمــل ومحــددة بثلاثــة أشــهر، لكــن مــن ســيبحث عنــي وســط هــذا الخضــم البشــرى الهائــل مــن جميــع الجنســيات والألــوان ، لــن يصــل إلــىّ أحــد مــا دمــت لــن أرتكــب مخالفــة تجعــل يــد الشــرطة تمتــد نحــوي ، وهــذا مــا نجحــت فيــه تمامــا ، ابتعــدت عــن أيــة مشــكلة حتــى لــو كانــت تافهــة . انتهيــت إلــى أن أفضــل عمــل بالنســبة لــي هــو محطــات الوقــود لســببين أولهمــا مــا يمكــن أن يعــود علــىّ مــن دخــل إضافــي كبقشــيش وأنــا أقفــز مــن ســيارة لأخــرى أنظــف زجاجهــا ، والثانــي أن أصحــاب محطــات الوقــود كان يفضلــون أمثالــي ممــن يعملــون بصفــة غيــر قانونيــة ويقبلــون بــأي أجــر . تقبلــت العمــل لأكثــر مــن اثنتــي عشــرة ســاعة كل يــوم بيــن شــمس حارقــة وبــرد ترتعــد لــه الفرائــص وثلــوجُ تغــوصَ فيهــا الأقــدام فتحيلهــا إلــى قطعــة منهــا مهمــا حاولــت أن تدثرهــا بجــوارب ثقيلــة . كنــت أنســى كل هــذا العــذاب بمجــرد أن تقبــض يــدي علــى الأجــر وأضيفــه إلــى رفقائــه الســابقين ، لا ينقــص منــه ســوى اليســير الــذي أنفقــه فــي مــا أقتــات بــه ، وتســديد حصتــي مــن الإيجــار

لغرفة داخل شقة ، يسكنها أناس أقل ما يقال فيهم إن شكلهم مريب ، توحي نظراتهم بأنهم على استعداد لارتكاب أي شيء في سبيل الحصول على المال . الخوف يعشش بداخلي دائما ، أظل طوال الليل أرهف أذني خوفا أن يقتحم أحدهم الغرفة ليستولي على ما اقتصدته من نقود ، لم يكن أمامي سوى قبول هذا السكن حتى لا أخسر كثيرا من المال ، وأيضا لأنه من الصعب أن تحصل على سكن محترم دون أن تكون معك أوراق رسمية تتيح لك الإقامة داخل أمريكا . قبلت كل هذا وأنا أهون على نفسي بأنها فترة وتنقضي وأعود لبلدي ، بعد أن أكون قد ادخرت ما يسهل لي الوصول إلى مسكن الزوجية ، الثمن غال وباهظ لكن لا بد من الصمود . عندما كانت تشتد الوطأة على أعصابي ، كنت أخرج ما ادخرته من المخبأ الذي اجتهدت أن لا تصل إليه يد ، أحصيه وأنثره على الفراش لأُملي النظر منه ، بعدها أشعر بالهدوء وأعيده إلى مخبئه ثانية . مر ثلاثة وعشرون شهرا ولم يبق سوى شهر واحد وأعود ، المدة التي وعدت بها فتاتي ، وإن كنت بدأت أشعر بالحيرة ، بعد أن انقطعت أخبارها منذ خمسة أشهر ، كنت دائم الاتصال بها هاتفيا ، وبيننا خطابات ، في كل خطاب أذكر لها الرقم الجديد

الذي وصلت إليه مدخراتي ، ويأتيني الرد بكلمات مشجعة . فجأة انقطع الاتصال بيننا ، الهاتف يقول بأنه خارج الخدمة ، لا ردود على خطاباتي حتى التي أرسلتها لها على عنوان العمل ، خمسة أشهر لم أسمع عنها شيئا ، لاعبتني الأفكار واشتدت في مزاحها السخيف ، لم أستطع الصمود أمام هذا المزاح الثقيل الظل وقررت أن أعود . ثلاثة وعشرون شهرا فيهم البركة ، لا يهم أجر هذا الشهر ، ما ادخرته كاف لتحقيق عش الزوجية ، لم يبق أمامي سوى ثلاثة أيام قررت أن أقضيها في العمل لأخر لحظة ، فرصة لن تتكرر يجب الاستفادة منها لآخر قطرة . في تلك الليلة المشئومة ، كان من المفروض أن ينتهي العمل في الساعة الثانية عشرة أي منتصف الليل ، ليتسلمه زميل لي ، وبالرغم من العاصفة الثلجية ولسعات البرد المثلج والجو المغري للحاق سريعا بدفء الفراش ، قررت أن أظل أعمل مع زميلي لبعض الوقت ، لأرضي عادة استحوذت علّى وأصبحت مدمناً عليها ، وهي أن أعود كل يوم ومعي مبلغ ثابت أحصل عليه من البقشيش ، وفي هذه الليلة أحصيت ما معي ووجدته تسعة وأربعين دولارا ، لا يزال دولار حتى تكتمل الخمسين لأصححها وتصبح قطعة واحدة .

لـم أنتظـر كثيـرا ، أتـت سـيارة ، قفـزت عليهـا لأزيـح بعـض الثلـج مـن فـوق الزجـاج الأمامـي الـذي لـم تفلـح ماسـحة المطـر فـي إزاحتـه ، أظهـر قائدهـا كرمـاً وأعطانـي دولاريـن ، ضحـك زميلـي وأنـا أقـدم لـه خمسـين دولارا فـرادى ليعيدهـا لـي ورقـة واحـدة ، قـال وهـو يضحـك هيـا أسـرع بهـا لترقـد مـع أخواتهـا . غـادرت المحطـة ومـا أن ابتعـدت قليـلا حتـى تملكنـي هاجـس بأننـي سـأقع بيـن يدي بعض الشـباب المتسـكع مدمنـي المخدرات ، الذيـن يتجولـون بالمنطقـة ليـلا ، يهـددون مـن يلقيـه حظـه أمامهـم ويجردونـه مـن نقـوده . أخرجـت الورقـة ذات الخمسـين دولار مـن جيبـي لأخفيهـا بيـن طيـات ملابسـي الداخليـة . فـي تلـك اللحظـة هبـت الريـح القاسـية لتنتزعهـا مـن يـدي وتقذفهـا بعيـدا ، تعقبتهـا وكأنـي أتعقـب روحـي التـي تـود الفـرار، الريـح الغـادرة كانـت تحمـل فـي طياتهـا العفاريـت ، كلمـا اقتربـت مـن الورقـة لألتقطهـا ، تفـزع وتلقـي بنفسـها بعيـدا عـن يـدي ، إلـى أن فزعـت فزعـة شـديدة وطـارت فـوق السـياج حـول أحـد المنـازل وسـقطت فـوق الأرض . قـررت ألا أتركهـا مهمـا تكبـدت ، تسـلقت السـور ، بمجـرد أن حطـت قدمـي بالداخـل انطلـق عـواء كلـب مـن خلـف نافـذة زجاجيـة ، لـم أعـره اهتمامـا فأنـا فـي مأمـن منـه ، اقتربـت مـن مـكان سـقوط

الورقة بجوار صناديق للقمامة وأنا أقلبها بعصبية ، لم تمض عدة دقائق حتى وجدت المنزل محاصراً بعربات الشرطة ، وميض أضوائها يعمي البصر ، جريت سريعا وقفزت من فوق السور لتتلقفني يد شرطي زين معصمي بالقيود . اقتادوني معهم ليكتشفوا أنني أقيم بطريقة غير رسمية ، اتخذوا قرارهم بترحيلي على أول طائرة . لم تجد توسلاتي ودموعي في أن يسمحوا لي بأن ألملم حاجياتي والتي كان أهمها بالطبع ما ادخرته من نقود ، شقاء وغربة ما يقرب من عامين . تلقيت الإجابة وكأنها نيران جهنم تشوي كل ذرة تنطق بالحياة في جسدي ، كل شيء اكتسبته خلال هذين العامين ليس من حقي لأنني أقمت وعملت بطريقة غير قانونية ، لم أجد حقيبة أحمل بداخلها بؤسي فعدت وأنا أحمله فوق وجهي ، جوعان دخلت جوعانا خرجت . نظر الضابط نحوه بإشفاق ، استفسر إن كان له صديق هناك يخبره أين يخفي شقاء العامين ليتمكن من إرساله له ، كست عينيه سحابة من المرارة وأجابه بأن صديقه الوحيد انتقل إلى ولاية أخرى ولا يعرف له عنواناً ، أما رفقاء السكن فإنهم لا يؤتمنون على سنت واحد.

هز الضابط رأسه بأسف وقال :

_ وما المصير التي ستؤول إليه نقودك ؟

نظر جلال إلى الأرض ليخفي دمعة تحاول أن تهرب من عينه وقال :

_ خلال يومين أو ثلاثة سيكتشف صاحب الشقة اختفائي ، وخاصة أنني لم أسدد حصتي في الإيجار ، وبالطبع سيفتح باب الغرفة عنوة وسيلقي بكل حاجياتي على الرصيف ، ومن ضمنها الوسادة التي انتزعت أحشاءها وملأتها بأوراق النقد ، وستأتي عربة القمامة لترفع الجميع .

ربت الضابط على كتفه وقال :

بالرغم من أنه درس قاس ، لكن أرجو أن يكون لك فيه عبرة وأنه لا يصح غير الصحيح ، واعتقد أن لقاءك بفتاتك سينسيك ما قاسيته في تجربتك هذه .

تدحرجت دموعه وقال وابتسامة محزونة على شفتيه :

_ أرجو ذلك .

كادت الصدمة تقضى على البقية الباقية من أعصابه وهو يرى انتفاخ كرشها بعض الشيء ، قالت وفي عينيها نظرة تفوق برودتها العاصفة الثلجية سبب نكبته :

_ هل من الغريب أن تحبل امرأة متزوجة .

قال جلال وهو يستند بيده على الحائط والدوار يملأ رأسه :

_ هل تزوجت ؟! .

أجابت فتاته :

_ علامات الحمل تقول ذلك .

_ ولماذا لم تنتظريني كما اتفقنا ؟!

_ قالوا لي.. عصفور باليد خير من عشرة فوق الشجرة .

****

ليلة من ليالي إبليس

****

كالعادة أنا والليل الصامت أجلس أمام الكمبيوتر أدون بعض ذكريات الطفولة ، لكن تلك الليلة لم تكن صامتة ، الريح تصرصر بملء حنجرتها دون مراعاة لنائم أو مريض لا يتحمل حتى همسة تتسرب إلى أذنه مصطحبة معها سيلاً من الأمطار تدق حباتها زجاج النافذة بإلحاح وكأنها جوعان في آخر رمقة من الحياة يستجدي كسرة من الخبز ، ليلة من ليالي نيويورك والشتاء يدق الأبواب متعجلاً في قدومه وكأنه دائن لا يخشى الله يطالب باسترداد ما نعمنا به من دفء وشمس خلال فترة الصيف ، أزحت الستار عن النافذة ولامست جبهتي زجاجها المثلج محاولاً أن أخترق الظلام فربما أرى إلى أين يتجه إبليس في هذه الليلة العاصفة الممطرة ، ذكريات التصقت أو التحمت برأسي بشدة ولا يمكن فصلها . كنت في سن الطفولة عندما رحلت أمي ، التصقت بأبي في محاولة لجبر مرارة رحيلها لكنني اكتشفت أنه كسر أو شرخ داخلي قد يتعافى بمرور الوقت لكن تبقى آثاره

لنهاية العمر ، كلما فكرت في الأبوة والأمومة تقفز أمامي صورة كوب الشاي بالحليب الذي اعتدنا أن يكون افتتاحية يومية في بلادنا ، شيء مندمج لا يمكن فصله ، برحيل أحدهما نفقد هذا المذاق الذي اعتدنا عليه منذ أيامنا الأولى ولا يبقى سوى المذاق الفردي الذي يمكن أن نتقبله لكن دائماً تهفو النفس إلى مذاق كوب الشاي بالحليب .

التصاقي بأبي بالتأكيد أجبر رحيل أمي وخاصة أنه لم يدخر وسعاً في تعويضي ولو بعض الشيء عن كنز الحنان المفقود بدليل أن هذه الذكريات لا تزال تلتصق وتلتحم بذاكرتي بشدة حتى الآن ، أرقد بجانبه كل ليلة واستمتع بقصص وأحاديث البعض منها حقيقة والأكثر يجنح به الخيال الذي يستهوي الأطفال ، في ليلة شتوية عاصفة ممطرة على غير عادة أجواء جنوب مصر سألته عن صرير الرياح الذي يكاد يقلع النافذة الخشبية ، أجابني بأنه سمع من جده أن هذه الريح دائماً يجول معها إبليس في محاولة لاختراق المنازل عن طريق نوافذها ليصل إلى ساكنيها ويزرع الشر في عقولهم ، لكن البيت الذي تحصن بالإيمان وحب الله يكون سداً منيعاً أمامه ولا يمكنه اختراق سوى نوافذ البيوت التي خلت من حب الله ، كنت كلما استيقظت على صوت الريح أنكمش

وأُلقي بذراعي عليه لأطمئن إلى وجوده بجانبي متخيلاً إبليس في جولته وأن هذه ليلته ويذهب بي التفكير ياترى إلى أين يتجه هذه الليلة وأي بيت في المدينة سيتمكن من اختراق نوافذه ، تدور في رأسي هذه الأفكار إلى أن تغمض عيناي مقسرة أمام سلطان النعاس وأنا أردد أنها ليلة من ليالي إبليس ، ترقد معي الفكرة إلى أن أستيقظ في الصباح فأسرع لأطمئن إلى أن كل النوافذ مغلقة تماماً ولم يقدر إبليس على اختراقها وأشعر بالفرحة لأن بيتنا لم يستطع إبليس اختراق نوافذه لأنه متحصن بالإيمان وتقفز إلى رأسي الدعوات التي أسمع أبي يرددها دائماً في صلاته وأردد عن يقين أنها المزلاج الذي يغلق النوافذ في وجه إبليس . ذات ليلة ريحية ممطرة بشدة أرهفت السمع لأطمئن أن إبليس لا يستطيع الاقتراب من نوافذنا والعبث بها بالرغم من تأكدي بأنها محمية بالإيمان بالله إلى أن شدني النعاس إلى أحضانه وكالعادة عندما استيقظت درت على كل النوافذ للاطمئنان ، فتحت إحداها كالعادة لأشاهد الباعة الذين اعتادوا أن يحطوا في الصباح أسفل بيتنا وأشهرهم عبدالله بائع اللبن ، وعم قاسم الذي يبدأ مع الفجر في طهي الأرز باللبن كوجبة للمبكرين إلى أعمالهم وعم خليفة بائع الفول

المدمس ، التقطت أذني بعض الكلمات عن جريمة وقعت في منتصف الليل ، ذكرتني الأرض المبتلة بريح وأمطار الليلة الماضية ، استيقظت بداخلي كل الحواس المستعدة لأن تتقبل فكرة أنها ليلة من ليالي إبليس ، وبالرغم من أنني في ذلك الوقت كنت لم أتجاوز العاشرة من عمري هبطت إلى مدخل البيت لأستمع إلى المزيد للتأكد من أنها كانت ليلة إبليسية بالفعل ، سألت عم قاسم بائع الأرز باللبن الذي كانت تجمعني به مودة فكثيراً ما كنت من باب المجاملة أستفتحه بشراء طبق من أطباقه الساخنة وكثيراً ما كان يحاول ألا يتقاضى الثمن بحكم الجيرة ، لكن إصراري كان يتغلب فيردد بأن اليوم الذي استفتحه بالشراء يكون يوماً مثل الحليب ويبيع كل ما طهاه ويعود بأوانيه فارغة ، بحكم هذه المودة لم يبخل أن يخبرني بالتفصيل عن الجريمة التي وقعت بعد منتصف الليل ، أُنصت إليه مبهور الأنفاس ، رواية عم قاسم تقول إنه في البيت الذي يقع في منطقة تسمى الساحل وقعت جريمة قتل ثنائية لرجل وامرأة يقطنان منزلاً واحداً في طابقين مختلفين ولا يمتان بأي صلة قرابة لبعضهما ، وأن الجريمة المزدوجة وقعت بغرض السرقة كما نما لسمع عم قاسم ، تسللت من جانبه وفي رأسي فكرة ملحة ، الذهاب

إلى هذا المنزل ، الفضول يدفعني دفعاً ، فرصة لأرى ما يفعله إبليس في ليلة من لياليه ، الفكرة أصبحت في حجم الجبل ولن يستريح رأسي إلا بتنفيذها ، لم أدر إلا وقدماي تهرولان بي نحو الطريق المؤدي إلى هذا المنزل ، بالرغم من أعوامي العشرة وبعد المسافة تمكنت من أن أحقق أُمنية الوصول ، اقتربت وأنا أردد في داخلي بعض الأيات الدينية خوفاً كما صور لي صغر سني أن تكون هناك بقايا لإبليس من الليلة الماضية وتحاول أن تزرع الشر بداخلي . بالرغم من وجود الشرطة وجمهرة من الناس الذين دفعهم الفضول إلا أنني استطعت أن أنسل إلى داخل المنزل دون أن يلحظني أحد ، صعدت إلى الطابق الثاني حيث جثمان السيدة وبجرأة غريبة ألقيت نظرة عليه ولم يفتني أن ألقي نظرة على النافذة المكسورة وبنفس الخفة كفراشة انسللت إلى الطابق الثالث حيث جثمان الرجل وكررت ما فعلته بالطابق الثاني ، كان يقف بالقرب من الجثمان رجل طويل القامة تبدو عليه الهيبة وخمنت أنه من الشرطة ، لم أكن أعرف أنه يُدعى وكيل النائب العام ، اقتربت منه وبجرأة تفوق عمري قلت : لقد كان إبليس في القرية ليلة الأمس وهو الذي اقتحم النافذتين وزرع الشر في الرجل والمرأة لأنهما

لا يحبان الله ، التفت الرجل نحوي بسرعة والدهشة تملأ وجهه ، وضع يده فوق كتفي وسألني ماذا تقول ؟ أجبته بنفس كلماتي السابقة ، انتحى بي أحد الأركان وسألني إن كانت تجمعني بهما أو بأحدهما صلة قرابة فأجبته بالنفي ، سألني ثانية إن كنت أعلم شيئاً فأجبته أنني لا أعلم سوى ما تفوهت به ، سألني ثالثة ما الذي دعاني للتفوه بهذه الكلمات فأجبته بأنني على يقين مما قلته وأن أبي لا يكذب وأن هذا الرجل وهذه المرأة ما كان إبليس يجرؤ على كسر نافذتيهما وزرع الشر بداخلهما لو أنهما يحبان الله ، ربت على كتفي مبتسماً وسألني عن اسمي وهو ينظر إلى وجهي بإعجاب وسألني أن أعود إلى المنزل وخاصة أنني أخبرته بأنني حضرت يدفعني الفضول دون أن أخبر أحدا . مرت عدة أيام وفوجئت ذات مساء بأبي يأتي قبل موعد حضوره اليومي وفوق قسمات وجهه تتأرجح بعض الدهشة وسألني عن هذه الواقعة وأجبته بكل صراحة وبالتفصيل الدقيق ، ابتسم وقال لي إن وكيل النيابة الذي تحدثت معه في مكان الجريمة يطلبني وكانت هذه هى المرة الأولى التي أعرف فيها لقب وكيل النيابة فأجبت أبي بكل ثبات فلنذهب ونرى ما يريده مني ، لاحظت نظرات أبي نحوي

وكأنه يراني لأول مرة وقال بصوت هامس وكأنه يحدث نفسه : أعتقد أن عقلك يقفز بصورة أكبر من سنوات عمرك وإن كنت لم أفهم ما يقول تماماً إلا أنني استوعبت أنها إعجاب وقلت له وأنا أقبض على كفه لنسير إلى مكتب وكيل النيابة أنت أبي فلماذا لا أكون كما تقول . استقبلني وكيل النيابة بترحاب كبير وهو يهز يدي كرجل كبير وسألني ماذا أريد أن أكون في المستقبل وأجبته بأنني أريد أن أكون مثله لأحقق في جرائم إبليس ، قهقه هو وأبي وهو يربت فوق كتفي ، جلسنا وقال لأبي وهو يرمقني بنظرات الإعجاب هل تعلم أن ابنك هو من أوحي لي بإماطة اللثام عن هذه الجريمة النكراء ، لقد كانت كل الشواهد تقول إن الجريمة تمت بغرض السرقة ، النافذتان المحطمتان والعبث بمحتويات حجرتي نوم القتيل والقتيلة واختفاء المصوغات والنقود واعتراف أقاربهما بأنه لم يكن لهما أعداء كلها كانت تشير بأن الجريمة وقعت بغرض السرقة ، كدت أن أغلق باب التحقيق على أنها جريمة قتل مزدوجة بغرض السرقة وأطالب الشرطة بسرعة القبض على الجاني أو الجناة ، لكن لفت انتباهي بشدة ما سمعته من ابنك الذي فوجئت به في مسرح الجريمة عندما قال

إن إبليس أتى مع الريح في الليل وهو الذي حطم النافذتين ليزرع الشر في عقل المرأة والرجل ، الحقيقة في بادئ الأمر نظرت إلى كلماته على أنها مجرد خيال لصبي صغير ، لكن سرعان ما قفزت هذه الكلمات بشدة إلى عقلي وابتدأت أنظر إلى الجريمة على أنها تمت كانتقام للشرف وخاصة بعد أن علمت أن القتيل كان يعيش بمفرده بعد موت زوجته وأنه لم يُنجب خلال فترة زواجه ، قمنا بعمل تحريات عن زوج القتيلة الذي أنكر بشدة في بادئ الأمر قائلاً إنه لم يعرف عن الجريمة سوى من الصحف لأنه يقيم بحكم عمله في القاهرة ولا يأتي إلى منزله سوى في نهاية كل أسبوع ، لكن بمواجهته بأحد أهالي القرية الذي رآه عند هبوطه من القطار في ليلة وقوع الجريمة انهار واعترف وقال إنه كان معتاداً على الحضور إلى منزله دائماً في نهاية الأسبوع لكن هذه المرة انتهى العمل الذي يشارك في إنجازه في منتصف الأسبوع ومنح رب العمل كل العمال إجازة حتى نهاية الأسبوع وأنه عاد فجأة إلى منزله وصُدم بأن فوق فراشه خيانة وإعدام لشرفه ، جاره الذي يقطن في شقة في الطابق الثالث يرقد إلى جوار زوجته . دارت الدنيا أمام عينيه عدة دورات وأفقدته توازنه فبطش

بالرجل ثم زوجته وحمل الرجل إلى شقته وأخفى مصوغات زوجته والنقود التي وجدها في شقة الرجل وحطم نافذة في كل شقة لكي تبدو الجريمة على أنها جريمة ارتكبت بغرض السرقة ويكون قد ضرب عصفورين بحجر واحد ، الانتقام لشرفه وإظهار الجريمة على أنها بغرض السرقة حتى لا يكون أضحوكة أمام أهل القرية ، حقيقة لولا تلميحات ابنك أمامي بقصته عن ابليس الذي يأتي مع الريح ليحطم النوافذ ويزرع الشر في منازل الذي لا يحبون الله لم يكن سيتجه تفكيري إلى أن الجريمة لعب فيها الجانب الأخلاقي دوره .

عدت مع أبي إلى المنزل وأنا أتأبط علبة كبيرة من الشيكولاته هدية وكيل النيابة لي وطوال الطريق استمع إلى ضحكات أبي ويده تداعب شعر رأسي كإعلان عن إعجابه بجرأتي .

بالرغم من مرور الأعوام الطويلة على هذه الأحداث لا أستطيع أبداً أن أمنعها وبمعني أدق لا أحاول منعها من القفز إلى عقلي كلما سمعت صرير الرياح بالخارج بل على العكس أشعر بسعادة كبرى وأنا أدعها تتسلل في هوادة إلى رأسي كشريط سينمائي يعيد إلى ذهني هذه الأيام الجميلة وذكرياتي مع أبي رحمه الله الذي قرر فجأة أن يلحق بأمي ليكونا معاً في آخرة أفضل .

انسحبت إلى الداخل من أمام النافذة وقد تثلجت جبهتي التي ظلت طوال رحلتي إلى الماضي ملتصقة بزجاج النافذة وأنا أرقب ما تفعله الريح الشديدة وحبات المطر المتراقصة المتأرجحة مع صريرها ولست أعلم لماذا رددت وأنا أبتسم كما كنت أردد في طفولتي « ليلة من ليالي إبليس « وتساءلت كمزحة مع نفسي ياترى هل إبليس الأمريكاني يختلف عن الإبليس في بلادنا ، وكعودة إلى ذكريات الطفولة سألت نفسي بمزحة أيضاً هل هو الآن في طريقه ليحطم أحد النوافذ ليزرع الشر ، هززت رأسي وقد أخذتني الحسرة إلى أيام الطفولة وذكرياتها الجميلة وعدت إلى الكمبيوتر لأُسجل هذه القصة ، مددت يدي إلى علبة الشيكولاته التي أحتفظ بها فوق مكتبي بالرغم من أنني لم أكن معتاداً أن أتناول شيئاً بعد تنظيف أسناني فالساعة تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل لكنها رغبة داهمتني وكأنني أسترجع الماضي بكامل حذافيره وكأنني ألتقط قطعة من الشيكولاته التي أهداني إياها وكيل النيابة ، قضمت قطعة منها وأحسست أن لها نفس المذاق ، عدت برأسي للخلف وأسندتها إلى ظهر الكرسي وكأنني أستدعي الماضي بكل قوته لأصبه مع كلماتي ، لم أكن بدأت بعد ولم أكن انتهيت من قطعة الشيكولاته عندما

أرهفت السمع وأذني تلتقط دقات ملهوفة على باب المنزل ، أصابتني الدهشة متسائلاً من الذي يمكن أن يدق بابي في هذه الليلة الغاضبة الطبيعة وفي هذا الوقت المتأخر ، أسرعت وأنا أسأل مراراً من الطارق ولم أفتح الباب إلا بعد أن تأكدت أنها جارتي الحسناء ، فوجئت بها وقد نالت منها المياه المتدفقة من السماء بالرغم من قرب المسافة بين منزلي ومنزلها ، لم تكن هي صاحبة الوجه الذي تسبقه ابتسامته المضيئة دائماً فتسكب على وجهها الفتان جمالاً فوق جمال ، كدمة كبيرة فوق جانب وجهها مصطبغة باللون الأحمر ، ما هز قلبي بشدة عيناها الممطرتان بحبات تفوق حبات السماء التي لا تزال تطارد بعضها بسرعة فائقة ، أفسحت لها الطريق لتدلف إلى الداخل واتجهت بها نحو المدفأة التي لا تزال أخشابها تتلظى بوهجها فلقد كنت أهوى هذا الطراز وهو يذكرني بالمدفأة البدائية التي كنا نشعلها في فصل الشتاء في طفولتي ، تركتها لأعد مشروباً ساخناً وحتى أترك لها فرصة لتنفض عن داخلها كل دموعه الملتهبة ، عدت وكانت قد هدأت بعض الشيء وقطعت الصمت سائلاً :

_ من الذي فعل بك هكذا ؟!

_ صديقي فرانك .

قلت متعجباً !!:

_ أعرف أنه بينكما قصة حب شديدة وأيضاً لم أر عليه سوى دماثة الأخلاق !!

هزت رأسها وعيناها تجولان في وجهي وكأنها تراني لأول مرة وقالت :

_ نعم ، كما تقول ، لكن في الفترة الأخيرة تبدل كل شيء فيه ، كل ليلة لا تكفيه زجاجة واحدة من الخمر فيسطو على الثانية ثم ينقلب إلى وحش وهو يتهمني بأن ثمة علاقة بيني وبينك وأنه سيقتلني ويقتلك !!!.

أحسست بدوار داخل رأسي وقلت متعجباً :

_ كيف وصل به عقله إلى هذا التفكير الساذج ؟!

مطت شفتيها وقالت ولا تزال عيناها تجولان في وجهي :

_ دعك منه فلقد مللته بالفعل وأريد أن أفصم علاقتي به ثم أردفت وقد بدت في عينيها نظرة لا تخطئها العين : أريد أن أذهب إلى الفراش فلن أعود إلى المنزل فقد يكون ازداد وحشية ويصيبني بأذى .

أحسست بالخطر الداهم امرأة تنبض بالإغراء ودعوة صريحة إلى الفراش وصديق كما تصفه انقلب إلى وحش وتهمة بعلاقة تجمعني بها ، رباعية لا تطمئن ويمكن أن تتحول إلى كارثة

بالفعل فقلت لها وقد أصابتني العدوى فأصبحت عيناي هما اللتان تجولان في منابع الأنوثة التي امتلأ بها الجسد الفائر:

_ أرى أنه من الأفضل أن نذهب معا إليه الآن ونوضح له سخف تفكيره حتى لا تزداد الأمور تعقيداً .

قالت وعيناها تتحدثان عن بلاهتي التي ترفض قضاء ليلة أتمرغ في كنوز فتنتها:

_ لن أذهب إليه فلقد قررت أن أقطع علاقتي به نهائياً .

قلت وعيناي تعدان بأن الجولة القادمة في أنوثتها ستكون لي :

_ ثقي بي ، الأفضل أن نذهب حتى لا تزداد وحشيته عندما يعلم بأنك قضيت الليلة بمنزلي ، ثم يمكنك بعد ذلك قطع علاقتك به مهددة باللجوء إلى الشرطة لو حاول أن يعتدي عليك ثانية ثم أردفت في صراحة مكشوفة وكم يسعدني أن أنعم بصداقتك !! .

نهضت واقتربت مني واحاطت وجهي بكفيها واقتربت شفتاها في قبلة ثائرة وقالت بعد أن فُكَ الاشتباك المحموم :

_ أرى الصواب في كلماتك ، لكن ما الذي يجشمك عناء الخروج في هذا الطقس الممطر وقد تجابه الاحتداد من فرانك ؟!!

قلت وأنا أذوب في قبلة أخرى :

_ مثل عامي نردده في بلادنا « علشان الورد نسقي العليق»

****

لـم أتوقـع أن يكـون فرانـك قـد وصـل إلـى هـذا الحـال مـن الوحشـية ، كان يجلـس أمـام منضـدة تشـي بأنـه اقتـرب مـن نهايـة الزجاجـة الثانيـة ، يصـدر مـن بيـن شـفتيه خـوار كخـوار الثـور مصحوبـاً بنظـرة يـكاد شـررها يشـعل مـا حولـه ، مـا إن رآنـي ومـن خلفـي صديقتـه الحسـناء حتـى أطلـق وابـلاً مـن الشـتائم المنتقـاة مـن سـجل القباحـة ، قفـز قفـزة الوحش الكاسـر ويـده تطبـق علـى عنـق الزجاجـة الفارغـة وباليـد الأخـرى دفـع المنضـدة فانقلبـت وتحطمـت الزجاجـة الثانيـة ، لـم أكـن أتوقـع هـذا الهيـاج منـه وعـدت خطـوات للخلـف لكنـه ظـل فـي تقدمـه نحـوي ولهيـب نظراتـه يسـبقه رافعـاً الزجاجـة لأعلـى فـي حركـة وشـت أنـه ينـوي لهـا أن تسـتقر وتتحطـم فـوق رأسـي ، وجـدت نفسـي محصـوراً بينـه وبيـن والحائـط ولا طريـق للفـرار ، كان لا بـد مـن الدفـاع عـن النفـس ، أمسـكت بالقضيـب الحديـدي الـذي يقلـب النيـران داخـل المدفـأة ، رفعتـه لأعلـى مهـدداً فقـد يدفعـه للتراجـع ، ازداد خـواره وتقـدم فـي إصـرار ليحطـم الزجاجـة فـوق رأسـي وهـو ينعتنـي بأشـد الألفـاظ ، اقتـرب واخترقـت رائحـة أنفاسـه المخمـورة أنفاسـي ، لـم يكـن أمامـي سـوى أن أعاجلـه بضربـة بالقضيـب الحديـدي فـوق رأسـه ويبـدو أن الخـوف الـذي سـيطر علـى كيانـي أكسـبها حـدة كنـت لا أرمـي

إليها فانهار على الأرض ورأسه تطلق نافورة من الدماء ، أحسست بأن الحياة هربت من جسدي وأنني لحقت به عندما حاولت أن أنهضه واكتشفت أن روحه كانت تنتظر لأكون السبب في فرارها ، لفظ أنفاسه في ثوان ولفظت الحياة معناها أمام عيني ، نهضت كإنسان ذُبح من الوريد إلى الوريد لكنه لا هو حي ولا هو ميت ، التفت نحو جارتي وأرعبتني نظرة الارتياح التي بدت داخل عينيها وكأنها كانت تنتظر لحظة الخلاص منه ، أحسست بقوتها التي لا أعرف من أين أتت بها في هذا الموقف المأسوي وهي تهزني بشدة وكأنها توقظني من كابوس رهيب قائلة :

_هيا أسرع وأزل بصماتك من فوق كل شيء أمسكت به ، ولنعد إلى منزلك وسأختفي عندك حتى تهدأ الأمور ولا أعتقد أن أحداً سيشك بأنك القاتل !!

نفذت كل توجيهاتها وكأنني طفل يحاول إرضاء أمه في انتظار نفحة من الحلوى وكانت الحلوى هي أحضانها الدافئة بعد أن عادت بي إلى المنزل وكأن شيئاً لم يكن ، وتاه عقلي بين الكؤوس التي عببتها ومفاتنها وغبت عن الوعي حتى أيقظتني طرقات ملحة فوق باب المنزل أحسست بها كمطرقة فوق رأسي ، أسرعت إلى الباب وكانت الشمس قد

افترشت الأرض ولم يكن الزائر سوى بعض رجال الشرطة ومجموعة من الأسئلة المتعاقبة تحمل بعض الشك عن الجريمة أو إن كنت شاهدت جارتي الحسناء صديقة فرانك ورأسي تهتز كبندول الساعة في نفي مستمر ، توقفت الاهتزازة البندولية أمام مشهد كاد أن يفقدني وعيي إن لم يكن أفقدني بالفعل ، جارتي الحسناء التي قضت الليلة بين ذراعي تندفع آتية من حجرة النوم عارية كما ولدتها أمها وصيحاتها تكاد تزلزل الحوائط .. النجدة .. النجدة ، كلمات تندفع من فمها كطلقات الرصاص تنفذ إلى جسدي وأشعر بألمها لكنها بخلت أن ترديني قتيلاً تتهمني بأنني كنت دائم التردد على منزلها هي وفرانك بحكم الجيرة لكنني بطرف خفي كنت أحاول أن أغويها واضطرت في نهاية الأمر بعد أن ازدادت تلميحاتي أن تشكوني لصديقها لفرانك وعندما ذهبت إلى منزلهما الليلة الماضية كالعادة وبدأ فرانك في معاتبتي سحبت قضيب المدفأة وانهلت به على رأسه واصطحبتها إلى منزلي تحت تهديد السلاح لاغتصبها طوال الليل .

****

صرخاتي بأنني مظلوم والشرطة تحيط معصمي بأساور الاتهام أيقظتني وأنا أرتعد لأجد باقي قطعة الشيكولاته التي قضمت منه الليلة الماضية لا يزال بين أصابعي ، لقد غفوت وأنا فوق الكرسي وامتدت الإغفاءة إلى نعاس ثقيل حتى الصباح زاد منه الكابوس الرهيب ، نهضت وأنا غير مصدق بأن الأمر لا يتعدى الحلم الكابوسي ، أسرعت نحو باب المنزل لأرطب أنفاسي برائحة العشب المبلل بماء المطر ، شاهدت جارتي الحسناء قادمة في نشاط كالعادة لتستقل سيارتها إلى العمل ، ابتسامة جميلة وهي تلقي بتحية الصباح ، سألتها عن فرانك وأجابت ضاحكة أنه يسأل عني ويقول إنك أصبحت تخشي المجيء لزيارتنا بعد هزائمك المتكررة في الشطرنج ، ضحكت ودخلت إلى الداخل وتذكرت الكابوس المرعب ، تذكرت أنني لم أذكر الله قبل أن أنام وأقدم له الشكر الواجب وقلت إن إبليس حتى لو فشل في اقتحام النوافذ فإنه يقتحم الأفكار كلما أتت له فرصة ابتعادنا عن الله ولو للحظات ، ليلة من ليالي إبليس في صورة كابوس كقرصة أذن وتذكير بأنه يجول منتظراً الفرصة حتى ولو كانت عن طريق الأحلام ، هل هي رسالة من أبي رحمه الله ؟!!!! .

شـــائـــعة

****

إذا كنت من هواة السفر ، وفكرت أن تتجه لجنوب مصر ، أو ما يطلق عليه صعيد مصر ، يمكنك أن تحجز تذكرة بأحد القطارات التي تصل حتى أسوان ، هناك الكثير يمكنك مشاهدته في هذه الرحلة . لكن ما يهمني هو قرية واحدة من إحدى القرى التي تمتد على طول الطريق ، أريدك أن تلقي نظرة واحدة عليها حتى ولو من نافذة القطار . قرية السلامية التابعة لمركز نجع حمادي ، بطلة أحداث قصتنا. أهلها يتمتعون بقسط لا بأس به من البساطة التي ترمي أطرافها لحد السذاجة الفطرية ، فريدة من نوعها في انتقال الشائعات ، تخرج الشائعة وتنتقل من طرف القرية للطرف الآخر في غمضة عين ، كيف ؟! لا يدري أهلها أنفسهم . هناك من يردد بسذاجة أن العفاريت هي التي تتولى نقلها والهمس بها في كل أذن . يتندر أهالي القرى التي حولها ، بأنه في إحدى المرات انطلقت بالقرية إشاعة عن موت شيخ الخفر الذي يكرهه

الجميع لاستبداده ، انتقلت الإشاعة بسرعة خيالية لتشمل القرية كلها ، إلى أن وصلت إلى شيخ الخفر نفسه ، ارتدى ثيابه بسرعة ليخرج وينقل للناس إشاعة وفاته . محرز السلماني عمدة القرية ، طيب القلب ممازح ، أهم ما يميزه ثلاث صفات ، ذكاء فطري خارق ، وظفه لخدمة الصفتين الثانية والثالثة ، ولع شديد بالنساء ، وعبادة لا تهدأ للمال . ولعه بالنساء من الظلم أن نقول إنه جره لطريق الحرام ، يُولع بهن في الحلال . ثلاث زوجات ولدن في اليوم الرابع عشر من الشهر العربي مع اكتمال القمر ، يمازحهن عندما يجلس بينهن كهارون الرشيد قائلا .. حظي كالنار في النساء والبطيخ ، لم أشق بطيخة أبدا وإلا كانت تفوق أختها احمراراً وحلاوة ، وثلاث زوجات كل واحدة أشد حلاوة من أختها . تميل الأخيرة نحوه بدلال قائلة : وناوي تشق بطيخ تاني يا عمدة ، يداعبها قائلا .. أنا بأحب أمشي على الشرع ، والشرع بيقول من حقي أشق بطيخة رابعة ، تلكزه الأولى مداعبة .. بيقولوا مش كل مره تسلم الجرة يا عمدة ، مش جايز الرابعة تطلع لا حمَار ولا حلاوه ، يجيبها بمسكنة ، يبقى حظي خلاص وقف والبركة في حلاوتكم. محرز السلماني كما قال بالفعل ، حظه من نار ، ثلاث

زوجات انتقلن لمنزله ونقلن إليه الجمال والغنى ، الثلاثة من بنات عمد القرى المجاورة ، كل واحدة تأتي والخير في قدميها ، ذكاؤه الفطري لعب دوره في انتقائهن . زوجاته كن يمزحن معه عن الزوجة الرابعة ، لكنها كانت حقيقة بالنسبة له ، موجودة ويعد العدة لضمها لفراشه في الحلال . ينتظر حتى يمر على وفاة زوجها أشهر العدة ، هذه المرة لم يضع للغنى أهمية ، المال يمكن لذكائه اصطياده من أي جهة ، لكن لا توجد سوى صفية واحدة ، إذا كانت زوجاته الثلاث ولدن مع القمر ، فصفية حبل بها القمر نفسه . فاكهة الصباح الباكر المغسولة بالندى ، صبية لم تبخل عليها الطبيعة بكل ألوانها ، حتى ماء النيل اشترك ليكسب قوامها ليونة تتأوه كلما خطت قدماها خطوة واحدة . تزوجت وهي في الخامسة عشر من ابن عمها الذي يعمل خفيراً لدى العمدة ، لم تقع عين محرز السلماني عليها إلا بعد أن أصبحت زوجة خفيره ، نفذت في عظامه لكنه لم يكن يقبل الحرام ، فقط تعجب من هذا الزواج . يعلم أن زوجها مريض بمرض لا شفاء منه ، لكن ابن عمها كان أنانياً خالصاً مخلصاً ، كتم أمر هذا المرض وتزوجها ، ليمتع نفسه قبل أن يغادر الدنيا .

عاتبه العمدة على فعلته ، لكن المحظور كان قد وقع . كان هذا الزواج القشة التي قصمت ظهر البعير ، لم يتحمل عنفوان شباب الظبية البرية ، وكانت النهاية أقرب مما تصور ، لم تمض ثلاثة أشهر حتى لفظ أنفاسه بين أحضانها . كرهته ميتاً بعد أن علمت من العمدة بأمر مرضه الذي أخفاه عنها . لم يتقاعس العمدة أمام صرخات الجسد الفائر ، أخبرها أنه سيأخذها في الحلال بعد أن تنقضي أشهر عدتها . أحب فيها كل شيء وأحبت فيه كل شيء ، أوصاها ألا تُذيع الخبر حتى يتم الزواج بالفعل . الأنف الدقيقة لزوجته الوسطى تشممت رائحة زواج جديد ، العمدة سيأتي بالبطيخة الرابعة للدار وستفوق حلاوتها حلاوتهن جميعا . نقلت شكوكها إلى زوجتيه الأولى والثالثة ، تحالف الثلاثة لإفساد هذا الزواج لكن كيف ؟ ، الوسطى أكثرهن دهاءً ، تفتق ذهنها على أن الأمل الوحيد هو إخافة المرأة التي وقع اختيار العمدة عليها لتكون زوجته الرابعة ، لكنهن لا يعرفن من هي . للمرة الثانية يبرز ذكاء الزوجة الوسطى ، سيتحدثن بصوت تسمعه أم ذكي الخادمة بأن العمدة متزوج من جنية تسكن النيل ، وأم ذكي لن تحتاج لتوصية لإطلاق الشائعة خارج المنزل

لتنتشر كذرات الغبار أمام ريح عاتية وتخيم على القرية كلها ، تسير بعدها الأمور كما يرغبن . في ساعات ستتناقل قرية الشائعات هذا الخبر، وبالتأكيد سيصل لأذن الزوجة المرتقبة ، وبالتأكيد سيملأها الرعب وترفض الزواج من العمدة . سارت الأمور كما اشتهت الزوجات الثلاث ، سافرت إشاعة زواج العمدة من الجنية الساكنة في النيل لكل أرجاء القرية حتى وصلت إلى العمدة . استخدم ذكاءه الفطري ، استجوب أم ذكي الخادمة تحت التهديد والوعيد وعرف أن مصدر الشائعة زوجاته الثلاث . ضحك في عبه وقرر توظيف الشائعة لصالحه . لاحظت زوجاته تغير حاله ، تارة يصيبه الذهول ، وتارة يطلق ضحكة وهو يتحدث مع نفسه ، كثر خروجه ليلا بعد أن تخلد القرية للنوم ، يعود بعدها وهو يطير سعادة . لعب الشك برؤوسهن ، إذا كان العمدة قد تزوج بالفعل فلماذا فعلها في السر ؟ ، ليس من عادته الخوف ، في كل مرة كان يعلن قبلها ويقيم الأفراح . هل وقع في عشق امرأة ؟ لكن يعلمن أنه لا يقبل بعلاقات الحرام ، ما الذي يجبره على الحرام وبيده الزواج من رابعة ؟! ، الغيرة والفضول قاتلان . اجتمعن والحسرة تأكل قلوبهن ، اتخذن قرار تتبعه كظله عند مغادرته

المنـزل ، لاكتشـاف إلـى أيـن تأخذه قدماه تحـت جنح الظلام . وقع الاختيـار علـى الزوجـة الثالثـة لهـذه المهمـة لأنهـا أقواهن قلبـا . حـل الظـلام وخـرج العمـدة وسـط دهشـتهن وهـو يدنـدن بأغنيـة عـن الحـب ، تتبعتـه الزوجـة الثالثـة بمنتهـى الحـرص ، سـار علـى قدميـه حتـى شـاطئ النيـل ، جلـس علـى العشـب الليـن وهـو يحـدق فـي المـاء ، اختبـأت الزوجـة الثالثـة وفرائصهـا ترتعـد خوفـا ، نـادى العمـدة بصـوت مسـموع .

_ لقد حضرت يا جنيتي الحبيبة .

أجابه صوت كصوت الملائكة .

_ لماذا تأخرت يا حبيبي ، لقد برح بي الشوق .

كادت الزوجة الثالثة تفقد صوابها لكنها تمالكت .

_ تقولين برح الشوق بك وأنا كنت معك بالأمس يا ربيع قلبي .. ما أسعدني بحلو لسانك .

_ وما أسعدني بقلبك الذهبي أيها الإنسي .

_ ألا تصفين لي نفسك حتى أتخيلك وأتمتع بك مع حلو حديثك .

_ ولماذا العجلة يا رفيق قلبي ، وعما قريب سأكون لك بالحلال .

لـم تعـرف الزوجـة الثالثـة معنـى للهلـع إلا فـي هـذه اللحظـات ، كل شـيء تصلـب فـي جسـدها وهـي تتابـع حديـث العشـق بيـن زوجهـا العمـدة وجنيـة النيـل .

_ لا أستطيع الانتظار يا نبض قلبي دون أن أراك .
_ إذا كان هذا مرادك يا حبة عيني فسل كما تشاء وسأجيبك .
_ صفي لي عينيك .
_ إذا حدقت فيهما لا أضمن لك أن تنجو من الغرق .
_ الله .. الله.. صفي لي شفتيك .
_ ستذوق فيهما فاكهة لم يسمع عنها إنسي من قبلك .
_ الله .. الله .. صفي لي شعرك .
_ خيوط الحرير مطلية بماء الذهب .
_ يا إلهى .. صفي لي نهديك .
ضحكت ضحكة تخلب اللب قائلة :
_ إنسي قبيح ، انتظر حتى تراهما بنفسك ، وستعلم وقتها أنك لم تر نهودا من قبل .
لم تستطع الزوجة الثالثة أن تتحمل مرارة الاستماع أكثر من ذلك ، انسلت عائدة لا تعلم إن كانت تسير نائمة أم حالمة . دلفت للدار لتجد ضرتيها وقد تربعتا فوق قمة الفضول ، الحالة التي كانت عليها ألجمت لسانيهما . لم تتمكن أن تقص عليهما ما سمعته بأذنيها إلا بعد أن سكن انفعالها ، استمعا إليها وقد انقلب فضولهما للشك في روايتها ، تأكيدها بأنها كانت في تمام وعيها بالرغم من الخوف

الـذي فـكك أوصالهـا ، أثـار الحيـرة والدهشـة داخلهمـا . الفضـول والحيـرة والدهشـة دفعـت الزوجـات الثـلاث لاتخـاذ قـرار تتبـع العمـدة معـاً فـي الليلـة القادمـة. كانت الليلة التالية ، العمدة يجلس فوق العشب الندي ، والزوجات الثـلاث مختبئـات مترقبـات ، نـادى العمـدة بصوتـه المسـموع .

_ أنا هنا يا درة الفؤاد ونور العيون .

_ روحي تنتظرك منذ غروب الشمس يا تاج رأسي .

_ ما أجمل لسانك يا جنيتي الحبيبة .

_ لساني ينتظر اليوم الذي ينقط في فمك شهد العسل ورحيق الزهور .

_ ومتى هذا اليوم يا مالكة أنفاسي ، لم أعد أطيق الانتظار ؟

_ لا بـد مـن الانتظـار لليلـة القـدر ، فالجنيـة لا تسـتطيع الـزواج مـن الإنسـي إلا فـي هـذه الليلـة ، وإلـى أن تحيـن هـذه الليلـة ، سـيكون لديـك متسـع مـن الوقـت للتخلـص مـن زوجاتـك الثلاث .

جفل العمدة وقال بصوت منزعج :

_ تقولين أتخلص من زوجاتي الثلاث .. لماذا ؟ وكيف ؟

_لماذا ؟ .. لأن هذا هو قانون الجان ، وكيف ؟ .. بالطلاق طبعا .

كادت الزوجات يغشي عليهن ، بل كادت الوسطى تلطم وجهها .

_ أهذ شرط ضروري لإتمام زواجنا ؟

_ بالطبع ، لأني سآتي لأعيش معك ، وأنا لا أحتمل وجودهن معي ، أريدك وحدك لا تشاركني فيك ضرة أخرى .

_ لكن التخلص من الثلاث شيء صعب على نفسي ، وخاصة أنهن مطيعات ولا يتسببن في أي مشاكل .

_ أنا لا أريد التخلص منهن لسبب الغيرة ، لا توجد بين بنات الإنس من تفوقني جمالا ، لكن هذه تقاليدنا . إذا كان يضايقك التخلص منهن يا حبيبي ، هناك اقتراح آخر، على كل واحدة منهن دفع فدية لكي أوافق عليها كضرة . الزوجة الأولى يمكن أن تكون فديتها العشرة أفدنة التي ورثتها عن أبيها ، تكتبها باسمك وستكون لي بالطبع بعد ذلك ، أما الزوجة الوسطى فيمكن أن تتنازل لك عن البيت الكبير الذي كتبه أبوها باسمها ، أما الثالثة فعليها أن تقبل أن تكون خادمة لي طوال عمرها .

_ سأفاتحهن بهذا وأعتقد أنهن لن يترددن في الموافقة فهذا أفضل من الطلاق .

سرت همهمة مكتومة بين الزوجات الثلاث .

_ والآن يا حبيبي ، تُصبح على خير ، وإلى اللقاء غدا ، لكن انتظر في مكانك عشر دقائق أخرى لتكون ونسا لي حتى أذهب لفراشي .

قهقه محرز السلماني في داخله وهو يسمع في سكون الليل

خطـوات زوجاتــه المتسـللة الهاربــة للعـودة سـريعا للمنـزل .
قبـل أن تسـكن ضحكتـه ، خرجـت صفيـة مـن بيـن أعـواد الـذرة تعدو نحـوه صارخـة :
_ جنية النيل ، جنية النيل .
قال العمدة مندهشاً وهو يحدق في وجهها المذعور :
_ هل جننتِ ، أية جنية !!
_ أقسم لك أنني رأيتها بعيني بفستانها الأبيض الناصع .
_ كفـاك هلوسـة ، لقـد جنـح خيالـك بعيـدا ، وأن تتقمصيـن شـخصية جنيــة النيـل .
_ أقسم لك أنني رأيتها بعيني وتحدثت معي .
سأل العمدة ضاحكاً وغير مصدق :
_ ماذا قالت لك ؟! .
_ قالـت لـي إذا رأيتـك هنـا ثانيـة سـأقتلك ، وقولـي للعمـدة أن ينتظرنـي غـدا فـي نفـس المـكان وفـي نفـس الموعـد .
_ خففـي مـن جزعـك ، أعتقـد أن الأمـر كلـه لـن يخرج عـن خيالك الـذي انطلـق فـي الأيام السـابقة وأنت تتقمصيـن دور جنية النيل .
لم تجبه صفية وعادت في حالة يرثى لها .
الموضـوع كان منـذ البدايـة مشـهدا تمثيليـا دبـره العمـدة مـع صفيـة التـي ينتظـر انتهـاء أشـهر عدتهـا ليتـزوج بهـا ،

اخترقت أُذنه إشاعة زواجه من جنية النيل التي أطلقتها زوجاته ، قرر أن يستغلها لصالحه . دبر كل شيء بالاتفاق مع صفية ، كان يعلم بزوجته الوسطى حين تتبعته ، وزوجاته الثلاث وهن يقتفين خطواته هذه الليلة . حديثه مع صفية وهي مختبئة بين أعواد الذرة متقمصة دور جنية النيل لإثارة رعبهن ولتحقيق خطة في رأسه . عاد إلى المنزل ورأسه مشغول برواية صفية عن جنية النيل التي رأتها وتحدثت معها ، وبين مصدق ومكذب قرر أن يذهب في اليوم التالي إلى الشاطئ ليتأكد من الحقيقة . نظرة واحدة إلى وجوه الزوجات الساهرات في انتظاره ، أكدت له أن خطته نجحت تماما. الخوف يملأ عيونهن وطفح خارجها ، كمناورة لم ينسين أن يضعن شبه ابتسامة فوق شفاههن . تقدمت الزوجة الأولى لتقدم له ورقة تنازل عن الأفدنة العشرة مدعية أنه لا فرق بين مالها وماله ، حذت حذوها الزوجة الوسطى متنازلة عن البيت الكبير ، أما الثالثة فتمسحت به كقطة أليفة ، تعرض عليه إذا كان يطمع في زوجة رابعة فإنهن سيرحبن بها كأخت لهن ، وهي تردد في داخلها .. زوجة إنسية أفضل من هذه الجنية التي تريدني خادمة لها . كاد أن يخبرهن عن اختياره لصفية لتكون زوجتة الرابعة ، تذكر

حديث صفية عن الجنية ففضل التريث حتى يعرف الحقيقة .
في نفس المكان وفي نفس الموعد كان محرز السلماني ينتظر مفترشاً عشب الشاطئ ، حواسه شاخصة نحو أعواد الذرة .
قشعريرة لفت جسده وهو يستمع لصوت خطوات آتية من بين أعواد الذرة ، كل شيء يتراقص أمام عينيه والفستان الأبيض يظهر ويختفي من بين الأعواد ، حقيقة أم جنون ، هل من المعقول أن تنقلب الدعابة إلى واقع وتأتي جنية النيل .
انطلق خياله يصفها لعقله دون أن يبدو من ملامحها شيء ، العينان المُغرقتان ، والشفتان الرحيقيتان ، وآه من النهدين ، بالفعل لا توجد من بنات البشر من تمتلك مثلهما ، متمردتان ثائرتان تودان الانطلاق من سجنهما ، عاد خياله إلى الواقع وهو يستمع لصوتها الذي يشبه غناء الملائكة :
_ هل حضرت يا حبيبي .
_ هل لي أنا هذا القول .
_ نعم لك يا حبيبي ، لقد استمعت لكلماتك الحلوة كالعسل وأنت تناديني ، وأحببتك أيها الإنسي الرائع ، وقررت الزواج منك .
_ لكن الأمر كله كان بالنسبة لي لعبة لعبتها أنا وصفية.
_ أعلم هذا ، لكني عندما سمعت الحديث المتبادل بينك وبين صفية لتوهم زوجاتك أنه حديث معي

، تسللت كلماتك إلى قلبي ووقعت في غرامك .
_ وهل يمكنك الزواج من إنسي ؟
_ نعم يا حبيبي ، يمكن هذا في ليلة القدر ، أخبرت أبي ووافق ، لكن شرطه أن يكون مهري مائة ألف جنيه ، وشبكة ذهبية لا تقل عن خمسين ألف ، تضعهم في صندوق ، وتأتي بهم غداً عندما يحل الظلام وتتركهم بين أعواد الذرة حيث أنا الآن ، سيرسل أبي أحد خدمه لإحضارها ، وسأكون أنا في انتظارك بعد غد في نفس الميعاد لنطلق قلبينا يتناجيان .
_ سيكون لك كل ما طلبت يا حبيبة الفؤاد .
_ إلى اللقاء يا حبة قلبي وعيني .

****

ساعة واثنتان و العمدة محرز ينتظر ، وكأنه يقف فوق الأشواك ، لكنها لم تحضر ، شعاع من القلق غمر رأسه ، يسأل نفسه عن سبب عدم حضورها لكنه لا يجد إجابة تشفي غليله . وضع لها بالأمس كل ما طلبته ، لم ينتقص أي شيء ، أخبرته أن أباها موافق ، والمهر والشبكة وصلت إليه فلماذا لم تحضر ؟! إنه ليس حلماً أو وهماً ، صفية رأتها ، وأنا رأيت فستانها الأبيض الناصع وهو يجول بين أعواد الذرة ، عيناها ، شفتاها ، نهداها ، كل هذا حقيقة

وعلم وليس خيالاً ، فلماذا لم تحضر؟! تشجع وتسلل بين أعواد الذرة ليرى إذا كان الصندوق الذي به النقود والذهب موجود أم أخذه خادم أبيها كما أخبرته ، لم يجد الصندوق لكنه وجد ورقة غريبة الشكل مكتوبة بخط أغرب .. لقد قبل أبي هديتك لكنه رفض زواجي منك ، وداعا يا حبة فؤادي وقرة عيني . طارت رأس محرز من فوق بدنه ، عاد إلى منزله وهو يردد بصوت مرتعش .. الجنية ضحكت علىَّ.. الجنية ضحكت علىَّ .. استقبلته الزوجات وهو في هذه الحالة ، تعاطفن معه ومع محنته ، التففن حوله راقصات وهن يرددن .. صفية أحلى من الجنية .. صفية أحلى من الجنية .

******

على الجانب البعيد من القرية تقع المدرسة الابتدائية للبنين ، وفي مواجهتها المدرسة الابتدائية للبنات ، في مدرسة البنين ، كمال بطرس ، مدرس الابتدائي القادم من القاهرة ، في مدرسة البنات لوسي فرج، المدرسة القادمة من القاهرة أيضاً ، ظروفهما المادية وقلة فرص العمل حتمت عليهما هذه الوظيفة وهذا المكان ، لوسي لا بأس بجمالها لكن القوام رائع ، تقابلت مع كمال وتشابكت القلوب ، قربت بينهما ظروفهما ، يودان خطوة للأمام تقرب من

زواجهما ، لكن كما يقولون العين بصيرة واليد قصيرة . يلتقيان خلسة عن العيون خلف سور المدرسة عندما يحل الظلام في محاولة لإيجاد حل للمعادلة الصعبة لزواجهما . كثيراً ما كان يتندران على القرية وشائعاتها ، عندما بلغت كمال شائعة زواج العمدة من جنية النيل ، وأنه يذهب إليها كل ليلة عند الشاطئ ، قرر أن يتأكد من هذه الشائعة بنفسه ، ذهب إلى هناك واختبأ بين أعواد الذرة ، شاهد المسرحية منذ اللحظة الأولى التي دبرها العمدة مع صفية. عاد وهو يقلب الأمر على وجوهه ، قرر أن يكون هو الفائز . عرض ما برأسه على لوسي لتقوم بدور الجنية ذات الفستان الأبيض ، ويفوزان بمائة ألف جنيه وشبكة لا تقل قيمتها عن خمسين ألف جنيه . فرصة ذهبية تنهي كل مشاكلهما ، يتركان بعدها قرية الشائعات للأبد . رفضت لوسي فكرة الحصول على مال حرام ، أمام إلحاح كمال مغريا بأنها الفرصة الوحيدة التي قد تتاح لهما للعبور إلى منزل الزوجية ، ازدان أمامها الشيطان بأجمل ثيابه . قبلت أن تقوم بدور الجنية ذات الفستان الأبيض كما رسمه لها كمال بالضبط . بين يوم وليلة أصبحا يمتلكان ثروة . غادرا قرية الشائعات في قطار الليل الذي يقف على محطة قرية السلامية . في اهتزازة شديدة للقطار انقلبت بعض

عرباته وخرجت عن القضبان الحديدية ، ساد الهرج والمرج وقفز كل من يستطيع القفز لينجو بحياته ، تمكن كمال ولوسي من القفز مع القافزين ، سرعان ما شبت النيران في بعض العربات . في غمرة الخوف والذعر الذي تمكن من الجميع ترك كل واحد حقائبه لينجو بنفسه ، كانت حقيبة كمال العامرة بالنقود بالقطار . جلس كمال ولوسي فوق أحد الأحجار يذرفان الدموع على حظ أحلك من سواد الليل . جلس بجانبهما رجل عجوز مهيب الطلعة ، طويل الشعر أبيضه ، كث الحاجبين ، نظر نحوهما وقال:

_ لماذا الدموع ، ألا تشكرا الله على نجاتكما ؟

قال كمال والأسى يمزق قلبه :

_ بالقطار كل ما نملك من مال .

سألت لوسي الرجل العجوز بقلب يخفق بالأمل :

_ هل تظن أن الحقيبة التي بها المال لم تحترق يا أبي ؟

أجاب الرجل العجوز وفي عينيه نظرة غريبة :

_ المال الحلال لا تلتهمه أية نيران حتى لو كانت نيران جهنم .

سأل كمال منتظراً كلمة تبث بداخله بعض الأمل :

_ هل تتوقعين أن المال سيعود إلينا يالوسي.؟

أجابت لوسي موبخة :

_ ألم تفهم ما قاله الرجل!!

حواء والتفاحة

****

مجالس الأدباء أو سهراتهم لا تخلو من الطرائف والمزاح والقصص والحكايات ، دنيا تختلف عن أي دنيا ، قد تبدأ الليلة بمجرد فكرة تبدأ في التفرع إلى أن تصبح كشجرة وارفة الأغصان وتنتهي الليلة أو السهرة كما لو كانت في بدايتها تتوق إلى المزيد لولا اقتحام الخيوط الذهبية التي تعلن أن الوقت حان لتخلد الأبدان إلى سويعات من الراحة تشحن العقل بما يفيض به على القلم أو إلى سهرة أخرى . في تلك الليلة ابتدع الفكرة الأديب « زاهر الصياد « عندما اقترحت إحدى الأديبات أن نغير نمط السهرة ونذهب للعشاء في أحد المطاعم الشهيرة واندفع زاهر مقهقهاً يصف اقتراحها بأنه يشبه تفاحة حواء التي أخرجت آدم من الجنة مطروداً مهزوماً أو مغلوباً على أمره ، فالجلسة بالنسبة له كالجنة والخروج منها إلى أي مكان آخر هو الطرد بعينه أو الانهزام أو إذا اضطر للرضوخ فهو المغلوب على أمره وكأن الفيلسوف الجامح الفكر « ثروت بولس « كان ينتظر هذا

التعليق ليبدأ في شن إحدى غاراته كما نطلق على أفكاره التي تميل دائماً للهجوم على العقائديات ولم يضيره أبداً أو يضايقه بل كان يتخذها مادة للفكاهة والمزاح أن نطلق عليه « الفليسوف الملحد » فيجيب قائلاً هذا أفضل من غباء أصحاب الأديان وهم يرددون شعوذات باطلة لا تُهضم وأقربها ما قاله عزيزنا زاهر عن حواء وتفاحتها ، هل تصدقون هذه القصة ؟! ، آدم وحواء ومخالفة الوصية والطرد من الجنة ليعيش بنو آدم طوال عمر في الشقاء ، حتى هذه اللحظة كان الشاعر « ميخائيل بطرس » يتابع الموقف وحاجباه يعلوان ويهبطان في انفعال شديد ومتوتر كعادته عندما يستمع إلى شيء لا يهضمه عقله ، وفجأة توقف الحاجبان وانطلق لسانه :

_ أرجوك يا ثروت لا تبدأ الليلة بإحدى أفكارك التي تقلب الليلة إلى ماخور فكري نخرج منه وكأننا زناة انفضح أمرهم .

قهقه ثروت قهقهته المتقطعة التي تحمل بين طياتها السخرية قائلاً :

_ هكذا أنت دائماً يا عزيزي ميخائيل لا تتحمل المواجهة تُفضل باب الهروب دائماً ، ناقش يا رجل ، تقبل الموضوع ببساطة ، ليس كل ما جاء بالأديان يجب أن نبصم عليه بعقولنا ، وإلا فلنترك كل شيء ونتحول

جميعاً إلى رجال دين نبيع الكلام للسذج الذين يغمضون عيونهم ويقولون آمين حتى دون فهم لما يقال !! .
قبل أن يطلق ميخائيل زوابعه أشار نحوه الأديب « حامد السيد « بأن يعطيه الفرصة للرد على ثروت ، تنحنح حامد وشبك يديه على ركبته كعادته عندما يقرر الاشتباك في مناقشة مع ثروت :
_ يا أستاذ ثروت ، نحن أدباء ولسنا سذجاً نتقبل أي شيء بإغماض العيون ونقول آمين ، لكن هناك أشياء لا تتقبل المناقشة ، مثل موضوع الخليقة وآدم وحواء والتفاحة ، حقائق دينية في كل الأديان يا رجل لا تقبل المناقشة ، حواء وتفاحتها معنا حتى الآن بنفس أسلوبها منذ بدء الخليقة ، دائماً تستخدم هذه التفاحة ودائماً الرجل يقع في حبائلها ويقضمها وهو غافل ، وإن كان الآن لا توجد الجنة التي يطرد منها لكنه يقع في مصيبة أقسى وأقسى ؟!!! .
أطلق ثروت قهقهة أكثر امتداداً تحمل بين طياتها شحنة أكبر من السخرية :
_ يا أستاذي يا متعلم ، أين نظرية داروين ؟!! ، الإنسان تطور من القرد ، نعم الإنسان أصله قرد، كل أفعاله وسلوكياته وحتى ونحن في الألفية الثالثة تقول وتنادي بذلك ، إنسان أصله حيوان ، لا بأس أن يكون هذا الحيوان

يحمل بعض الذكاء ، يا رجل صدقني هذا هو الإنسان الذي تطور من ذلك القرد الذي تراه مع القرداتي يأمره بعجين الفلاحة ورقود العازب ويكرر الإشارات القبيحة ، هذا هو الإنسان ، كل الفرق بعض التعليم وثياب وكرافتة وفساتين سهرة ، صدقني لو أُتيحت الفرصة لما تردد رجال الألفية الثالثة عن جر النساء من شعر رؤوسهن لامتطائهن فوق الأشجار وهن راضيات ومسرورات يطلقن الغنج ويتسلين بالحشرات التي ترتع في شعور رجالهن كما تفعل القرود ، يا سادة كل ما يدور في العالم الآن من وحشية تقول إن الإنسان أصله حيوان وأنه اشتاق للعودة لأصوله الحيوانية .

نفث الكاتب « نظمي عوده « نفساً طويلاً من دخان الشيشة أعقبه بضحكة طويلة وهو يقلب بالماسك جمرات الفحم ليعيد إليها الانتعاش من أجل وقت أطول مع الصديقة التي لا تفارقه في أمسياته والتي ينعتها دائماً بأنها حبيبة الروح قائلاً :

_ لماذا الشجار يا إصدقاء لماذا لا تحكمكم الديمقراطية ، من يريد أن يؤمن بأن بداية الخليقة هي آدم وحواء فليؤمن ومن يريد أن يصدق بأن الإنسان أصله قرد وتطور حتى وصل إلى شكلنا الحالي فلا مانع أيضاً هو حر في تفكيره ، سنوات نقضيها سواء قضيناها بين رزانة .

وقال الأديب « الجروانـي « ووجهـه لا يتخلـى عن جديتـه التـي عُرف بهـا :

_ أنـا أُقر مـا قالـه الأخ نظمـي وإن كنـت أنـا شـخصياً أؤمـن بـأن البشـرية هـي حفيـدة آدم وحـواء لسـبب بسـيط هـو أن حـواء حبيبتـي لا تتخلـى أبداً منـذ البدايـة وحتـى الآن عن تفاحتهـا التي تسـتخدمها كأداة لسـحب آدم إلـى أي اتجـاه تريـده وإن اختلفـت أسـاليبها ، سـأروي لكـم قصـة أو حدوتـة ولا أعنـي أنـها من وحي الخيـال بـل هـي قصـة واقعيـة حدثت وأبطالهـا أعرفهم شـخصياً .

صفق « كمال ناجي « وقال ضاحكاً :

_ هـذا هـو المضبـوط ، أن نكمـل سـهرتنا هنـا مـع حكايـة مـن حكايـات عزيزنـا الجروانـي فهـذا أفضـل مـن العشـاء المطعمـي الـذي اقترحتـه الزميلـة .

ابتسـم الجروانـي وأسـند ظهـره إلـى ظهـر المقعـد وأرسـل بصـره إلـى سـقف الغرفـة كعادتـه عندمـا يبـدأ حكايـة مـن حكاياتـه التـي تجـد لهـا آذانـاً صاغيـة مـن الجميـع .

****

غصـت القاعـة بالمدعويـن ، المناسـبة مزدوجـة ، زواج « أكـرم العطـار « مـن « سـميحة العيسـوي» وزواج « حيـدر ذهنـي « مـن « سـامية الشـوربجي « ، حفـل علـى مسـتوً عـال إن لـم

يكن تعدى إلى المستوى الذي يطلق عليه الباهظ التكاليف ، البذخ ليس له حدود ، تيسر المال يدفع البعض إلى قتله بكل الأساليب وبأي أسلوب دون شفقة أورحمة ، بالنسبة إلى أكرم وحيدر لم يكن جيباً واحداً هو العامر بل كل جيوبهما عامرة ولا تتردد عن الإعلان عن عمارها بشتى الطرق في كل مناسبة وخاصة إذا كانت المناسبة لها وزنها كمناسبة زواجهما معاً وفي ليلة واحدة ، العروسان أيضاً من عائلتين متيسرتين ، فتضافرت العنجهية وتنافست على إبراز نفسها في ذلك الوقت من أربعينيات القرن الماضي حيث كانت تُشتَرى الألقاب والباشا له ثمن والبيه له ثمن والألقاب واجبة والعائلات تقاس بما تملكه من مال وعزب وأطيان وألقاب ، وعائلتي حيدر وأكرم من العائلات التي تدق لها الصنج والدفوف في عالم الثراء والألقاب ، وبالبديهة وكما يقول المثل الطيور على أشكالها تقع ، كان ولا بد من الوقوع على عائلتين على نفس المستوى لانتقاء عروسين يشرفاهما حسباً ونسباً ، اختار أكرم « سميحة « من عائلة العيسوي واختار حيدر « سامية « من عائلة الشوربجي ، العائلتان أيضاً لم يخرجا عن مضمار السباق على الأبهة كما تسابقت العروسان على إبراز الجمال والفتنة اللتين

سكنتا كل واحدة منهما بطريقة تختلف عن الأخرى ، الاثنتان يمكن أن يقال بكل تواضع أنهما يمكنهما أن تنيرا القاعة لو انقطع التيار الكهربائي ، كل واحدة تنيرها بطريقتها الخاصة ، سبحان الله القمر لليل والشمس للنهار ، سميحة برقتها المتناهية وجمالها الهادىء كخيوط القمر الحالمة تنساب برقة لتكسب كلمات العشق والغرام التي يتبادلها العشاق في حضوره حناناً ورقة ، أما سامية اختار لها الجمال لوناً آخر وهي لا تزال في أحشاء أمها ، خيوط الشمس الذهبية الملتهبة دائماً تدفيء مع التحفظ حتى لا يصل الدفء إلى مرحلة التوهج الحارق ، فتنة طاغية شرسة تطل من كل ذرة في الجسد الفائر من قمة الرأس إلى إخمص القدمين ، فتنة لا تخجل أبداً وتظهر تعطشها السافر لكل ما يضخ ماء الحياة ، كل الأصدقاء وهم يهنئون حيدر في تلك الليلة همسوا في أذنه « الله يكون في عونك « فيجيب ضاحكاً « نحن لها « ، المدعوون جميعاً كانوا يحملون نفس الفكر ، الخيوط القمرية الحريرية الناعمة وخيوط الشمس الذهبية المتوهجة ، تقارب شديد من جميع الوجوه بين حيدر وأكرم وتباعد شديد بين زوجتيهما من جميع الوجوه أيضاً ، لعل الدهشة قد تكون أصابت البعض عن سر الاحتفال الموحد بالرغم من أن كل

واحد منهما باستطاعته أن يفرح بليلة مستقلة عن الآخر ويدعو إليها ما شاء من الأقارب والأحباب والاصدقاء ، ولكي نزيل هذه الدهشة يجب أن نعود إلى البداية .

****

لا أحد يمكنه أن يتكهن إن كان الحرمان من الإنجاب الذي لازم والد أكرم ووالد حيدر لفترة طويلة بعد زواجهما من باب الصدفة أم بترتيب من القدر ، أيضاً لا أحد يمكنه أن يتكهن إن كان ذهابهما إلى الزاهد المتعبد في الجبل من أجل هذا الموضوع من قبيل المصادفة أم بترتيب من القدر ، لم يكن قد تعارفا بعد ، ولم يكن هناك اتفاق على أن يذهبا إلى هذا المتعبد ، الذهاب إلى المتعبد لم يأت إلا بعد أن أحكم اليأس حلقته حول حلم كل منهما بأن يصبح أباً ، زيارتهما إلى الأطباء لم تنقطع إلا بعد أن وصل اليأس من الإنجاب إلى قمته بعد قرار أشهر الأطباء بأنهما يجب أن يدفنا الأمل في الإنجاب ويترحما عليه ، عاد الأمل وتجدد بعد أن ألحت زوجة كل منهما على زوجها أن يذهب إلى المتعبد صاحب السر الباتع والصيت المدوي الذي يأتي إليه الناس من كل الأنحاء وخاصة في مضمار اللهفة على الإنجاب ، إلحاح الزوجتين جاء بعد نصيحة « أم الخير « التي لا تترك منزلاً

فقيراً أو غنياً إلا وتعرض خدماتها عليه في كل المجالات مقابل ما كان يسمى ب « الحلاوة « أي نفحة مالية غير محددة عند نجاح مشورتها أو الخدمة التي تقدمها ، كانت الخدمة هذه المرة هي أن تدفع الزوجتين لنصح زوجيهما للذهاب إلى الزاهد المتعبد ، وبعد معارضة شديدة نظراً لحساسية الموقف ومكانتهما الاجتماعية رضخا وقد هفهفت نسمات الأمل ثانية على قيظ اليأس وداعبت مخيلتهما أحلام الأبوة ولا أحد يمكنه التكهن أيضاً إن كان ذهابهما في نفس اليوم والساعة جاء مصادفة أم بترتيب من القدر بالرغم من فرضهما السرية التامة والتكتم الشديد على هذه الزيارة ، المفاجأة والدهشة الشديدة أن المتعبد عندما دخل إليه والد حيدر وألقى أمامه بأمنيته طلب منه الانتظار ، وهذا ما فعله مع والد أكرم أيضاً ، ثم جمعهما معاً بالرغم من أن كلاً منهما لا يعرف الآخر، نظر نحوهما المتعبد وقال :

_ مرادكما واحد وسيمنحكما المولى عز وجل هذا المراد ، سيمنحكما ذكرين بشرط أن ينشَّئا كشقيقين ، تتبادل الوالدتان إرضاعهما ، كل خطواتهما في الحياة معاً ، لا يفرقهما إلا الموت ولكي يتحقق هذا يجب أن يطعم كل واحد منكما مئة فقير وواحدا لمدة سبعة أيام متتالية ، اذهبا الآن وعودا بعد

أن تحبل زوجتاكما . منذ ذلك اليوم توطدت الصداقة بين والد حيدر ووالد أكرم وانتظرا الأمل المنشود الذي لم يبخل عليهما هذه المرة ، وفتح الفرج بابه على مصراعيه وزوجة كل منهما تخبر زوجها بالجنين الذي بدأت الحياة تدب به داخل أحشائها ، تلقيا البشرى على أنها هدية ليلة القدر التي انتشلتهما من وهدة اليأس ، وأشرقت الشمس بعد طول غياب ، تعانقت كفاهما وطارا إلى الشيخ المتعبد كما أمرهما من ناحية ولتقديم واجب الشكر من ناحية أخرى ، ابتسم المتعبد قائلاً :

_ أعلم أنكما شككتما في كلماتي لكن هذا لا يهم ، فأنا لا أهب النسل لكن رب العباد هو الذي يهب ، وها هو وهبكما النسل فقدما له الشكر والطاعة دائماً ، ضاقت نظرته واتجهت نحو والد أكرم وسأله هل أطعمت يا مخلوق كما أمرتك مئة فقير وواحدا سبعة أيام متتالية .

أجاب أكرم ووجهه يلمع بالرضا :

_ نعم يا سيدي لقد طمعت في رضاء أكثر من الله وزدت عشرة فقراء عليهم .

أضاء وجه المتعبد بابتسامة حلوة قائلاً :

_ كلامك مضبوط يا مخلوق وسيحصن الله ابنك بالمزيد من التقوى والصلاح .

التفتت نظرته نحو والد حيدر وسأله :

_ وأنت يا مخلوق هل نفذت ما أوصيتك به ؟

أجاب والد حيدر وهو يحاول أن يخبيء خجل وجهه :

_ للأسف لقد اعتمدت على أحد رجالي وعندما سألته بعد انتهاء السبعة أيام إن كان كل شيء على ما يرام أجاب بأنه لم يدعُ سوى تسعين فقيراً فقط لكن سأُجبر هذا الخطأ بإذن الله .

بدت على وجه المتعبد نظرة قد تكون آسفة أو ساخرة وقال :

_ عندما كنت تتعلم بالمدرسة وتذهب لتؤدي الامتحان وتخطيء في الإجابة على أحد الأسئلة هل كان يُسمح لك بأن تُجبر هذا الخطأ بعد أن تذهب الورقة للمصحح ، فإذا كان هذا أمر الاختبار على الأرض فهل تقبل السماء أن تُجبر الخطأ في امتحان سهل جداً كالذي أوصيتك به ، وكان يجب أن تُشرف عليه بنفسك ، للأسف يا مخلوق حصانة ابنك ستنقص بقدر إهمالك في حق الفقراء !! .

بدا الجزع فوق وجه والد حيدر وقال وقد ارتجفت كلماته .

_ ماذا تقصد يا سيدي بنقص حصانة ابني ؟!!

أجاب المتعبد وقد لانت ملامحه مشفقاً على جزعه :

_ يا مخلوق لو كان آدم نظر حوله جيداً ورأى ما خلقه الله من نعم وأنصت بأذن صاغية إلى وصيته ما كان فقد

حصانتــه وســقط فــي إغــواء حــواء وتفاحتهــا، ولا طُــرد إلــى متاعــب الأرض ومشــقتها ، لقــد ســقط آدم فــي إغــواء حــواء وتفاحتهــا لأنــه لــم يحصــن نفســه بوصيــة الله ، كل مــا أعلمــه يــا مخلــوق أن حصانــة ابنــك ســتكون ناقصــة لكــن كيــف أو إلــى مــاذا ســتنتهي لســت أعلــم ، لكــن علينــا دائمــاً ألا نيــأس مــن رحمــة الله ونطلــب المغفــرة عــن كل معصيــة نرتكبهــا فهــو الغفــور الرحيــم ، لكــن لا بــد أن تعلــم وهــذه كنصيحــة أُهديهــا إلــى كل مــن تطــأ قدمــه بابــي أن كل الخطايــا مــن الســهل مغفرتهــا أمــام المولــى عــز وجــل إلا خطيئــة المقتــدر نحــو فــم الفقيــر الجائــع ، هــذه مــن الخطايــا الكبــرى يامخلــوق وتهــون بجانبهــا كل الخطايــا ، بــل كلمــا ازداد ميــزان حســناتك نحــو الفقيــر يــزداد معــه ميــزان المغفــرة والصفــح . انصــرف رفيقــا الإنجــاب وكل منهمــا فــي رأســه علامــة اســتفهام غامضــة عــن الحصانــة ومــا ردده المتعبــد ، وحــاول والــد حيــدر أن يهــون علــى عقلــه التفكيــر فــي هــذا الموضــوع ونظــر نحــو والــد أكــرم وفــوق شــفتيه ابتســامة واســعة وكأن كل مــا ســمعه تبخــر كقطــرات النــدى وقــال وهــو ينتقــل بالابتســامة إلــى ضحكــة عريضــة :

_ يشرف الأول في الدنيا وبعد كدا نفكر في موضوع الحصانة .

وأجــاب والــد أكــرم مجامــلاً بابتســامة لكــن ذهنــه كان

غارقاً في كل كلمة تفوه بها المتعبد يرى فيها حكمة لا يجب أن تستبعد عن الفكر بسهولة :
_ على رأيك ، يخرجان للدنيا بخير إن شاءالله ونفكر بعد ذلك كيف نقوي حصانتهما ، قالها وهو لا يدري إن كان يقر معنى ما يقول أم هو ثوب المجاملة مضطراً أن يرتديه ليطيب خاطر رفيقه ، لكن داخله كان يصيح بأن ما قاله المتعبد لا يحتمل النقاش ، فالحصانة التي يقصدها المتعبد منحة إلهية لمن يخوض التجارب دون أي وهن في العزيمة ، وهو نفسه عندما زاد في عدد الفقراء الذين أطعمهم عن العدد الذي أمره به المتعبد لم يكن يفكر مطلقاً أو يأتي على خاطره موضوع الحصانة ولم يكن سيخبر به أحدا حتى المتعبد نفسه لولا سؤاله المباشر ، زاد في عدد الفقراء لأنه يؤمن بأن إناء الصدقة لا بد أن يمتلئ ويفيض دائماً دون انتظار حتى لإيماءة شكر ، بعكس والد حيدر الذي كان يزن كل الأمور بميزان الماديات وعلى قدر ما يأخذ يعطي دون زيادة أو نقصان ، هكذا كان يتعامل حتى مع الفقراء والصدقة الواجبة عليه ، لم يكن يقدمها إلا من باب التفاخر ليس إلا ، لم يعقل فهمه أن تحديد المتعبد لعدد من الفقراء قد يكون له معناه ولذا لم يهتم كثيراً ، وحتى بعد لومه لم يأخذ الموضوع بجدية

المهم أنه ينجب وأن يأتي الوريث الذي سيحمل اسمه .

****

لا أحد يدري إن كان سير الأمور كما سارت عليها جاء وليد الصدفة أم هو ترتيب من القدر ، جاء المخاض لأم حيدر وأم أكرم في ليلة واحدة لكن حيدر تعثرت ولادته بعض الشيء مما أذاب والده في عرقه خشية أن يفقد الأمل الذي كانت ينتظره كحلم من الأحلام ، لكن في نهاية الليلة انطلقت صرخات حيدر معلنة وصوله إلى الدنيا وجفف أبوه عرقه وعادت دماء الحياة إلى وجهه ، ما قاله المتعبد سار كما تنبأ به خطوة بخطوة ، وكانت أول خطوة هي اشتراك الوالدتين في إرضاعهما بعد أن هاجمت بعض المشاكل المرضية كلاً منهما خلال فترة الرضاعة فتولت الأخرى إرضاع الطفلين . كقدمين فقط وليس أربعة سارت بهما الحياة وكشقيقين انطلقا نحو مرحلة الشباب ، جمعتهما مرحلة الدراسة وتخرجا من نفس الكلية واندمجت الأعمال معاً ليصبحا الإخوة الشركاء أو الشركاء الإخوة . مهما تقاربت خطوات البشر ووصلت إلى حد تصنيفها إلى نفس الخطوات ، لكن لا بد أن تختلف عند الوصول في التفكير في الجنس الآخر ، تقاربت المشارب والأفكار بين حيدر وأكرم إلى درجة الالتصاق

لكن عند اختيار شريكة الحياة تباعدت ، ما في خيال حيدر يختلف تماماً عن خيال أكرم حتى وإن كان الاختيار تم بين صديقتين كانتا تتبختران بجمالهما وهما بلباس البحر على أحد شواطيء الإسكندرية التي لم يكن يؤمها سوى طبقة الموسرين في ذلك الوقت ودون نقاش وكأنهما اتفقا من قبل ، اختار حيدر صاحبة لباس البحر الأحمر واختار أكرم صاحبة لباس البحر الأزرق ، اختار حيدر المشتعلة كلون لباسها مستمدة حرارة شرسة من قرص الشمس ، واختار أكرم الحالمة مع اللون الأزرق والسماء الصافية ، وكقدر مسطر اتجهت نظرات سميحة إلى أكرم وسامية إلى حيدر وكأنهما أيضاً على اتفاق ، تم الزواج سريعاً فلم يكن هناك ما يعطله ، كل شيء متاح بالأيدي ويفيض منها ليصل إلى عالم الرفاهية بلا حدود ، بدأت خطوات الحياة الجديدة لكن أبداً لم تبعد بين حيدر وأكرم ، بل ازدادت بتقارب الأسرتين لدرجة أن الساعات التي كانا يقضيانها معاً كل يوم تزيد عن الساعات التي يفترقان فيها لتمضي الحياة تشق نهر السعادة .

****

توطد العلاقة أحياناً يدفع إلى أفكار غريبة ، والعلاقة بين حيدر وزوجته سامية من جهة وأكرم وزوجته سميحة من جهة

أخرى فاقت كلمة التوطد ، حيدر وأكرم منذ البداية في حكم الاشقاء ، وسميحة وسامية صداقتهما ترجع أيضاً إلى الطفولة بالرغم من اختلافهما في أشياء كثيرة حسية وفكرية ، أغرب فكرة نبتت نتيجة هذا التوطد ما عرضه حيدر أثناء سهرة مثلها مثل غيرها ، الضحكات وفرقعتها تغلب على أي حديث فلم تكن جلساتهم تتحدث عن عمل أو أي شيء يخرجهم عن سعادة دائماً يغلب عليها المزاح ، لكن في هذه الليلة توقف حيدر بعض الوقت وبدت على وجهه بعض الملامح التي يمكن أن ننسبها إلى الجدية ومع ازدياد صمت لسانه ارتفعت إلى درجة الجدية التامة مما دفع أكرم إلى مداعبته قائلاً :

_ هل أُحضر لك الطبيب يا حيدر ، ملامحك تقول إنك على وشك المرض وأنت تعلم أنني أخشى عليك من لدغة الناموسة .

وعلقت سميحة بنبرات صوتها الحالمة دائماً قائلة :

_ صحيح يا حيدر إما أن يكون هناك ما يشغلك وهذا لم نعتد عليه في جلساتنا التي نخرج بها وتخرج بنا عن التفكير في أي شيء سوى الأوقات الجميلة التي نقضيها معا بعيداً عن مشاغل الحياة أو كما قال أكرم تشعر ببعض التوعك .

ولم تضع سامية الفرصة لتقفز بما يمليه فوران جسدها المتعطش دائماً وقالت بصوت يحكمه

الغنج غامزة بعينها وهي تطلق يدها لتتحسس ظهره بطريقة لا تخبيء ما خلفها من إيحاءات :

_ لا تشغلا بالكما ، هذه الأعراض تأتيه عندما يكون محتاجاً لبعض التدفئة والحنان وجرعة من الحب ، وهذا الدواء متوفر دائماً وسأزيد له الجرعة هذه الليلة ، وسيصبح على ما يرام ثم تلت كلمات الحياء المفقود بقبلة فوق شفتيه دفعت دماء الخجل سريعاً إلى وجه سميحة .

لم يعلق حيدر على شبق زوجته الذي تطرحه دائماً وكأنه سلعة في أحد المعارض توضع ليشاهدها الجميع ، اعتاد عليه ويرضي داخله بل إذا جاز التعبير يزيد من بهجة رجولته ، امرأة بحجم أنوثة سامية تبوح باشتياقها إليه ، فهو بالتأكيد الفارس المغوار، لكن هذا لا ينكر حقيقة سطوة هذه الأنوثة الجبارة التي يمكنها أن تجذبه إلى الفراش في أي وقت وأي ساعة كطفل أدمن ثدي أمه ، تحركت كفه لتتحسس ظهرها الذي لم يخفه فستانها الممتد عريه إلى الخصر وكأنه تصديق عملي لا يحتاج لشرح على تشخيص زوجته لحالته ، ابتسم وملامحه لم تنقص من جديتها وقال :

_ أشكر اهتمامكم بي ، لكنني لست مريضاً يا أكرم ، أما عن تشخيص سامية فهي لم تقل سوى الحقيقة

، دائماً أجد العلاج لديها ثم مقهقهاً بل هي الداء والدواء ، تقهقرت الضحكة واختفت الابتسامة وعاد إلى حالته الأولى ، صمت لثوان ثم استطرد ليقول إن فكرة وردت برأسه ويود عرضها عليهم فقد تجد قبولاً .
صمت الجميع ونظرات تناقلت بينهم ، المرة الأولى التي يشاهدون فيها حيدر يتحدث بهذه الجدية وهو صاحب الاقتراح أن تكون جلساتهم خالية من أي حديث سوى المزاح وكل شيء يدخل البهجة على النفوس ولا مكان للحديث عن العمل أو مشكلة تخرجهم عن الجو المشبع بالسرور مما دفع أكرم إلى قوله :
_ هات ما عندك يا حيدر ولو أنني أشعر بأنك تحِيك تمثيلية تنهيها بفكاهة من فكاهاتك .
قال حيدر متمسكاً بجديته :
_ لا صدقني يا أكرم ، هي بالفعل فكرة قد تبدو غريبة لكنني أرى فيها كل الصواب .
قالت سامية مستمرة في غنجها معاتبة زوجها حيدر :
_ كنت أظن أن ما يأتي برأسك من أفكار تكشفه أمامي أول بأول .
قال حيدر ويده لا تزال في صعودها وهبوطها على الظهر العاري :
_ أنا لا أخفي عنك شيئاً ، لكن هذه الفكرة تشملنا نحن الأربعة وهي اكتملت هذه اللحظة فقط وأرى أن هذا هو

الوقت المناسب لعرضها ، تنحنح وكفت يده عن ملاحقة الظهر العاري وقال وقد عادت الابتسامة إلى شفتيه : أنتم تعلمون أن علاقتنا فاقت علاقة الإخوة وأصبحنا لا نستطيع أن نفترق حتى ليوم واحد ، أحلامنا معاً وسعادتنا معاً بل لن أكون مبالغاً إذا قلت كل حياتنا معاً ، أصبحنا كالسمك يهلك لو خرج من الماء وإحساسي يقول إننا يمكن أن نهلك لو خرجنا خارج بعضنا ، هذا الإحساس دفعني أن أفكر في الغد ، نحن لا نعلم ماذا سيحدث لنا جميعاً في الغد ، بل بعد لحظات ، أفكار غريبة انتابتني ، ماذا لو قُدر ورحلت أنا أو أكرم ، ماذا سيكون مصير زوجته وأولاده لو شاء المولى ورزقه بهم ، هل ستذهب سميحة أو سامية إلى رجل غريب وهذه سنة الحياة ومن حقها والأبناء وخاصة لو كانوا بنات لا نعرف كيف سينشأون في كنف هذا الغريب ، لا أخفي عليكم هذه الأفكار تكاد تمزق عقلي وأنا أتخيل هذه الأخوة تُهدم بالرحيل والفرقة وتتباعد أولادنا وتتبعثر العائلة الكبيرة التي أحلم بها ، منذ لحظات وأنا أتاملكم وردت في ذهني فكرة جاءت أولاً كالخيال ثم اقتربت رويداً رويداً وقلت لماذا لا تتحول إلى واقع يريحنا جميعاً ويبعد عن رأسي هذه الأفكار اللعينة عن الرحيل والفرقة التي تداهمني كلما

امتلأت بالسعادة وأنا أتخيل الغد وأولادنا ينشأون كإخوة ، هذه الفكرة هي وصية أكتبها أنا وأيضاً أكرم أنه لو رحل أحدنا قبل الآخر فإن زوجة الآخر وأولاده وكل ثروته تؤول إلى صديقه أي يتزوج الزوجة والأبناء يعيشون في كنفه كأب ثان لهم وثروته تذهب ليد أمينة تحافظ عليها ، وأيضاً هذه الوصية أتعهد فيها ويتعهد أكرم أيضاً أنه لو قدر الله وأي واحد منا رحلت زوجته يتعهد بعدم الزواج على الأقل حتى يكبر أولاده ويأخذون حقهم في الميراث حتى لا يأتي لهم بزوجة أب قد تزرع نواة الفتنة بيننا لتستولي على ماله وتسيء إلى الأولاد، وأعتقد أننا نستمع كثيراً إلى مثل هذه الحكايات ، زوجة الأب التي تأتي هي والشيطان واحد . فوجيء حيدر بالتصفيق من ثلاثتهم ، لم يكن يتوقع أن يستقبلوا فكرته بهذا الحماس ، وكان أكرم أول من علق قائلاً :

_ والله يا حيدر هذه الفكرة تعكس كل ما بداخلك من خوف علينا وعلى صداقتنا التي فاقت الأشقاء ، فأنا وأنت نشأنا في حكم الإخوة بالفعل وسميحة وسامية تعرفنا عليهما وهما صديقتان بالفعل ومنذ أن تزوجنا ورابطة أسرية تجذبنا إلى بعضنا، وأصبحت لا أدري إن كنا نعيش في منزلين أم منزل واحد يجمعنا ،اللقاءات اليومية والوجبات التي تقريباً نتناولها معاً أصبحت

كعهد مكتوب لا يسمح بأن ننفصل عن بعضنا إلا في ساعات النوم ، كم أراحتني فكرتك وأرى أنها واجبة التنفيذ الفوري .
وقالت سامية ولم يفتها أن تطعم كلماتها بالغنج الذي لا تضيع فرصة لإبرازه :
_ كلماتك تنطق بالوفاء ياحبيبي ، بالتأكيد قلبك هو الذي أملى عليك اقتراح عدم الزواج في حالة رحيلي قبلك ، « ثم بغنج أكبر « أنا عارفه أنه مش ممكن هترتاح في أي حضن غير حضني .
نظر حيدر نحو سميحة وقال :
_ وأنت ما رأيك فيما اقترحته يا سميحة ؟
أجابت سميحة وعلى وجهها ابتسامة القمر .
_ أشعر بالدهشة ، نحن لم نبدأ حياتنا بعد وتتحدثون عن الموت والوصية ، لكن أرى ارتياحكم لهذا الاقتراح وأنا مع الأغلبية .
قال حيدر بحماس :
_ إذاً لن يكون مجرد حديث ولنذهب إلى المحامي لنكتب أنا وأكرم وصيتنا .
قالت سميحة ولا تزال ابتسامة القمر فوق شفتيها :
_ أعتقد أنها ستكون أغرب وصية في التاريخ !!! .

****

ثلاث سنوات متتالية أنجب فيها أكرم ثلاثة أبناء ذكرين وأنثى ، بينما حيدر لم يمن عليه الله بصراخ مولود في منزله ، ناداه والده وهو على فراش المرض في اللحظات الأخيرة وقد عادت إلى ذاكرته قصته مع الإنجاب والمتعبد وقال له :

_ اذهب يا ولدي إلي متعبد في الجبل سيخبرك والد أكرم عن مكانه لكن قبل أن تذهب أطعم من الفقراء قدر ما تستطيع وذكره بي وإن شاء الله سيرزقك بالخلفة . أغمض الرجل عينيه وكلمات المتعبد تطن في أذنه عن الحصانة التي أخبره بأنها ستكون ناقصة في ابنه حيدر لأنه أهمل في إطعام العدد الذي أوصاه المتعبد أن يطعمه من الفقراء ، وبالرغم من مرور الأعوام الطويلة التي تمثل عمر حيدر لم يعرف ماذا كان يقصد المتعبد بالحصانة التي ستكون ناقصة في ابنه ، حيدر أصبح رجلاً ولا كل الرجال ، نجح في دراسته وهو من رجال الأعمال الذين يشار إليهم بالبنان ، تزوج من امرأة جميلة لا تنقصه السعادة معها ولا ينقصه سوى أن يكون له ذرية ، فما هو سر الحصانة الناقصة ، رحل الرجل ولم تصله الإجابة وذهب حيدر يبحث عن المتعبد كما أوصاه والده لكن لم يطعم الفقراء مؤجلاً التنفيذ حتي يتقابل مع المتعبد لكنه عاد بخفي حنين ، فلقد رحل المتعبد

عن الحياة ولم يجد سوى مقامه الذي أقامه أهل القرية المجاورة للجبل الذي كان يسكنه ويتعبد به ، وإحساس في داخله يمدحه لأنه لم يتسرع في إطعام الفقراء كما أوصاه والده ، بالرغم من أنه يستطيع أن يطعم المئات والألوف دون أن تهتز ثروته ، لكن يبدو أن هناك صفات تتوارث من الأباء للأبناء ، فوالده لم يهتم من قبل بإطعام العدد الذي أخبره به المتعبد بينما زاد والد أكرم عنه . تغيرت وتبدلت الحياة بعض الشيء ، انشغل أكرم وسميحة بعد أن امتلأ المنزل بثلاثة أطفال وقلت اللقاءات بين الأُسرتين ، عبارات المجاملة التي اعتاد أكرم وسميحة أن يرددها أمام حيدر وسامية بأنهما لا يزالان في فتوة الشباب وأن الأطفال ستأتي بإذن الله ولا يتعجلا قدومهم فهم يأتون بمشاكلهم تسببت في ضيق سامية ، تنظر إليها على أنها نوع من الشفقة تلقيها سميحة وأكرم كصدقة واجبة أو كغطاء لمنع الحسد عن أطفالهما، لكن في الحقيقة إن كان هذا ما يدور برأس سامية إلا أنه كان بعيداً تماماً عن ذهن حيدر ، بل بالعكس كان شديد السعادة بأطفال أكرم لا تفته مناسبة إلا ويحضر لهم الكثير من اللعب والحلوى ، ولا تقل مداعبته لهم عن مداعبة الأب لأطفاله . بدأت شعلة الأمل في الإنجاب تخبو

رويداً رويداً أمام حيدر وسامية إلى أن انطفأت تماماً بعد أن ثقلت كفة اليأس ووصلت إلى نهايتها ، وقد شاءت الصدفة البحتة أن تكشف عن الطريق المسدود نحو الإنجاب بعد أن اقترح الطبيب الذي كان يعالج سامية أن يجري حيدر بعض الفحوصات أيضاً وكانت النتيجة المذهلة حيدر أيضاً مصاب بعقم لا علاج له ، انتهى الأمل تماماً وأُغلق باب التفكير في الإنجاب ولم ترد فكرة الارتباط بزوجة أخرى في رأس حيدر لمجرد الإنجاب وتقبل الأمر الواقع ببعض الفلسفة، لكن الأمر لم يكن هيناً بالنسبة لسامية ، معقول أن تبخل الأنوثة الفائرة الساكنة في كل ذرة من جسدها الذي يلفت نظر من لا نظر له في عالم النساء بأن تضعها في خانة العقم ، ومعقول أن حيدر الذي يشبع هذه الأنوثة الطاغية ويثبت فروسيته دائماً يوضع في نفس الخانة ، رفضت تماماً فكرة تبني أحد الأطفال التي عرضها عليها حيدر وقد تسببت في نكأ جرحها أكثر من أنها وسيلة للتقليل من قسوة الحرمان من الأطفال من وجهة نظر حيدر . حاول أكرم وسميحة بأقصى ما يمكنهما التهوين عليهما وأن أطفالهما هم أطفالهم أيضاً وإن كانت هذه الكلمات كانت ثمرة حب من جانب أكرم وسميحة إلا أنها حركت الغيرة قليلاً داخل حيدر

وفتحت قلب سامية لأول خيوط الظلام كي تتسلل إلى داخله

******

قالت سميحة بكلمات مفجوعة وقد تلون وجهها بألوان الطيف كاملة :

_ بالرغم من أنني أعلم أنك لا تعرفين للكذب طريقاً وأعلم مدى إخلاصك لي إلا أنني لا أصدق كلمة واحدة من التي فُهتِ بها الآن .

انبرت عزيزة مدافعة عن صدقها قائلة :

_ وحياة سيدي الدكروري وان شاالله أعدم عنيا يا ستي كل كلمة قلتها صح وسمعتها بودانـي.

عزيزة إحدى خادمات حيدر وسامية، لكن الولاء كل الولاء كان لسميحة التي دائماً تمد يدها بالجود لفقر عائلتها المدقع ولا تبخل عليها بشيء، بعكس سامية التي لو طالت لحرمتها حقوقها واختصرت من راتبها الذي تنتظره بفارغ صبر لترسله إلى الأب المريض والأم المسؤولة عن كوم من اللحم كما يقولون ، نشأت بينها وبين سميحة علاقة تختلف عن علاقة الخادمة بسيدتها ، علاقة إنسانية يغلفها الحب والولاء من جانب عزيزة والعطف الشديد من جانب سميحة ، لكن ما هي الكلمات التي سمعتها عزيزة وباحت بها لسميحة والتي أحدثت دوياً داخل رأسها غير مصدقة ، القصة بدأت

عندما شعرت عزيزة ببعض التعب والإجهاد ، فأرادت أن تتوارى قليلاً طلباً للراحة بعيدة عن عين سامية التي لا تكل ولا تمل كلما رأتها أن تعهد بها إلى عمل شيء ، حتى وإن كان لا يحتاج للعجلة ، انزوت عزيزة داخل كوخ صغير في أحد أركان الجنينة والشمس على وشك المفارقة، وكادت أن تغفل عينها عندما سمعت صوت مخدومها ومخدومتها حيدر وسامية وقد جلسا على أريكة هزازة تكاد تلتصق بالجانب الأيمن من الكوخ ، في حديث حاولت أن تسجله في ذاكرتها بدقة عندما بدأت سامية موجهة الكلام لحيدر :

_ أرفض تماماً كلمة التبني ، فإن كنا لا ننجب ، وسواء كان العيب مني أو منك ، فالنتيجة واحدة ، ولو أن ما أظهره الفحص الأخير من أنك تعاني من نفس العيب لا يضايقني، ولذا أرفض ما عرضته بأن نتبنى أحد الأطفال من ملجأ ونحن لا نعرف عنه أي شيء، وقد يكون لقيطاً لا نعرف كيف جاء للحياة ، فقد يكون من أنجبه مجرم ، والمثل يقول العرق دساس ، حقيقي يا حيدر لا يضايقني أن لا يكون لنا نسل ، لكن أكثر ما يضايقني ويهاجم فكري دائماً هو التفكير في المستقبل الذي لا يعلم غيبه سوى الله . لقد فعلت فعلة نكراء باقتراحك الذي أدخلته حيز التنفيذ بالوصية التي

سجلتها أنت وأكرم التي تقول إنه في حالة وفاة أي واحد منكم يرث الآخر كل شيء حتى زوجته وأطفاله ، هل تضمن من الذي سيرحل قبل الآخر ، ولو كان مكتوباً أن ترحل أنت أولاً فهذا معناه أنه سيرث كل أموالنا وسيرثني أنا كجارية وخاصة أننا حرمنا من الإنجاب، ولن أجد حتى الأبناء الذين يدافعون عني لو حدث أي شيء ، صدقني في عالم الدنيا وعالم البشر وأطماعهما أصبح الأخ لا يثق حتى في أخيه .
لعبت الكلمات في عقل حيدر وقال محاولاً أن يبعد الشكوك وإن كانت وردت بالفعل وعيناه تلتهمان مفاتن سامية التي يمكن أن تذهب لأكرم لو رحل بالفعل قبله وقال :
_ أنا أثق في أكرم ثقتي في الأخ الشقيق الذي حُرمت منه .
قالت محاولة أن تطرق الحديد وهو ساخن وقد رأت بعين الخبرة الشكوك التي بدأت تلعب بنظراته :
_ قد يكون ما تقوله مضبوط من وجهة نظرك ، لكن النساء لهن نظرة أعمق في الرجال ، ألم تلاحظ أبداً نظراته وهي تلتهم مفاتني ، ثم تنتقل إليك بنظرة تفسر ما يدور بعقله وكأنها تقول لو رحلت يا حيدر كل هذه المفاتن ستكون لي .
زادت الشكوك من جرعتها داخل عيني حيدر وانتقل البعض منها إلى حنجرته فخرجت كلماته مرتعشة :

_ لا تظلمي الرجل يا سامية ، أكرم إنسان لا يمكن أن تلوث إنسانيته أي أفكار خبيثة .

زادت المطرقة دقاً فوق الحديد الساخن وقالت سامية :

_ يا حيدر قبل أن يصبح لكل واحد منكما أسرة كان يمكن أن أصدق قولك ، لكن الآن هو لديه أسرته وأطفاله وطموحاته وأفكاره بالنسبة للغد ، أي لديه اهتمامات خاصة به ، ولا تنسَ أن هذه الاهتمامات تولد الأفكار وأحياناً تغير النوايا ، أنا لا أتهمه لكن فقط أعرض وجهة نظري وما يدور بفكري، وخاصة أن موضوع الوصية هذا يقلقني ، كيف لو حدث لك لا قدر الله مكروه هل أصبح زوجة له ؟! ، وكيف أرى مالك يذهب إليه، والله أعلم كيف ستكون معاملتهم بالنسبة لي ، هذه الأفكار فوق طاقة احتمالي .

سأل حيدر بعقل غائب وفكر مشوش :

_ وماذا تظنين ما يجب فعله ؟

أجابت سامية وابتسامة غامضة تكلل شفتيها :

_ دعني أفكر وعندما أهتدي لما يجب أن نفعله سأجيبك .

****

قال أكرم ناطقاً بجراح قلبه :

_ كيف سولت لك نفسك يا حيدر أن يصل بك الأمر للتدبير

لقتلى ، لولا عناية الله الذي أرسل لنا من كان يأتينا بما تعدانه أنت وسامية للتخلص مني لكنت الآن في عداد الموتى .
انهار حيدر ودموعه تنهمر معلنة الندم حيث لا ينفع الندم قائلاً :
_ اغفر لي يا أكرم وسامحني من أجل صداقتنا منذ الطفولة .
قال أكرم والأسف يصيح مع كلماته :
_ من أجل هذا لا يمكنني أن أغفر لك أو أسامحك يا حيدر، لأن هذه الصداقة التي قفزت إلى مكانة الإخوة لم تصدك عن ارتكاب جريمتك ، الوداع يا حيدر لهذه الصداقة والأخوة لآخر العمر .
كما نجحت الحية أن تنفث سمها في أذن حواء، نجح الحقد والغيرة والطمع والجشع أن يبثوا سمومهم في أذن سامية ، وكما نجحت حواء في إغراء آدم على تناول التفاحة وطُرد بسببها من الجنة، نجحت سامية في إغراء حيدر للتدبير لقتل صديقه أكرم وطُرد من جنة صداقته . الاختلاف بين شخصية سامية وسميحة لم يكن في الشكل والطباع فقط، بل كان في القلوب أيضاً ، شتان بين قلب سامية الحجري وقلب سميحة الذهبي ، أسرة سميحة التي تعيش السعادة دائماً وأطفالها الذين ازدادت بهم السعادة أشعلت في القلب الحجري نيران الغيرة والحقد والطمع والجشع ، حتى أصبحت لا تطيق رؤيتهم وتولدت الفكرة الشيطانية في

رأسها للتخلص من أكرم لتؤول سميحة وأطفالها وثروتهم بالكامل إليها حسب الوصية ، واستطاعت إغراء حيدر تارة بجسدها النهم وتارة بسميحة التي ستصبح زوجة ثانية له لأن يتحول لقاتل ولمن ؟ لصديق عمره ، نجحت أن تطعمه تفاحة الخطيئة ، لكن بفضل الله والخادمة عزيزة التي تحولت إلى جاسوسة ترصد كل حركة لساميه وحيدر انتقلت المؤامرة بالكامل إلى أذن سميحة التي أفضت بها إلى زوجها أكرم الذي كاد أن تركب عقله اللوثة غير مصدق أن يصدر من حيدر وسامية هذا العمل الإجرامي، لكنه تأكد تماماً بعد أن تتبع تخطيطهما بعين يقظة وتأكد أن حيدر وسامية ذهبا في طريق الشيطان ، لم يطاوعه قلبه أن يُبلغ عنهما الشرطة واكتفى بطرد حيدر من جنة صداقته للأبد .

عاد الماضي إلى ذهنه بالكامل عندما قال المتعبد لوالد حيدر بأن ابنه سيأتي وحصانته ناقصة ، وذهبت هذه الواقعة إلى أذن أكرم خلال دردشة مع أبيه ، علم الآن بأنه يقصد حصانة نفسه ضد الإغواء للشر ، استطاعت سامية بقليل من ألاعيبها أن تقنعه بأن يقتل صديق عمره ، ما أشبهها بقصة آدم الذي لم يصمد أمام إغواء تفاحة حواء ، هز رأسه آسفاً وانطلق إلى حياته الجديدة .

ضحك (الأديب الجرواني) قائلاً :

_ ألا تذكركم هذه القصة بقصة حواء مع آدم وأن حواء منذ ذلك اليوم وهي تحتفظ دائماً بإغراء تفاحتها توجهه نحو آدم حسب ما يقتضي الموقف، حتى لو كان هذا الموقف جريمة قتل واغتيال للصداقة ، وهذا يثبت أن البشر هم أولاد وأحفاد آدم وحواء .

صاح (الفلسيوف الجامح الفكر ثروت) قائلاً وكأنه يثبت حقيقة نظريته :

_ ما قصصته عن وحشية سامية وحيدر يؤكد أن البشر لا يمكن أن يكونوا من جنس آدمي ، الحيوانية في سلوكهما هي الغالبة .

قهقه الجميع وقال زاهر الصياد ضاحكاً :

_ كم أنا آسف على معارضتي للزميلة التي اقترحت أن نذهب هذه الأمسية للعشاء بالخارج ، بعد ما سمعته هذه الليلة أصبحت أتشكك هل أنا من نسل آدم وحواء أم من نسل نظرية داروين .

ثلاثة أيام قبل نهاية العالم

****

عندما تقبض أصابعي على القلم لأكتب إحدى حكاياتي ، أضع نفسي بمعزل عن كل ما حولي لأكتب لنفسي ، أنا الكاتب والقاريء معاً ، وهذا ليس معناه الإنسان الأنوي الذي لا يُؤثِرَ سوى نفسه فأنا أترك ما أكتب في متناول الجميع ، لكني أقصد مصداقية ما أكتب ، البعض يصدقه وينسبه إلى عالم الواقع ، والبعض يصفني بالخيال الواسع على أنها لا تمت للواقع بشيء ، والبعض يضع نفسه في خانة التشكك بين الواقع والخيال ، قررت أن أكتب هذه المقدمة قبل أن أبدأ في حكايتي الحقيقية والتي لم تخرج عن واقعيتها للحظة واحدة لأنني أعلم أن الكثيرين سينسبونها إلى الخيال ، أنا لا أُجبر القارئ على تصديقها كحكاية حقيقية من مبدأ أن كل واحد له أن يصنف ما يقرأه كيفما يراه .

****

كنت أستقل سيارتي في طريقي من ولاية نيويورك إلى ولاية بوستون لأداء الواجب في زواج أحد أبناء الأصدقاء

، المسافة لا تستغرق أكثر من خمس ساعات ، توقفت إلى جانب الطريق وعلى يميني غابة كثيفة وجدت أنها المكان المناسب والطريق قد خلا من أي محلات أو مطاعم لمسافة كبيرة لأتخلص من إلحاح النداء للذهاب إلى دورة المياه الذي يتسبب فيه الشراهة لاحتساء أكواب الشاي ، تركت محرك السيارة يعمل واندسست بين الأشجار الكثيفة ولم أكد أنتهي من مهمتي وأخطو خطوة للخلف للعودة حتى سمعت صوتا كاد أن يوقف الدماء في عروقي والظلمة تحيط بي من كل جانب يأمرني بالتقدم داخل الغابة ، ظننت أنه الوهم ، لكن الصوت تكرر بلهجة ازدادت إمرتها وتأكدت من يقين ما أسمعه ، أحسست بأقدامي وقد التصقت بالأرض ، تذكرت السيارة وأدرت رأسي وكأنني ألفت نظر من يناديني إليها وأنني تركت محركها يعمل ، تدفق الخوف إلى داخلي وأنا لا أنظر السيارة ، انتزعت قدمي انتزاعاً محاولاً العودة سريعا للخلف لكن الصوت تكرر للمرة الثالثة بدرجة أعلى وإمرة أكثر قائلاً :

_ عد وتقدم إلى داخل الغابة كما أمرتك ولا تفكر في السيارة .

تيبس الفكر داخل عقلي تماماً ، ولم يعد أمامي سوى الانصياع للأمر بغض النظر من هو الآمر ، نقلت أقدامي بطريقة ميكانيكية إلى الداخل وتوقفت عندما سمعت الصوت

يأمرني بالتوقف والجلوس فوق صخرة كبيرة لمحتها أسفل إحدى الإشجار على ضوء القمر المتسرب بين الأغصان الكثيفة ، جالت عيناي على قدر ما يسمح به الضوء في محاولة لالتقاط أي حركة لمخلوق لكنها عادت بخفي حنين ، المكان خال تماماً حتى من تلك الحيوانات الصغيرة التي دائماً ما نشاهدها تقفز حول الأشجار. لم أكن قد حلقت كثيراً مع أفكاري حتى عاد الصوت مرة أخرى ينادي:

_ اسمع يا آدم

نهضت ورددت فوراً وكأنني وجدت طوق النجاة :

_ يبدو أن هناك خطأ ، أنا لا أُسمى آدم !!.

أجاب الصوت :

_ جميع البشر اسمهم آدم وأنت منهم ، آدم كان أبوكم جميعاً وأنتم سلالة آدم ، كل واحد منكم يحمل اسم آدم .

عدت للجلوس ثانية بعد أن انهزم أمل الهرب وقلت :

_ فهمت لكن لم أعرف من يتحدث معي ؟!!!

أجاب الصوت :

_ ما يهمك أن تعرفه هو انني لا أريد أن أُلحق بك الأذى وإلا كنت أوقعته بك دون التحدث معك ، اخترتك لغرض لصالحك بالرغم من أعمالك التي لا ترتقي إلى هذا المستوى ويوجد من يفوقك

في الصلاح بمراحل كثيرة ، لكننا عندما نختار نُخفي الهدف عن أنظار البشر لنرى إلى أي مدى تتعلق قلوبهم بالسماء .
أحسست بارتعاشة بالرغم من لطف الجو عندما سمعت كلمة السماء وقلت وقد ذهب خوف المفاجأة :
_ التمس لي العذر يا سيد في ارتجافتي ، لكنني الآن أشعر باطمئنان بعد أن وردت كلمة السماء في حديثك مبعثه أن السماء لا ترسل الشر ، لكن الشر يأتي من أفعال البشر ببعضهم .
سمعت الصوت محملاً برائحة السرور:
_ عظيم أن يكون لك هذا الإيمان ولهذا اخترتك .
_ أشكرك سيدي على اختيار شخصي الضعيف .
سأل:
_ هل تؤمن بأن هناك آخرة ؟
_ نعم سيدي بالتأكيد أؤمن .
_ هل يسُرك ما وصلت إليه أعمال أولاد آدم الآن ؟!
_ أنا منهم وأعمل أعمالهم فلا يجوز لي الحكم عليهم !!! .
_ للمرة الثانية تنجح في الاختبار وتجيب إجابة حسنة .
_ أشكر سيدي مديحه لشخصي الضعيف .
_ اخترتك لتطوف العالم كله لترى وتحكم على أعمال أولاد آدم وما وصلوا إليه قبل أن تأتي نهايته التي لم يبق عليها سوى ثلاثة أيام .

قلت وقد بدأ عقلي في الخروج عن استيعاب الحديث :

_ أعذر جهلي سيدي ، هل تقول إن نهاية العالم بعد ثلاثة أيام وأنني سأطوف العالم لأرى أعمالهم ، ما شأني بهذا ياسيدي ؟!

_ لا تتعجل وستعرف من بعد .

****

_ سيدي الرئيس نحن بذلك نعمل على نشر الإرهاب في العالم ؟!

_ هذا لحماية مصالحنا !!

_ شلالات الدماء التي تسيل تحت الغطاء الديني قد نُسأل عنها.

_ الأفضل أن تسيل تحت غطاء ديني فيكون لها مبررها أمام العقول الجاهلة ، أما إذا سالت تحت غطاء سياسي ستشير نحونا أصابع الاتهام ، الغطاء الديني لا يكلفنا سوى بعض الأموال تذهب لهؤلاء القتلة الأغبياء ليقوموا بواجبهم خير قيام ، دون أن نزج بأنفسنا في قوات وأسلحة .

_ هذا الإرهاب الديني قد ينقلب علينا .

قهقه الرئيس :

_ لقد تعلمنا الدرس ونؤمن أنفسنا جيداً ، يعلمون أنهم لو اقتربوا منا ستكون معتقلات التعذيب في انتظارهم ، من ذاقها لن يحاول العودة إليها وبالتأكيد من نفذ بجلده منها خبر الذين لم يروها ، إنهم يستمرؤن العظم الذي

نلقيه إليهم الآن بعيداً عنا تحت أمنيات السيطرة بالدين .
_ ألا يثير هذا حفيظة العالم علينا سيدي الرئيس .
قهقه الرئيس بصوت أعلى من سابقه :
_ أي عالم ، نحن العالم ، الباقون جميعاً يخطبون ودنا ، يرون خطواتنا ويسيرون عليها ويؤيدونها ، هل تظن أن من ترتبط مصالحهم مع مصالحنا يمكن أن يرفعوا إصبعاً واحداً في وجهنا ونحن الذين نفرش أمامهم أرض المتعة بكل ألوانها وأشكالها ، وهل تظن أن من ندفع إليهم ببعض المعونات يرفعون صوتاً أمام آذاننا ، ألم تسمع المثل القائل « أطعم الفم تستحي العين « ، إن عيونهم تستحي أن توجه حتى نظرة لوم وأفواههم محشوة بطعامنا وخيراتنا .
_ تقصد حكم القوي على الضعيف سيدي الرئيس .
_ الأفضل أن تقول حكم العقول المفكرة على العقول الغافلة والجاهلة والتي لا تريد أن تخرج من قمقم العاطفة الهشة التي توجههم نحو الخطأ دائماً .
_ إذاً فليذهب العالم كله للجحيم ياسيدي الرئيس ولنبق نحن .
_ هذه هي سياستنا ، وستبقى هكذا إلى نهاية العالم .
_ وهل حقيقة توجد نهاية للعالم سيدي الرئيس ؟!
قهقه الرئيس بصوت فاق ما قبله :
_ يقولون !!!!! .

_ بيقولوا الدنيا سيجارة وكأس ، لا بد أن نأخذ حقنا من الدنيا .
_ لكن الدنيا ليست سيجارة وكأس فقط يا باشا ، السيجاره والكأس يلزم لهما الصحبة الحلوة ، النساء يا باشا هن المتعة الحقيقية ، النساء ياباشا خلقن من أجل الرجال ، فاكهة من كل نوع ، لا تشبع منهن أبداً ، أصناف وأنواع الفاكهة كثيرة ، عندما تشبع من صنف تنتقل إلى صنف آخر أحلى مذاقاً ، النفس تحب التغيير دائماً .
قهقه قهقهة شيطانية :
_ ونحن لا نحرم أنفسنا أبداً كل ليلة مائدتنا تغص بجميعهن ، لست أعرف هؤلاء المهابيل الذين يكتفون بامرأة واحدة أو حتى أربعة تحت مسمى الزواج كيف يطيقون العيش معهن سنوات وسنوات ، عجيبة بالفعل .
_ ياباشا هؤلاء دراويش الدين ، يريدون تنسيق الكون كله تحت بند الحلال والحرام ، النساء يحللن بالزواج ، بعيداً عن الزواج حرام ، « مقهقها « ، حتى لو نُظم الكون كله تحت بند الحرام والحلال لا يمكن أن تدرج الملاعبة مع النساء تحت هذا البند ، أليس يقولون لكل قاعدة شواذ ، النساء شواذ هذه القاعدة ، كلما أكثرت منهن خارج سجن الزواج كثر بند الحلال .
_ « مقهقهاً « أي والله ، يخيفون الناس بما يسمى الزنا

وعقابه المخيف وأنت لا تدري ماذا يفعلون هم في الخفاء وكم امرأة تتقلب فوق فراشهم كل ليلة ، ناس بتضحك على ناس ، والغبي هو اللي ينضحك عليه . يوجد من يفعل أكثر مما نفعله بمراحل ، هذا الزواج الذي يطلقون عليه زواج المثليين مرأة تتزوج بامرأة ورجل يتزوج برجل .

_ لقد أعددت ورق اللعب ياباشا ، شلة الأنس في الطريق ، الليلة سينضم لنا رفيق جديد ، وزير الفرفشة كما يطلقون عليه في وزارته ، مثال حي للحياة ، يفوز في اللعب يبتهج بالكأس والسيجار ، يخسر يطفيء غليله مع امرأة ، المال الذي يخسره يأتي به من جيوب الشعب والمال الذي يربحه يكنزه لوقت احتياج كما يردد دائماً ، هذه الأمثلة موجودة دائماً وفي كل مكان في العالم يا باشا ، المسؤول الذي لا يهمه سوى مسؤولية نفسه فقط ورفاهيتها ، كم من المسؤولين جردوا خزينة الدولة وهربوا إلى الخارج ولم تطلهم يد العدالة ، ولو أن العدالة أصبحت عمياء الآن على كل المستويات ياباشا ، وعلى مستوى العالم كله .

_ ماذا بك هذه الليلة ، هل انقلبت إلى واعظ أو مصلح اجتماعي !!

_ مقهقهاً ، لا يا باشا ، مجرد كلمات لحين بدء الأنس ، هل سمعت سعادتك أن الذئب انقلب إلى حمل ، أعلم جيداً أنه

لـو حـدث هـذا ، سـيصنع منـي الأعـداء وليمـة شـواء ، وليـس بالمسـتبعد أن أُشـوى حيـاً ، يعرفـون جيـداً هـذا المثـل عنـي « إذا رأيـت أنيـاب الليـث بـارزة فـلا تظـن أن الليـث مبتسـم « .

_ « مقهقهـا « ، هـذا أفضـل مـا فيـك ، ولـولا هـذا مـا كنـت صمـدت فـي خدمتـي .

_ وأنا دائماً في خدمتك يا سعادة الباشا أنت ملاذي ولا أحد سواك .

****

_ سـعادة البيـه ، الحسـابات اتظبطـت ولا الجـن الأزرق يقـدر يكشـف أي تلاعـب .

_ وحتـى لـو اتكشـف ، كلـه بيسـرق ، مـن أكبـر مسـؤول لأصغر مسـؤول بيسـرق ، حتـى شـوية الفكـة اللـي بيفضلـوا يجـدوا مـن يسـرقهم .

_ علـى رأي سـعادتك ، نحـن فـي زمـن يديـن بمبـدأ ، اللـي تقـدر تسـرقه اسـرقه أحسـن مـا يسـرقه غيـرك ، سـمعت سـعادتك عـن السـرقه اللـي وقعت فـي البنـك اللـي علـى ناصيـة الشـارع.

_ قـرأت عنهـا فـي الصحـف ، « مقهقهـاً « البنـك مظلـوم والله ، حراميـة تقتحمـه وتسـرق اللـي تقـدر عليـه ، والمديـر وأتباعـه يسـهلوا سـرقته مـن الداخـل ، قـروض تخـرج ولاتعـود للبنـك مقابـل عمـولات ورشـاوي ، وغيـره وغيـره .

_ السرقه في كل مكان يا سعادة البيه ، مش إحنا فقط اللي بنتلاعب في الميزانية ، يوجد من يعيش حياته كلها على السرقة ، اللي بيسرق رغيف عيش ما هو حرامي

_ بالرغم من إننا بنسرق ، لكن من باب الضمير دا لو كان موجود أقولك اللي بيسرق رغيف العيش بيسرقه مضطر ، لأن اللي فوق سرقوا لقمته ، وإذا هو مسرقش رغيف العيش هيموت من الجوع .

_ « مقهقهاً » ، مضبوط والله يا سعادة الباشا ، اللي فوق يهرب بالملايين وهو يتمسك برغيف العيش اللي سرقه وممكن يقع تحت حكم قاضي ضميره بينقح عليه ، يغمض عينه على الملايين اللي بتتسرق ، ويدق على رغيف العيش ، يحكم عليه بالسجن ، والهتيفه تهتف ، يحيا العدل ، صحيح عدل أعور .

_» مقهقها « ، يا أخي المفروض تشكر العدل الأعور ، لولاه كان زمان أنا وإنت والبهوات اللي زينا في السجن نقضي عمرنا كله فيه .

_ « مقهقهاً « ، اللهم دوم علينا العدل الأعور واحفظه من الزوال .

_ تصدقوا ولو بشق تمرة

_ من سقى هؤلاء الأصاغر كأس ماء بارد فله ملكوت السموات .

_ أيها الأخوة العيد على الأبواب والفقراء ينتظرون ، هناك من

لا يذوق اللحم سوى في العيد ، هناك من لا يعرف الثوب الجديد سوى في العيد ، الأرامل والأيتام ينتظرون صدقاتكم ، أين الزكاة ، أين العشور ، أين الصدقة ، تصدقوا تكثر النعم عليكم .

_ يظهر اننا بنأدن في مالطا يا ابونا .

_ كلامك مضبوط يا فضيلة الشيخ .

_ الأنانية ملأت البشر ، أنا ومن بعدي الطوفان .

_ مضبوط ، حب الذات هو المسيطر الآن على العقول وينتقل إلى السيطرة على الأجساد التي لا تعرف سوى ذاتها ، هي شبعانة حتى التخمة ، إذاً لا داعي أن تفكر في جوع الآخرين ، هي تنعم بالدفء فلا داعي أن تفكر في الزمهرير الذي يقتل أو على الأقل يحرم العيون من الرقاد والأجساد ترتعش من شدة البرد .

_ المشكلة يا ابونا إن هذه الأنانية لا تسيطر على الفرد فقط ، دول بأكملها كرست سياستها لهذه الأنانية ، كم من الدول تنعم في عطايا الله وتفيض عنها وتقبض يدها عن الدول التي يهلك بشرها من الجوع والبرد وحتى الظمأ .

_ يا فضيلة الشيخ ليس الأمر يتوقف على قبض اليد عن مساعدة هذه الدول بل يصل الأمر إلى إهلاك الفائض من نعم الله تحت حجة الاحتفاظ بأسعارها في السوق أو كلام

يقال عن الاقتصاد لا أجد له تبريراً في بند الإنسانية ونحن نسمع عن الأعداد الهائلة من رجال ونساء وأطفال يغيبهم الموت كل عام نتيجة الفقر والحرمان .

_ لا أحد يريد أن يفكر أن الله خلق البشر جميعاً من التراب وعندما يرحلون يعودون إلى التراب ، يعود الجسد بكل ما أكله وكل ما ارتداه إلى التراب ، الموت لا يفرق بين فاحش الثراء ومدقع الفقر ، الكل في النهاية واحد .

_ بالضبط ، البداية واحدة ، والنهاية واحدة ، من تراب وإلى تراب يعود ، لكن من يعقل هذا ، القليلون هم من يعقلون أو يصل بهم الفكر إلى هذه النقطة ، مطالب الأجساد وطمعها وجشعها وعدم إحساسها بالآخرين أصبحت تلف ظلامها على العقول وتخفي عنها الحقيقة ،أن هناك نهاية مهما طالت سنوات الأرض .

_ هذه المشكلة ، البعض يتخيل أنه باق على الدنيا للأبد ، لم يعد يتذكر أن نهايته يمكن أن تكون بين لحظة والتالية ، لا يفكر في شيء اسمه الآخرة وأن الدنيا مصيرها للزوال ، وهذه اللحظة لا يعلمها سوى الله ، قد تكون الآن ونحن نتحدث ، وقد تكون غداً ، أو أي وقت ، هذا في علم الله ، لكن من يؤمن بهذ الآن والمادة قد أكلت عقول البشر .

_ كما تقول ، نهاية العالم متوقعة بين لحظة وأخرى ، مهما بلغ غرور علماء الأرض ، لن يصلوا إلى تحديد هذه الساعة ، لكن من يعرف الله ويعمل بوصاياه وأكثر الوصايا نفعاً في الآخرة هي الصدقة وإطعام الأفواه الجائعة وكساء الأبدان المرتعشة ، بالتأكيد يدخر لنفسه ميراثاً في الآخرة ، نسأل الله أن يهدي الجميع .

_ آمين يارب العالمين .

_ العالم مليء بالأغبياء ، تفكير أعوج عن أديان وعبادات ، والله الذي خلق كل شيء ، تجارة اسمها تجارة الأديان والفائزون هم من يدعون أنهم رجال دين .

_ المشكلة أنهم يرموننا بالإلحاد ، لأننا لا نعترف بهرطقاتهم الدينية ، لا يريدون أن يفهموا حقيقة هذا العالم .

_ ومن أين يأتي الفهم إلى عقولهم المظلمة وكل رؤوسهم محشوة بتعاليم يظنون بها أنها طريقهم إلى السماء وأنه سيأتي اليوم الذي ينتهي فيه هذا العالم ، وهم يذهبون إلى الجنة المزعومة ، ونحن إلى جهنم الوهم .

_ حاولنا كثيراً أن نفهمهم أن كل شيء في هذا العالم من العالم نفسه أي من صنع الطبيعة حتى الإنسان الذين يدعون أنه خليقة الله ، لا احد يريد أن يحتكم

إلى العقل ، الكل مجذوب إلى عاطفته الدينية .
_ بالضبط كما تقول الانجذاب إلى العاطفة الدينية ، انظر إلى ما آل إليه أصحاب الأديان ، البعض يكفر البعض ، البعض يقتل البعض تحت ستار الدين ، حتى داخل العبادة الواحدة تجدهم يختلفون ، وكأن هناك إلها لكل عبادة ، بل هناك إله لكل مذهب من مذاهبهم التي يتفننون في اختراعها كروايات خيالية .
_ « مقهقهاً « ، هل سمعت عن هؤلاء المجانين الذين يدعون أن هناك ما يسمى بالمعجزات ، وينشرون سذاجتهم على الملأ لجذب الناس إلى اعتناق الديانة .
_ كل أصحاب الديانات على باطل ، في النهاية سيكتشفون أنهم كانوا يعدون خلف السراب ، وأنهم لم يتمتعوا بمباهج الحياة ولا يوجد ما يسمونه بالآخرة ولا الجنة ولا جهنم ، أي كما يقول المثل « لا طالوا بلح اليمن ولا عنب الشام «» أو « طلع نقبهم على شونة « .
_ « مقهقها « ، يا ترى لما نغزو الحياة في القمر والمريخ ، هل سنسمع أن هناك آلهة تسيرهم ، أعتقد أننا سنكتب على أبوابهما ، ممنوع على أصحاب الديانات ، أفسدتم الأرض ولا نحتاج لفسادكم هنا .

****

_ اقتل باسم الجهاد ، اذبح باسم الجهاد ، عذب ، دمر ، كل ما تهفو إليه نفسك افعله باسم الجهاد في الدين ، حتى نكاح الزنا ممكن تعمله باسم الدين ، طالما فيه ناس مغفلة بتصدق أن الدين يمكن أن يكون فيه كل هذا الإجرام والفسق .

_ بع ضميرك للشيطان !! ، اكذب !! ، أقسم باطل!! ، اغتب!! ، قدم الخيانة على أي شيء في حياتك ، افعل ما يرضيك دون النظر إلى مرضاة من حولك أو حتى مرضاة الله ، فعل ، افعل ، فعل ، فعل .....

****

_ كفى ، كفى سيدي ، أرجوك كفى ، لقد تعبت من كل ما رأيته ، يومان فقط مضيا وأشعر بالتعب والحزن من كل ما رأيت ، هل من الضروري أن أكمل اليوم الباقي ؟!

_ أنت كنت في هذا العالم وبينه ولم تشعر بكل هذا الحزن والتعب سوى الآن ؟!

_ كم نحن عميان وندعي البصر يا سيدي .

_ الاعتراف بالحق فضيلة .

_ أي فضيلة يا سيدي ولم يبق على النهاية سوى يوم واحد .

_ عليك أن تكمله لتعرف كم السماء عادلة مع البشر ، والشيء الثاني لأن النهاية محددة بالدقيقة والثانية .

_ الأمر لك يا سيدي فأعن ضعفي .

_ ياسيدي كل هؤلاء فعلوا الشر ، ولم يلتفتوا حتى لكلمة وعظ واحدة ، لم يتعظوا مما يحدث حولهم ، لم تردعهم أمراض ولا قبور .

_ وهل استمع آدم ومن بعده للوصية؟! .

_ لقد كان الطوفان هو الجزاء العادل لشرور البشر آنذاك.

_ وبالرغم من هذا لم يتعظ بشر ما بعد الطوفان .

_ وماذا أنت فاعل ياسيدي .

_ سترى بعينيك الآن ، النهاية أتت .

****

ليست هذه الغابة التي دخلتها لألبي نداء الذهاب إلى دورة المياه ، ما أروع هذه الحديقة ، أنا أعلم أن الجنة ليست على الأرض لكن ما أنظره هو الجنة نفسها ، الأشجار تحمل كل الخيرات ، أنفاس النسيم تسكر دون خمر ، كل شيء رائع ، لا أشعر بالتعب الذي كنت أشعر به قبل دخولي إلى الغابة ، أشعر بأنني أطير بجناحين ، خطوات قادمة ، يا الله ، من أين أتت هذه الحورية الرائعة ، لم أدر بأنني عارٍ إلا عندما نظرت إلى عريها ، لا ترتدي شيئاً سوى خصلات شعرها الحريرية الممتدة حتى قدميها ، تقدمت نحوي ، سمعت صوتها كالقيثارة تناديني وفتنة مغرية تقفز من عينيها :

_ آدم .
حملقت في روعة وجهها وناديت بصوت خيل إلىَّ أنه ليس بصوتي .
_ حواء .
امتدت يدها التي كانت تخفيها خلف ظهرها بتفاحة لم أر مثلها من قبل وقالت وهي تقدمها لي بإغراء لا يقاوم :
_ انظر ما أتيت به لك كعربون لحبي ، بالهناء والشفاء لك .
قهقهت قائلاً :
_ العبي غيرها يا حواء ، عاوزه ترجعيني للتعب والفقر تاني ، أنا فاكر زمان في العالم اللي انتهى كانوا بيقولوا « ما يعترش عترتين إلا الحمار « أي لا يقع في حفره مرتين سوى الحمار .
نظرات الهزيمة بدت في عينيها وقبل أن تعاود كرة الإغراء سمعت الصوت الذي كان يتحدث معي :
_ أحسنت يا آدم ، لقد نجحت في الاختبار ، ابدأ في عالمك الجديد فقد يكون أفضل من سابقه .
_ أشكرك سيدي ، لكن أين سيارتي لقد تركتها والمحرك يعمل .
_ انسَ السيارة يا آدم ، الحمار أفضل .

الاعتراف

****

الدهشة تعتلي الوجوه ، لا أحد يريد أن يصدق أن السيدة الفاضلة « ماري لوكاس « زوجة رجل الأعمال الشهير « نجيب العزيزي « قد رحلت عن الحياة ، الميتة بشعة ، يد شيطانية أخمدت أنفاسها وهي تغط في نومها ، لغز محير وغامض ، الجريمة لم تتم بغرض السرقة ، كل شيء داخل القصر الفاخر كما هو لم تمسسه يد ، سؤال تصعب الإجابة عليه ، لماذا أُنتزعت روح هذه الفاضلة عنوة ؟!، تضخم السؤال وأصبح كجبل يصعب تسلقه ، الجميع يطلقون عليها « ملاك الرحمة « ، سيدة يمكن أن تتضاءل كلمة الخير وتنكمش وتشعر بالحياء أمام أفعالها الخيرة ، يدها الممتدة للجميع لا تعرف الفرق بين إنسان وآخر ، المحتاج هو المحتاج ، والفقير هو الفقير ، واليتيم هو اليتيم ، الاحتياج أو الفقر أو اليتم ليس له أجناس أو ألوان أو عقائد ، وهذا هو سر الدموع التي ذرفتها عيون الجميع حزناً على رحيلها ، مستصعبة أن يأتي الرحيل بجريمة آثمة ،

السؤال لم يصب المحققون فقط بالحيرة ، بل داهم ذهن كل من عرف هذه السيدة الفاضلة من قريب أو بعيد وكل من صافحته يد إحسانها . الابنة الوحيدة تركت بعثتها بالخارج دون استئذان وأتت على جناح اللوعة ، عيناها المحدقتان في الفضاء تكشفان عن نيران مشتعلة تشوي قلبها ، تنظر في خوف إلى أبيها ، الشحوب فوق وجهه يحاكي شحوب الموت ، الأفكار تكاد تشق عقلها بأنها ستفقده كما فقدت أمها .

*****

الجريمة غامضة بكل المقاييس ، لم تتمكن الشرطة من الإمساك حتى بطرف خيط يميط اللثام عن ملابساتها ، الزوج كان بالإسكندرية وقت وقوع الجريمة لقضاء بعض أعماله ، حضر على وجه السرعة عندما أبلغوه ، قال بأن اليد التي قتلت لم تستول حتى على جنيه واحد ، مديرة المنزل كانت في عطلتها الأسبوعية وهي التي اكتشفت الجريمة عند عودتها صباح اليوم التالي ، حارس القصر قال إن السيدة « ماري « خرجت ذلك اليوم في الثانية عشر ظهراً لأنها كانت مدعوة للغداء في إحدى الجمعيات الخيرية كما أخبرته ، عادت في السابعة مساء ، لم يأت لزيارتها أحد في تلك الليلة ، شهادة الشهود لم تلق أي بصيص من الضوء ، بل

زادت الأمور تعقيداً ، تلاشى الأمل الأخير الذي كان يُنتظر من فحص البصمات وقد خلا من أي بصمات غريبة . كثير من الجرائم تقيد ضد مجهول ، ولم تكن هذه الجريمة أوفر حظاً ، أُغلق التحقيق وقيدت الجريمة ضد مجهول . عادت الابنة مضطرة لإكمال بعثتها ، تعاطف الجميع مع الزوج « نجيب العزيزي» الذي بدا كرجل فقد ظله ، منذ وقوع الجريمة .

****

تتبدل ألوان الوجه حسب الموقف ، نقول حمرة الخجل ، أو اصفرار الموت ، او اسوداد الخزي والعار ، لكن الألوان التي تناوبت فوق وجه « القس ميخائيل « وهو يستمع إلى اعتراف رجل الأعمال الشهير « نجيب العزيزي « لها وصف آخر ، مزجتها الدهشة وكلمات قد لا تصدق تنساب إلى أذنيه وكأنها آتية من واد سحيق ، أو صدى صوت يتردد بين الجبال لا يمكن تمييز نبراته ، كلمات مشبعة ببرودة الموت بالرغم من أنها صادرة من فم لا يزال على قيد الحياة ، فم يبدو وكأنه ركب تركيباً فوق وجه شمعي لاينبض بأي مشاعر ، نجيب العزيزي كان يجلس إلى جانب القس ميخائيل ، مركز تجميع الصورة داخل عيني القس توقف ، يحدق في النهاية البعيدة للقاعة التي جمعتهما داخل مبنى الكنيسة وقد ارتسم

فوق جدارها وجه نجيب العزيزي بصورة لا تمت لوجوه البشر بأي صلة ، عادت النظرة البعيدة تحاول أن تُجَمِّعَ صورة الجالس إلى جواره كإنسان ، وقال مستنكراً صوته :

_ أحاول أن أصدق لكن عقلي يرفض يا أستاذ نجيب ، اعتدت أن أستمع لاعترافات تحمل كل أنواع الخطيئة ، لكنها المرة الأولى التي أستمع فيها لاعتراف شل مركز التفكير داخل عقلي وأيقظ مركز الدهشة بكل قوة ، لا أشعر الآن سوى بطنين سؤال يكاد يثقب أذني ويفقدني السمع ، لماذا ؟!! ، لماذا قتلت زوجتك يا أستاذ نجيب ؟!! .

أجاب نجيب العزيزي محاولاً أن يبتعد بعينيه عن عيني القس ميخائيل :

_ لماذا هي التي ساقتني ودفعتني للحضور إليك للاعتراف بجريمتي ، فقد يخفف اعترافي النيران المشتعلة داخلي منذ ذلك اليوم ، لم أكن سآتي إليك واعترف لولا كلمة « لماذا « التي فوجئت بها عندما فتحت زوجتي عينيها وهي في لحظاتها الأخيرة ، بدت وكأن الآلام التي تحملها كلمة لماذا تفوق كثيراً آلام شعورها بالاختناق وأنا أكتم أنفاسها بالوسادة ، منذ هذه اللحظة وعينها المتسائلة المتألمة تطاردني ، لا تترك لي منفذاً أهرب منه ولو للحظات قليلة ، أراها في

كل مكان أضع فيه قدمي ، بل أحياناً أسمع صوت خطواتها خلفي وكأنها عادت لتسألني لماذا !! ، لماذا قتلتني !! ، يقظتي أصبحت كابوساً ونومي أشد فزعاً من كابوس ، كلمات ابنتي تدق في أذني وأنا أودعها لتعود لبعثتها : حاول أن تتوصل إلى قاتل أمي يا أبي ، المجرم الذي يقتل البشر يأخذ عقابه ، فما بالك بمن يقتل ملاكاً ، نعم يا أبي لم أر في أمي منذ طفولتي سوى ملاك يعيش فوق الأرض ، لا عمل له سوى فعل الخير وتخفيف آلام الناس . فكرت كثيراً قبل أن أحضر إليك ، شيء بداخلي دفعني لكي آتي وأعترف أمامك ، فربما ينزع الاعتراف بعض العذاب الذي اتقلب فيه .

قال القس ميخائيل وهو يضرب كفاً بكف :

_ نفس هذا السؤال أعيده عليك أنا بنفس آلام السيدة الفاضلة « ماري « رحمها الله وهي في لحظاتها الأخيرة !! ، لكن للأسف أنا لا أزال على قيد الحياة وأشعر باعترافك كما لو كان طحن عقلي ووضعه أمام ريح شديدة تذروه وتبعثره ، فقدت القدرة على التفكير تماماً ، فهل من إجابة لسؤالي ترد لي بعض العقل : لماذا ارتكبت هذه الجريمة الوحشية وقتلت زوجتك الطاهرة ؟!!! .

حاول نجيب العزيزي إشعال سيجارة فقد يجد في دخانها بعض الشجاعة ليجيب عن سؤال القس

ميخائيل ، لكن القس نظر نحوه نظرة صارمة قائلاً :

_ لا تزد من خطيئتك ، ألا تعلم أنك تجلس داخل جدران الكنيسة ، وأن التدخين في الأماكن المقدسة لا يجب !!! أطفأ السيجارة متغصباً في صمت وقال وكأنه يتحدث عن شخص آخر :

_ صارحت ماري بعد زواجي منها ، بأن كل منا له طريق يختلف عن الآخر ، هي وروحانياتها ، وأنا ودنياي ، بدا في عينيها استنكار لم تفصح عنه ، قرأت على وجهها الندم على ارتباطها بي وكأنها تقول بأنها كانت تتمنى لو صارحتها قبل الزواج حتى لا ترتبط بي ، لكن الفاس وقعت في الراس كما يقول المثل ولا سبيل للتراجع ، زواج المسيحيين المؤبد كما يطلق عليه البعض ، ليس لها ذنب في هذا الزواج ، فبحكم ما تربت عليه من فضائل وافقت على اختيار والدها ، ووالدها لا ذنب له لأنه لم يكن يعرف عني سوى أنني ابن صديقه الوحيد الذي يثق به ثقة عمياء ، ووالدي لا ذنب له ولم يخدعه لأنه كان يجهل أنني سلكت طريق الطيش منذ فجر شبابي ، وامتد معي حتى بعد زواجي وإنجابي لابنتي الوحيدة التي نشأت في كنف أمها ، تحمل نفس خيرها وبرها ، استماتت زوجتي في البداية كي تجذبني إلى طريقها لكنها

فشلت فشلاً ذريعاً أمام تشبثي وعنادي بأن أعيش حياتي حراً ، لا يهمني سوى المزيد من المال ومتع الحياة ، صمتت وتغاضت أمام تلبيتي لأي مبالغ تطلبها لتنفقهاعلى أوجه الخير ، سارت حياتنا بفضل حكمتها وعدم كشف المستور أمام أي إنسان حتى أسرتها ، بالرغم من علمها بنزواتي وأنا أختلق الفرص للسفر إلى الخارج بحجة تسيير أعمالي . في إحدى السفريات دُعيت لحضور حفل لرجل أعمال كبير في أمريكا ، مصري هاجر منذ فترة طويلة ، تزوج من أميريكية أنجبت له ثلاثة أبناء ، الابنة الأخيرة كان عمرها بضع سنوات بعد عقدها الثاني ، خليط من الجمال الأمريكي وسحر الشرق ، مصرية خالصة لغة وطباعاً , رافضة للزواج لأنها لم تقابل من يحرك قلبها ، تصافحت أيدينا وتلاقت نظراتنا وأحسست بأهداب عينيها ترتعش وهي تنقل دقات قلبها ، وربما تكون لاحظت هي نفس الشيء وهي ترقب خلجات وجهي ، الفارق الكبير بين عمرينا أحسست أنها تضعه في سلة المهملات ، أخبرتها كاذباً بأنني غير متزوج ، معللاً ذلك بأن عالم الأعمال اختطف السنوات من يدي ، هذه الفتاة النصف غربية النصف شرقية كانت محافظة جداً ، الطريق الوحيد إليها هو الارتباط الرسمي ، لم يشك أحد في كذبي عن عدم

ارتباطي بالزواج قبل سابق ، بررت إصرارها على الارتباط بي بالرغم من الفارق الكبير في العمر بأنني الوحيد الذي حرك قلبها ، تم الزواج هناك وأنجبت منها طفلاً في عامه الثالث الآن ، كنت أنتظره ، زوجتي ماري لم توافق على الإنجاب ثانية بعد ابنتنا كرد فعل لسلوكياتي التي تغاضت عنها مضطرة ، ازدادت الفترة التي أقضيها في أمريكا وقرأت الشك في نظرة زوجتي « ماري « لكنها لم تفصح عنه وساعد على ذلك وقتها الذي تمضيه في مساعدة الآخرين . دائماً لا يخلو الأمر من الوشاة ، أحد المصريين مقيم في أمريكا لكنه يتردد على مصر كل عام ، لست أعلم لماذا تطوع من تلقاء نفسه لينبش خلفي وعلم بأمر زواجي في مصر ؟! ، وبحكم صداقته لوالد زوجتي في أمريكا وشي بي عندهم ، لكنني أنكرت مستخدماً كل وسائل الكذب وأساليبه أمام مشكلة يمكن أن تذهب بي إلى السجن ، لقد زورت الأوراق بأمريكا على أنه لم يسبق لي الزواج ، علاوة على أن القانون في أمريكا وعقيدتنا يمنعان الزواج بأكثر من واحدة في وقت ، مشاكل لو سارت بي إلى المحكمة لانتهيت تماماً ، وخاصة أن زوجتي هناك هددتني بالطلاق ومقاضاتي في أمريكا ومصر لأنها تحمل الجنسيتين الأميريكية والمصرية

إن لم أثبت صدقي بمستندات رسمية ، لجأت إلى كذبة جديدة بأنني فعلاً كنت متزوجاً لكن زوجتي رحلت عن الحياة قبل زواجي منها، طالبتني بشهادة وفاة زوجتي وأعطتني مهلة بعدها ستلجأ للقانون والكنيسة لأنني مدان أمام الاثنين . عدت إلى مصر وأنا أحاول أن أجد منفذاً للهرب من هذه الورطة ، الخوف كاد يقتلني من الفضيحة لو وصل الخبر إلى هنا بطريقة أو بأخرى وأنا رجل أعمال مشهور ، علاوة على أنني سأفقد زوجتي بأمريكا وابني الذي أصبح كل شيء في حياتي ، أبداً لم تتجه فكرة التخلص من زوجتي ماري إلى رأسي ، لكن لست أعلم أي شيطان ساق إلى رأسي مشاهد من فيلم كنت شاهدته منذ وقت طويل ، الزوج يدبر للتخلص من زوجته ، ركز الشيطان على هذا المشهد يكرره داخل عقلي على أنه المنفذ الوحيد ، أمام الخوف من العقاب والفضيحة وخسارتي لابنتي هنا وابني في أمريكا ، قررت التخلص من زوجتي ماري ، لأنني لو تخلصت من زوجتي هناك ستتجه الشكوك نحوي مباشرة علاوة على عشقي لها ، خططت أن أقتل ماري وبإغراء المال يمكنني أن أدفع الموظف الذي يقوم بتحرير شهادة الوفاة ليحرر تاريخاً قديماً عليها ، نفذت جريمتي لكنني منذ ذلك

اليوم وأنا أعيش في الجحيم فقررت أن آتي وأعترف فقد يخفف عني هذا العذاب ولكي تصلي لي من أجل المغفرة .
قال القس ميخائيل وهو يحاول أن يخفي نظراته التي تحمل كثيراً من المعاني :
_ سأصلي من أجلك ، لكن اعترافك لي لن يخفف من العذاب لأنه اعتراف منقوص ، يجب أن تكمله باعترافك أمام القانون !!.
قال نجيب العزيزي ونظراته الزائغة تحمل الأسف والندم على اعترافه للقس :
_ هل تريدني حقاً أن أعترف أمام القانون يا أبي ؟!! ، لقد قتلت زوجتي لأنني خشيت الفضيحة وعقاب القانون على زواجي بأكثر من واحدة في وقت واحد ، فهل تطلب مني أن أزيد عليهما بجريمة قتل ؟!! ، لقد اعترفت لك لأنني أعلم أن سر الاعتراف في المسيحية يحتم عليك ألا تبوح بكلمة واحدة يسرها في أذنك أي معترف مهما كان اعترافه يحمل من خطايا وذنوب !! .
_ نعم أعلم هذا ، ومن أجل هذا نصحتك أن تعترف بنفسك أمام القانون على فعلتك .
نهض نجيب العزيزي وقد ازدادت فوق وجهه ملامح الندم على حديثه مع القس ميخائيل قائلاً :

_ آسف يا أبي لن آخذ بنصيحتك ، وواجبك أن تصلي من أجلي .
قال القس ميخائيل ووجهه يحمل ملامح الأسف :
_ نعم وأعلم واجبي أيضاً.

****

كان القس ميخائيل ينظر إلى الأرض وهو يقف أمام قيادته الدينية يطلب تجريده من رتبته الكهنوتية والإعفاء من خدمته كقس ، دهشة بالغة بدت فوق وجه القيادة الدينية سائلاً :
_ لماذا أيها الأب ، ونحن لم نسمع عنك دائماً سوى كل خير ، وشعب الكنيسة التي تخدم بها يكن لك كل تقدير واحترام ، أي خطيئة تدفعك لكي تترك واجبك الديني ؟!! .
قال القس ميخائيل ونظراته لا ترتفع عن الأرض لكن صوته يقول إنه يحمل إصراراً لا عودة فيه عن مطلبه :
_ أرجوك يا سيدي ، لن أستطيع أن أبوح بشئ الآن ، لكن أعدك بأنني سآتي إليك طائعاً لأعترف أمامك بكل شيء وأنا خارج ملابس الكهنوت .
لم يُنهِ الحديث مع القس ميخائيل إلا بعد أن تأكد أنه لا عودة في قراره وأنه لن يستطيع أن يخرجه عن صمته للحديث عن أسبابه وقال :

_ موضوع كهذا يحتاج لأن أجتمع بالقيادات الدينية الأخرى لاتخاذ القرار .

_ أرجو أن يتم هذا سريعاً يا سيدي لأنني مصر على مطلبي ولا أريد أن أرتكب خطيئة كبيرة بالتخلي عن رتبتي الدينية من تلقاء نفسي .

****

أمسك ضابط الجوازات بمطار القاهرة بجواز سفر رجل الأعمال « نجيب العزيزي « وقال وهو يحدق في وجهه :

_ أنت ممنوع من السفر ولدينا أمر بالقبض عليك ؟

تداخلت ملامح الخوف فوق وجه نجيب العزيزي بالرغم من محاولة الصمود وقال :

_ لماذا أُمنع من السفر وبأي تهمة تلقون بالقبض علىَّ ؟

أجاب الضابط :

_ هذا ما ستعلمه أمام التحقيق .

لم يكن هناك مجال للمقاومة ، استسلم لمن يقوده إلى جهة التحقيق وهو يضرب أخماساً في أسداس ، الأمر مبهم في عقله تماماً ، بالتأكيد الموضوع خاص بمقتل زوجته ، لكن لا توجد أي أدلة على إدانته ، تبلجت الحقيقة كاملة أمام آخر شيء كان يتوقعه ، دهشة كادت تفقده رشده وهو يرى القس ميخائيل

يجلس في مكتب المحقق مرتدياً الملابس الإفرنجية متخلياً عن ملابسه الكهنوتية ، انتبه على صوت المحقق وهو يسأله :

_ أنت متهم يا سيد نجيب بقتل زوجتك « ماري لوكاس « فما أقوالك .

_ أعتقد أنني أدليت بأقوالي قبل سابق ، وبأنني كنت بعيداً عن مسرح الجريمة تماماً وقت حدوثها وأثبت وجودي بمدينة الإسكندرية وقتها .

_ نعم هذا ما حدث ، لكن السيد ميخائيل يقول بأنك اعترفت له بأنك قتلت زوجتك السيدة ماري لوكاس .

_ هذا غير صحيح ، وليثبت بالدليل صدق كلامه .

_ ما الذي يدفع قس أن يتخلى عن خدمته وهذا ليس بالشيء الهين بالنسبة لرجل دين ويأتي إلى هنا ليدلي إلينا بما سمعه منك ؟!

_ أنا لست مطالباً بتفسير سلوكيات الآخرين والسيد ميخائيل حر يفعل ما يشاء ، لكن هذا ليس له علاقة بأن أكون تحدثت معه فيما يدعيه.

_ نعم أعلم هذا ، فاعترافك الشفهي للقس ميخائيل بارتكابك الجريمة لا يدينك ، لقد أخبرنا السيد ميخائيل بأنك اعترفت له بانك حضرت من الإسكندرية بالقطار حتى لا تلفت الأنظار إليك ، ثم تسللت من الباب الخلفي للحديقة ثم الباب الخلفي

للقصر بالمفاتيح التي معك نسخة منها وأنت تعلم بأنه يوم الإجازة لمديرة المنزل ، ثم ارتكبت جريمتك وعدت إلى الإسكندرية في نفس الليلة بالقطار وأنت مطمئن بأنه لن يكتشف أحد فعلتك ، لكن يبدو أنك نسيت أنك قلت ضمن اعترافك للأب ميخائيل ، بأنك ذهبت لاستخراج شهادة وفاة لزوجتك ، وتمكنت من إغراء الموظف الذي سيحرر الشهادة بمبلغ خيالي لا يمكنه رفضه ليضع عليها تاريخ قديم لتثبت أن الوفاة حدثت قبل زواجك الثاني في أمريكا ، وبالذهاب إلى المكتب المختص باستخراج شهادات الوفاة ، وبفحص السجلات وتضييق الخناق على الموظف الذي حرر الشهادة ، اعترف بأنك رشوته بمبلغ كبير انهار أمامه وتم تزوير الشهادة ، ولم نلق القبض عليك وقتها وانتظرنا لعلمنا بأنك ستبادر للسفر إلى أمريكا ومعك الشهادة لتقدمها إلى زوجتك هناك ، وبالتأكيد الشهادة موجودة في الحقيبة التي معك الآن . بالعثور على الشهادة داخل الحقيبة وبمواجهته بالموظف انهار نجيب العزيزي واعترف بجريمته .

****

، أمـام إصـرار القيـادة الدينيـة التـي رأت أن مـا فعلـه يسـتوجب الاحتـرام وأن مقصـده لـم يكـن سـوى لخدمـة العدالـة ، اسـتجاب القـس ميخائيـل للعـودة إلـى رتبتـه الدينيـة وخدمتـه ، وعندمـا سـألته إحـدى الصحـف قـال : سـر الاعتـراف فـي الكنيسـة سـر مقـدس ، ولـم يكـن باسـتطاعتي الإبـلاغ عـن السـيد نجيـب العزيـزي وأنـا أرتـدي الملابـس الكهنوتيـة ، تنازلـت عـن خدمتـي كقـس لأؤدي واجبـي ، رجـل الديـن كمـا يحتـرم قانـون السـماء عليـه أيضـاً احتـرام قانـون الأرض التـي يعيـش فوقهـا ، وإرضـاء الضميـر هـو إرضـاء لله أيضـاً .

الفصل الثاني

****

كان واضحاً أن القلق يسيطر عليه ، يُرسل بين الوقت والآخر نظرة إلى الخلف ، وكأنه يخشى أن يكون هناك من يراقبه ، بالرغم من أنه أنهى إجراءات السفر وجلس في قاعة الانتظار، حتى يحين موعد انطلاق الطائرة المتجة إلى أمريكا ومنها إلى ولاية كاليفورنيا . بعض الاطمئنان بدا فوق وجهه عندما رفعت الطائرة مقدمتها لأعلى لتطير نحو السماء ، أطلق القس ميخائيل زفرة ارتياح طويلة وهو ينظر من خلف الطاقة الزجاجية المستديرة لتودع عيناه معالم القاهرة التي بدت كعلب تتناقص أصغر فأصغر كلما ارتفعت الطائرة ، أغمض عينيه ولم يفتحهما إلا على صوت المضيفة التي دفعت أمامها عربة تحمل الصحف ، تسأله عن جريدته المفضلة ، ابتسمت المضيفة عندما اختار أكثر من صحيفة ، قالت في داخلها إن السياسة أصبحت كالخبز اليومي للجميع حتى رجال الدين ، لكن القس ميخائيل في الحقيقة لم يكن هدفه ما جال بفكر المضيفة ، فهو لم يستغرق أكثر من دقائق في تصفحها جميعاً ، وكأنه يبحث

عن خبر ما ، ابتسم عندما لم يجد أي أشارة عن الخبر . أغمض عينيه مستغلاً توقف جاره عن الحديث ، حتى لا يعطيه فرصة لمزيد من أسئلة تكشف عن الفضول الزائد عن الحد .

****

المرة الأولى التي يذهب فيها القس ميخائيل إلى ولاية كاليفورنيا بالرغم من إقامة صديق عمره بها ، رجل الأعمال الشهير « حامد البستاني « ، ذهب إلى أكثر من ولاية ، ولديه ما يشده ويربطه بشدة إلى ولاية بنسلفانيا . اللقاء بينه وبين حامد البستاني كان يتم دائماً في ولاية نيويورك ، معلقاً بمزاح عندما يلومه على عدم زيارته بكاليفورنيا ، بأنه سيأتي اليوم الذي سيجده أمامه دون دعوة ، ويبدو أن هذا اليوم أتى . الأفكار تقتحم رأسه وتهرب ليأتي غيرها ، يحاول أن يمسك بفكرة محددة ويسير خلفها ، لكنها تبدو هلامية يصعب الإمساك بها فيطلقها ويحاول مع غيرها ، الهدف واضح أمامه لكن فكرة الوصول إليه غير واضحة حتى الآن ، قد يكون السبب أنه لم ينل كفايته من الراحة والهدوء بعد معاناة الأيام الماضية وتوتر أعصابه مع كل خطوة ، عليه أن يهدأ الآن ويرتب أفكاره ، قد يوفر له الهدوء داخل دار الضيافة الذي أفرده له القس « موسى

« راعي الكنيسة التي توجه إليها ما يمكنه من فرد أفكاره وانتقاء ما يمكنه من الوصول إلى هدفه ، لم يكن له سابق معرفة بالقس موسى ، لكن من المتعارف عليه أن تستقبل أي دار للضيافة ملحقة بالكنيسة الأباء القادمين من مصر وخاصة لو كان الغرض من الرحلة هو العلاج ، وهذا ما فهمه الأب موسى من القس ميخائيل ، لكن الدهشة تملكته عندما اعتذر القس ميخائيل عن مشاركته الصلاة في قداس الأحد ، وتضخمت الدهشة عندما عرض عليه في الأسبوع التالي واعتذر للمرة الثانية متعللاً بأنه مريض وتحت العلاج ، سأل الأب موسى مع بعض الدهشة :

_ وهل المرض يمنعنا عن الصلاة يا أبي ؟!

أجاب القس ميخائيل :

_ نعم يا أبي ؟

قال القس موسى وهو لا يخفي نظرة لوم بدت داخل عينيه :

_ الأمراض تقربنا إلى الله لا تبعدنا عنه يا أبي !!

أجاب القس ميخائيل بذكاء ليس بجديد عليه وقد تكون الإجابة مرتباً لها وليس وليدة التو واللحظة :

_ مرضي يمنعني من الوقوف في الأماكن المقدسة للصلاة .

هز القس موسى رأسه محاولاً أن يقنع نفسه ونهض مستأذناً

للانصراف لكن القس ميخائيل قال :

_ ألا تريد أن تعرف نوع المرض الذي يمنعني عن الوقوف في المكان المقدس لأقوم بواجبي كقس ؟!!

قال القس موسى وهو يشعر بالحرج :

_ أعذر إلحاحي ، فقط أردت أن آخذ بركة مشاركتك لي في الصلاة .

قال القس ميخائيل محاولاً أن يزيل أي دهشة أو لوم قد يكون علق بذهن الأب موسى :

_ للأسف يا أبي ، كما أخبرتك من قبل ، إنني حضرت إلى أمريكا للعلاج ، وأشكرك على حسن استقبالك وضيافتك ، ومن الواجب أن أعرفك بنوع المرض الذي جئت خصيصاً للعلاج منه في أمريكا ، بعد أن عجز الأطباء في مصر عن تشخيص علاج قاطع له . لقد أصبت فجأة بمرض التبول اللاإرادي ، وشدة الإصابة تتفاقم يوماً بعد يوم ، وأصبحت أعاني منها سواء كنت متيقظاً أو أثناء النوم ، وأنت تعلم أنه لكي أقف في المكان المقدس وأقوم بواجبي كقس يجب أن أكون نظيفاً ، وأنا لا أضمن هذه النظافة طوال فترة الصلاة ، ولهذا أعتذر لك عن مشاركتك ، ومنعنتني حساسية المرض أن أخبرك به من قبل .

تصاعدت الدماء إلى وجه الأب موسى وأحس أنه أخطأ خطأً

فادحاً واندفع نحو القس ميخائيل محاولاً تقبيل يده وهو يردد :

_ سامحني أيها الأب ، وأرجو التماس العذر لي ، لم يكن إلحاحي في مشاركتي الصلاة سوى خوف من أن تظن أنني لا أرحب بوجودك معنا .

قال القس ميخائيل وهو يربت فوق ظهر الأب موسى :

_ أشكرك أيها الأب ، أنا أعلم هذا ، وأرجو ألا تعاتب نفسك فأنت لم تجبرني على الإفصاح عن نوع مرضي .

غادر الأب موسى الغرفة ولا يزال بعض الخجل عالقاً بخطواته ، وعلى وجه القس ميخائيل ابتسامة عريضة فخورة بذكائه .

****

في ولاية بنسلفانيا تحركت سيارة تقودها سيدة من أمام البيت الفسيح الأرجاء ، داخل البيت كان الطفل صاحب الأعوام الثلاثة في رعاية المربية الفلبينية ، على الجانب الآخر من الطريق وفي مقابل البيت كانت ترابط سيارة يجلس خلف مقودها القس ميخائيل ، استأذن من الأب موسى قائلاً إنه سيذهب لزيارة بعض معارفه بولاية بنسلفانيا ، هبط سريعاً واتجه نحو المنزل ، دق الباب وفتحت المربية الفلبينية ، نظرة احترام بدت في عينيها ، اعتادت أن يأتي بعض الأباء لزيارة سيدتها ، أفسحت له الطريق عندما أخبرها أنه يعلم

أن سيدة المنزل بالخارج لأنه اتصل بها هاتفياً وأنها رجته أن ينتظرها لحين عودتها ، جلس في غرفة الضيافة سائلاً المربية أن تعد له كوباً من الشاي ، أسرعت المربية إلى المطبخ وهي تردد كلمات الترحيب ، نهض وأسرعت خطاه نحو غرفة المكتب فهو يعرف تفاصيل البيت بدقة ، أخرج مجموعة من المفاتيح من جيبه وفتح أحد أدراج المكتب ودس كل أوراق الطفل وأهمها شهادة ميلاده وجواز سفر استخرجه له بنفسه من قبل ، عاد إلى مجلسه وأتت المربية ومعها الطفل الصغير الذي اندفع بابتسامة كبيرة نحو القس ميخائيل فهو اعتاد أن يرى بعض الأباء الكهنة سواء في المنزل أو الكنيسة وأصبح لا يهابهم ، أمسك به القس ميخائيل ووضعه فوق ركبتيه وهو لا يتوقف عن تقبيله ، ازدادت الابتسامة على وجه الطفل وهو يتناول قطعة كبيرة من الشيكولاته من يده ، احتسى الشاي واستأذن المربية في اصطحاب الطفل إلى حديقة المنزل ليتمتعا بشمس ذلك اليوم لحين حضور سيدتها ، انشغلت المربية داخل المنزل ، تسلل القس ميخائيل خارج الحديقة ليلج بسيارته على الجانب الآخر وعلى ذراعه الطفل الذي رحب بالتهام الشيكولاتة بيد واللعب باليد الأخرى في لحيته ، تحركت السيارة سريعاً ، لم تمض أكثر من ساعة وكان يحلق هو والطفل فوق السحاب عائداً إلى كاليفورنيا .

عادت السيدة إلى المنزل ، ووجدت الخادمة الفلبينية وكأنها تعاني سكرات الموت ، تشكل وجه السيدة بكل حروف كلمات الجزع والخوف ، وهي تستمع إلى الخادمة عن القس الذي أتى وأخبرها بأن سيدتها طلبت منه الانتظار لحين حضورها ، وأن ملابسه الكهنوتية لم تدع الشكوك تقترب من رأسها ، وسمحت له باصطحاب الطفل إلى حديقة المنزل للاستمتاع بشمس اليوم الدافئة ، لكنها عندما خرجت لم تجدهما وبحثت عنهما في المنطقة المحيطة ، لكن الجارة القريبة منهم أخبرتها أنها شاهدت قساً يستقل سيارة كانت واقفة على الجانب الآخر ومعه الطفل . بين مكذبة ومصدقة لأقوال الخادمة كادت أن تخذلها قواها وتهوي إلى الأرض ، أسرعت نحو الهاتف لتستدعي الشرطة .

****

دق القس ميخائيل باب البيت الذي يبدو كقصر من القصور الأثرية ، فخامته تنبيء عن ثراء صاحبه ، فتحت الباب خادمة تكشف ملامحها الأسيوية أنها لا تجيد الحديث بالعربية ، ملابسه الغريبة والطفل الذي بيده أثارا دهشتها ، لكنه بادر بسؤالها عن مخدومها « حامد البستاني « ، دعته للدخول والانتظار حتى تخبر مخدومها ، نظرة دهشة لا تقل عن

الدهشة التي بدت في عيني الخادمة عندما وقع نظر حامد البستاني على القس ميخائيل والطفل الذي يجلس بجانبه ، أطلق بعض عبارات الترحيب وبدت فوق شفتي القس ميخائيل ابتسامة ، مر بعض الوقت لم ينبس خلاله أحدهما بكلمة ، إلا من نظرة مستطلعة من عين حامد البستاني يرسلها إلى وجه القس ميخائيل ، ازدادت الابتسامة فوق وجه القس ميخائيل ، وبحركة تبدو وكأنها عفوية أزاح العمامة من فوق رأسه ووضعها فوق المنضدة ، حدق حامد البستاني في وجهه ، نهض واقترب منه وكأنه لا يصدق ما يراه ، أرسل ضحكة ملأت القاعة وهو يردد مستحيل ، مستحيل ، نجيب العزيزي في ملابس قس ، آخر شيء يمكن أن يصلح لك ، نهض نجيب العزيزي وتعانق الرجلان ، تلاشت الدهشة بعض الشيء ، جلس الاثنان وقال حامد البستاني ضاحكاً :

_ ثلاث عجائب كل واحدة تفوق أختها غرابة ، نجيب العزيزي يرتدي ملابس قس ، والثانية المرة الأولى التي تحضر فيها إلى كاليفورنيا ، والثالثة هذا الطفل الذي أتيت به في يدك !! .

ضحك نجيب العزيزي قائلاً :

_ لن أدعك للعجب كثيراً ، ملابس القس هي المخرج الوحيد الذي كان أمامي ، وسأحكي لك بالتفصيل كل شيء ، ووجودي

في كاليفورنيا تعليله أن للظروف أحكاما وستعرفها أيضاً ، أما هذا الطفل الجميل فهو ابني من زوجتي « لوسي الصنباوي « بنت رجل الأعمال « هاني الصنباوي « التي تزوجت بها هنا .

قال حامد البستاني وفوق وجهه خطوط من الأسف :

_ أعتقد أنني فهمت بعض الشيء لكن هذا لا يمنع أن أستمع إلى التفاصيل ، لا أنكرك أنني أسفت على ما سمعته وقرأته بالصحف على ما فعلته بزوجتك الطيبة ، لقد رأيتها مرة واحدة أثناء زيارة لها لأمريكا ، وقرأت على وجهها أكثر بكثير من الإشادة بها التي جاءت بالصحف .

قال نجيب العزيزي بصوت يحكمه الأمر الواقع وشيء من الندم :

_ وأنا لا أنكر أنني أسفت أنا أيضاً ، يد الشيطان دفعتني دفعاً للقيام بفعلتي التي ندمت عليها بعد ذلك ، أعترف بأنني كنت أود ألا تنكشف جريمتي على اعتبار أن ما حدث قد حدث ، ولن يفيد بشئ حبل المشنقة الذي كاد أن يلتف حول عنقي بعد إبلاغ القس ميخائيل عن اعترافي له ، مفضلاً أن يتخلى عن خدمته كقس على الصمت من مبدأ أنه لا يجوز إخراج سر من يعترف على يديه ، لكن المحامي تمكن من تحويل حكم الإعدام إلى السجن المؤبد .

_ ما أراه أمامي يقول إن ملابس القس هي التي مكنتك من الهرب

، وأيضاً أنه لا يزال برأسك بعض الخطط التي قد تكون مخالفة للقانون ، فلا أعتقد أن زوجتك أسلمتك الطفل بمحض إرادتها !! .

_ ما تقوله هو الحقيقة ، لكن دعني أنقل إليك ما حدث بالضبط يا صديقي العزيز ، أنت الوحيد الذي أثق به الآن ، إلا إذا سلكت مسلك القس ميخائيل ، هو تجرد من ملابسه الكهنوتية وأبلغ عني ، وأنت تتجرد من صداقتنا الطويلة وتكرر ما فعله القس ميخائيل .

قال حامد البستاني وفوق وجهه ابتسامة حزينة :

_ أَلتمس العذر للقس ميخائيل ، من المؤكد أن ضميره انشق بين أمرين ، إما أن يصمت من مبدأ أن واجبه الديني يحرم عليه البوح بأي سر لمعترف على يديه ، وإما أن يضحي بخدمته الدينية ليبلغ عن فعلتك ويريح ضميره ، واختار أن يكون هو الخاسر لإرضاء ضميره وتنازل عن رتبته الدينية ، لكن بالنسبة لي فاطمئن ، الصداقة التي قاربت الأخوة بيننا ستقف كمصد أمام أي تفكير قد يؤذيك ، وأيضاً أنا لست ناكراً لوقوفك بجانبي وقفة الأخ عندما كنت على وشك الإفلاس ، ومساندتك التي لا تقدر بثمن حتى عدت إلى ما كنت عليه وأكثر ، فقط أرجوك أن تتريث في خطواتك ولا تكن مندفعاً فتؤذي نفسك قبل أن تؤذي غيرك .

قال نجيب العزيزي :

_ دعني أولاً أُسمعك ما حدث بالضبط حتى وجودي أمامك الآن . القس ميخائيل حكم عليَّ بالسجن المؤبد عندما أبلغ عني ، نعم هو الذي حكم عليّ ، كان من المستحيل توجيه التهمة لي بعد أن أثبت وجودي بالإسكندرية ليلة وقوع الجريمة ، هذا علاوة على أنه لم تتجه الشكوك نحوي مطلقاً .

_ القس ميخائيل قام بواجبه .

_ واجبه الديني يعفيه من هذا الواجب ، ليس من حقه كرجل دين أن يبلغ عني بعد اعترافي له .

_ لهذا ضحى تضحية كبيرة وتخلى عن رتبته الدينية ليتمكن من الإبلاغ عنك .

_ ولماذا إذا كان في حل أن لا يفعل هذا ؟! .

_ هل نسيت ضميره الإنساني وحق المجتمع الذي يعيش فيه والقانون الذي يلجأ إليه للحصول على حقه فهو مطالب أيضاً أن يقوم بواجبه نحوه ، لا تتضايق من قولي ، إن القس ميخائيل تصرف بصواب ومثالية لا توجد عند الكثيرين ، ولهذا كما أخبرتني أعادته القيادة الدينية إلى خدمته مثنية على ما فعله .

ضحك نجيب العزيزي قائلاً :

_ يبدو أنني سأحتاط لنفسي منك فقد توشي بي أنت أيضاً .

ضحك حامد البستاني بدوره قائلاً :

_ لا ، لا تخشاني ، لقد خالفنا ضمائرنا كثيراً في عالم رجال الأعمال ، ولن يضير الضمير مخالفة أخرى .

قال نجيب العزيزي :

_ السؤال الذي تحول أمامي إلى علامة استفهام في حجم جبل من المرارة ، ماذا ستفيدك يا نجيب كل أموالك ومشاريعك وأعمالك ؟! في كل مكان أموال في البنوك بجميع أنواع العملات ، بماذا ستفيدك بعد خمسة وعشرين عاما ، ستقضيها خلف القضبان مهما هيأت لك أموالك من معيشة كريمة داخل السجن ؟! ستخرج إلى العالم وأنت متهدم ، حتى الأسنان ستفقدها فلا تستطيع أن تأكل في أكبر المطاعم العالمية التي اعتدت عليها ، ماذا سيتبقى لك من سنوات العمر ، الأفكار السوداء عن النهاية أسدلت ستاراً قاتماً أمام عيني ، خسارة بالجملة ، الأسرة في مصر وفي أمريكا ، والمال المبعثر بين البنوك والمشاريع والأعمال ، والشهرة والمجتمع ، النزوات التي كانت كمشهيات جميلة على مائدة الحياة ، كل هذا ضاع ولم أعد سوى نزيل زنزانة و بدلة السجن الزرقاء ، حتى اسمي تلاشى ولم أعد سوى رقم داخل أسوار لن أتخطاها إلى بعد أن تصبح العصا ساقاً ثالثة لي .

قال حامد البستاني ضاحكا :

_ وبالتأكيد كل هذا الفكر أورق بداخلك وامتدت أغصانه ، وأثمر عن فكرة الهرب لتنقذ نفسك من الموت وأنت حي داخل زنزانة حتى لو كان قضبانها من ذهب .

أجاب نجيب العزيزي وهو يهز رأسه مبتسماً :

_ أعتقد أن هذا هو نفس تفكيرك لو كنت مكاني ، قد تختلف الظروف ، أو الأسباب ، لكنني متيقن من أن معظم الذين يعملون في المال ، لا يستسلمون لقصقصة أجنحتهم التي يطيرون بها في كل اتجاه ، ولا يبخلون على بقاء ريشها بأي ثمن . وهذا ما حدث معي . الأسبوع الأول داخل الزنزانة كنت أنظر كل يوم في المرآة ، وأبدأ بضحكة وأنا أقارن صورة رجل الأعمال وهو يرتدي أحدث الأزياء العالمية وصورة السجين ببدلته الزرقاء ، ثم تتقلص خطوط الضحكة وتنكمش ، وتنقلب السخربة إلى ألم يعتصر قلبي بيد من حديد ، ودموع نارية أحسها تحفر طريقاً فوق وجهي وتتساقط فوق أرض الزنزانة الإسمنتية ، ليست دموع الندم على ما اقترفته يداي ، فلقد اعتدت على مبدأ ما حدث قد حدث ولا سيما لو كان لا سبيل لإرجاعه ، دموعي لم تكن سوى رفض لواقع وصورة رجل الأعمال الشهير السجين خلف خمسة وعشرين

عاماً ، رفضت أن أكون ضحية للشيطان الذي دفعني لقتل زوجتي ففقدت هي الحياة وأفقد أنا حريتي ، نعم ضعفت أمام وسوسته وقتلت زوجتي ، لكن لن أضعف أمام نتائج فعلتي وأستسلم وأدعه يخرج لي لسانه كلما نظرت في المرآة ، بدأت مشاوراتي مع مدير أعمالي الذي أثق به ثقة عمياء ، ويدين لي بكل طاعة ، قد تكون طاعة وليدة الشبع من كل خيرات الدنيا الذي غرق فيه هو وأسرته من وراء العمل معي ، يساعده على ذلك ضمير قابل للاتساع دائماً ، وليس لديه مانع من أن يتسع لجميع الأعمال شرها قبل خيرها حتى لا تنقطع عنه حلاوة الخيرات ، وكلت إليه إغماض عين كل من بالسجن بداية بالبوابة إلى أكبر مكتب به ، والمقابل تعاطف الجميع معي كمظلوم أتى خطأ إلى هذا المكان ووجب الترفيه عنه ، مدير أعمالي كان يأتي في أي وقت لزيارتي محملاً بالخيرات لي ولهم ورشوة مالية لا يستهان بها توضع على مكتب الريس الكبير، هذا الرجل يحمل من الذكاء الداهية الكثير وإلا ما كان صمد في موقعه معي .

الفصل الثالث

****

يقولون الطيور على أشكالها تقع ، نجيب العزيزي وقع على مدير أعمال من نفس طينته ، او العكس مدير الأعمال وقع عليه وتقبل العمل معه بنفس أسلوبه ، ذات يوم وفي زيارة معتادة لمدير الأعمال لنجيب العزيزي وهو بين جدران السجن المرفهة لأبعد الحدود ، مال نحو أذنه قائلاً :

_ على ماذا عولت ياريس ؟

أجابه وعلى وجهه ابتسامة يفهمها مدير الأعمال جيداً :

_ هل سمعت عن المثل القائل « وداوها بالتي كانت هي الداء « قال مازحاً :

_ نعم ياريس ، هذا المثل قيل عن الخمر ، فهل أحضر لك زجاجة من الويسكي معي المرة القادمة !! .

عاد إلى ذهني صورة القس ميخائيل بملابسه الإفرنجية عندما ذهب للإبلاغ عني وقلت :

_ نعم ، زجاجة الويسكي هي القس ميخائيل ، هو الداء الذي ابتلاني بمرض السجن طوال حياتي داخل زنزانة ، وسيكون هو

الدواء أيضاً الذي يدواي هذا الداء وكل ما ستأتي به فترة النقاهة .
سأل مدير الأعمال وقد بدت الكلمات صعبة الاستيعاب رغم ذكائه الشيطاني :
_ هذه صعبة على فهمي يا ريس ، ابسطها حتى يسهل علىَّ قراءتها .
قال العزيزي وقد بدأ عقل رجل الأعمال يخطط :
_ أول شيء هو الحصول على جواز سفر القس ميخائيل دون أن يعلم وهذه أول مهمة لك ، وسأساعدك بالتوجيه لطريقة التنفيذ ، أنا أعلم أن القس ميخائيل يسافر إلى الخارج دائماً ، فمن المؤكد أن لديه جواز سفر ، وهو بالتأكيد يحتفظ به في منزله ، وأيضاً بالتأكيد يكون بالكنيسة هو وأسرته كل يوم أحد ، يمكنك استغلال هذه الساعات وتكلف من يسرق جواز سفره ، وتنفذ ما سأقوله بالضبط . تكلف أحد محترفي تزوير الأوراق وأعلم أنك تعرفهم جميعاً لأننا نلجأ إليهم في بعض الأحيان ، بنزع صورة القس ووضعها على جواز سفر مزيف ثم تعيده إلى منزل القس حتى لا يفطن لغياب جواز السفر الحقيقي ، وأعتقد أنك فهمت الآن الإجابة عن سؤالك لماذا أطلقت لحيتي ، عندما سأهرب من السجن سأجدك قد أعددت لي ملابس قس سأتصور بها وستكون هي صورتي

التي ستوضع على جواز سفر القس ميخائيل . وأرجو أن تنتهي مما كلفتك به سريعاً لكي ننتقل إلى الخطوة التالية ويجب أن تتم بأقصى سرعة . الخطوة التالية الهروب من السجن ، وفي الحقيقة لم يكن هروباً بالمعنى المفهوم ، بل خروج من الأبواب المفتوحة ، بالتأكيد لن يهبط ذكاؤك وتسألني كيف ؟!، وأنا وأنت نعتنق نفس الفكر ، بأن لكل مسئول فقد ضميره ثمنا يبدأ من سيجارة ويمتد إلى حزمة من أوراق البنكنوت عدد أصفارها يتوقف على من هو المسئول ، وما هي الخدمة التي سيقدمها ، ومهمة مثل هذه يجب أن يخصص لها عدد من الأصفار يسيل لها لعاب أي ضمير يدعي أنه متحصن خلف باب الشرف الحديدي ، فما بالك بالضمائر التي فمها مفتوح دائماً وغير قابل للغلق . تمت الاتفاقية بالفعل عن طريق مدير أعمالي ، وكان من ضمن بنودها أن أغادر البلد بوسائلي الخاصة ولا أعود ثانية ولا أدع أحدا يعلم بهروبي. بعدها تمكنت من السفر متخفياً في ملابس القس ميخائيل وجواز سفره دون أن يعلم . سأل « حامد البستاني « ونظراته تنتقل بين نجيب العزيزي والطفل :

_ وأنا أسألك بدوري مثل مدير أعمالك ، بعد نجاحك

فـي الهـرب ، واختطافـك لطفلـك علـى مـاذا عولـت ؟ قـال نجيـب العزيزي وداخل عينيه النظـرة التي مكنته من الصمود أمـام صراعـات عالـم رجـال الأعمـال حتـى أصبـح مـن كبـاره :

_ لا يـزال أمامـي الكثيـر ، قـد يكـون طرفـاً منهـا وليـس كلهـا ، تصفيـة حسـابات مـع هـذا الفضولـي الـذي نبـش خلفـي فـي مصـر متطوعـاً وأبلـغ زوجتـي وأهلهـا بأمريـكا عـن زواجـي بمصر ، والثانـي القس ميخائيـل الـذي أبلـغ عنـي وكان بيده ألا يفعـل ، والثالـث زوجتـي « لوسـي الصنبـاوي « التـي هددتنـي بتقديمـي للقانـون وحرمانـي مـن طفلـي إذا لـم أثبـت كمـا أخبرتها كاذبـاً بعـد افتضـاح زواجـي فـي مصـر بـأن زوجتـي ماتـت قبـل زواجـي منهـا ، وكانـت هـذه بدايـة تحالفـي مـع الشـيطان علـى قتـل زوجتـي « مـاري « . هـذا عـلاوة علـى التفكيـر كيـف أواجـه ابنتـي ليليـان التـي أنجبتهـا مـن زوجتـي مـاري ، وأحـاول أن أجعلهـا تسـامحني علـى جريمتـي ، لـم أرهـا منـذ أن ودعتهـا بالمطـار عقـب وفـاة أمهـا لتلحـق ببعثتهـا ، وبالتأكيـد عرفـت بـكل تفاصيـل جريمتـي ، مـن الصحـف ، أود لـو تمكنـت مـن الحصـول علـى صفحهـا ، وتقبـل أن تعيـش معـي هـي وأخوهـا .

قال حامد البستاني ناصحاً :

_ لمـاذا لا تتـرك مسـألة تصفيـة الحسـابات هـذه التـي قـد تجـرك

إلى مشاكل أكثر ، لقد نجحت في الهرب من السجن ومن مصر ولم يكتشف الأمر حتى الآن ، فلماذا تفتح الأبواب لمزيد من المشاكل ، أرى من وجهة نظري كصديق وأخ أن تفكر كيف تعيش بعيداً عن المشاكل أفضل ، وما ذنب زوجتك (لوسي الصنباوي) كي تحرمها من طفلها ، مع أنني فهمت من حديثك أنك لا تزال تحبها ، ألم تفكر بدلاً من خطف ابنكما أن تحاول أن تكسب ودها وتقنعها أن تصفح عن كذبك وجريمتك ، على اعتبار كما تقول إن ما حدث قد حدث ، وأنه من الأفضل أن تنسيا ما مضى من أجل طفلكما ؟

حلقت نظرات نجيب العزيزي في سقف القاعة ، خرجت من خلال باب الشرفة المفتوح إلى الفضاء الرحب وكأنه يبحث عن أماله التي انهارت جميعها كبنيان متهالك ، عادت وتركزت بأسف على وجه طفله وكأنه يطلب المغفرة من برائته لحرمانه من أمه ، هز رأسه وكأنه عاد لتوه من رحلة بعيدة ، تحول نظره نحو حامد البستاني وقال :

_ أُمنية أعلم أنها صعبة التحقيق إن لم تكن مستحيلة ، فالموضوع في نظر لوسى الصنباوي ، يحمل أكثر من خطيئة ، فهي أحبتني وتزوجت بي رغم فارق العمر الكبير بعد أن رفضت الكثيرين من ذوي المراكز الذين تقدموا

لها وحاولوا خطب ودها ، وكذبي عليها في إنكار زواجي جريمة كبرى في نظرها تحمل الخديعة والخطيئة الدينية ، فزواجي منها بهذه الطريقة يعتبر زواجاً باطلاً ، وهذا الطفل من الناحية الدينية أنجبناه في الحرام ، ثم جريمة قتلي لزوجتي من المؤكد وضعتني أمامها في إطار محكم من الإجرام ، وأصبحت في نظرها المجرم الذي لا يؤتمن ، ومن قتل زوجته بعد هذه العشرة الطويلة من الممكن أن تسول له نفسه بقتل زوجته الثانية , الأمور كلها معقدة يا صديقي ، ولا أرى فيها منفذاً للهرب ، هروبي من السجن ومن مصر أسهل بكثير من الهرب منها !! .

قال حامد البستاني مبتسماً :

_ ولهذا نصحتك أن تُلقي بأفكار الانتقام جانباً ، وتركز تفكيرك في كيفية إصلاح هذه الأمور على قدر الإمكان ، كل مشكلة ولها حل ، قد لا تصل إلى كل ما تنشده ، لكن على الأقل ستتمكن من أن تُجبر بعضها ، ونصيحتي الثانية أن تهدأ حتى تبدأ رأسك في العودة إلى رأس رجل الأعمال الذكي الذي وقف بجانبي بكل عقله وإمكانياته حتى استعدت مكانتي أكثر من الأول ، وجاء دوري لكي أرد لك حتى ولو بعض الجميل الذي طوقت به عنقي . فقط أرشدني أو مرني ماذا يمكن أن أقدم لك .

قال نجيب العزيزي وفي عينيه نظرة مودة :

_ أشكرك يا حامد ، فقط الآن أريد منك أن يظل الطفل معك وأن تعتني به المربية ، لأنني يجب أن اعود إلى الأب موسى حتى لا أثير قلقه وربما شكوكه . سأمكث معه يوما أو اثنين ، ثم أخبره بأنني عائد إلى مصر ، وسأحضر للإقامة معك ، بصفتي نجيب العزيزي ، لأنني لست في حاجة للتخفي في ملابس القس ولا لجواز سفر القس ميخائيل ، فلقد أديا مهمتهما للخروج من مصر ، وأنت تعلم أنني أمتلك جواز سفر أمريكي وما سحب مني عند القبض علىّ في مصر هو جواز السفر المصري ، وكذلك طفلي حرصت أن أحصل على جواز سفره وشهادة ميلاده عندما ذهبت لإحضاره ، والشي الأهم أنه حتى لو انكشف أمر هروبي في مصر لا توجد اتفاقية مع أمريكا لتسليم إلهاربين . وللعلم سأحتاج إليك كي تساعدني في خطوتي التالية ، لا أحد يمكنه القيام بها سواك .

قال حامد البستاني باهتمام بدا على ملامحه :

_ يسعدني أن أقدم لك أي مساعدة مهما كان الثمن ، لكن أرجو أن تضع نصب عينك مشكلة زوجتك « لوسى الصنباوي « فلو علمت بأنك هنا وأنك أنت الذي اختطفت ابنك الذي هو ابنها أيضاً ، يمكن أن تجد نفسك في جحيم

لا يمكنك الخروج منه ، فهذه جريمة لا يستهان بها في أمريكا قد تزج بك في السجن لسنوات لا يعلمها سوى الله .

قال نجيب العزيزي ووجهه يجمع بين الاهتمام والتفكير :

_ أعلم هذا وهذه هي الخطوة الثالثة ، وحتى الآن لم أحسب حساباتها .

قال حامد البستاني وعلى وجهه شبه ابتسامة :

_ سؤال فضولي ، ما تعليق عائلتك في مصر على هذه الأحداث ؟

_ عائلتي لم يبق منها أحد تقريباً في مصر ، الجميع هاجروا إلى أستراليا وكندا ، ساعدت معظمهم في إنهاء إجراءات هجرتهم وضمنتهم جميعاً ، فمعظمهم يعمل في شركاتي سواء في أستراليا أو كندا ، وحضر أكثر من واحد منهم يعملون بالمحاماة للمشاركة في الدفاع عني في هذه القضية ، لكن التهمة كانت يحكمها الحصار ببلاغ القس ميخائيل ، واعتراف الموظف الذي حرر شهادة الوفاة المزورة وضبطها معي عند محاولة سفري من مصر . لكنهم نجحوا في تحويل حبل المشنقة إلى الحكم بالسجن المؤبد ، وأعتقد أنه سيكون أمامي الوقت للسفر إلى أستراليا وإدارة أعمالي من هناك قبل أن تتمكن زوجتي من إثارة الزوابع عندما تعلم بأن الطفل معي .

قال حامد البستاني وهو يداعب شعر الطفل سعيداً به :

_ إذاً ستكون هذه الدمية لعبتي منذ الآن ، ثم ضاحكاً ، أنا لم أتزوج وأخشى أن أطمع فيه .

نهض نجيب العزيزي لإتمام مهمته مع الأب موسى قائلاً :

_ اطمع كما تشاء ، أنا أعلم بأنك ستكون بمثابة أب ثان له .

****

نترك كاليفورنيا ونجيب العزيزي وحامد البستاني والطفل ، ونذهب إلى بنسلفانيا ، وبالتحديد منزل « لوسي الصنباوي « زوجة نجيب العزيزي ، المنزل من الداخل ممتلئ بعلامات الاستفهام المرتسمة فوق أوجه أفراد عائلتها ، الذين أسرعوا إلى هناك بمجرد مهاتفة مختنقة بالبكاء تلقاها والد لوسي من ابنته عن اختطاف حفيده الذي كان متيماً به ، طار الخبر إلى العائلة كلها ، تسابق الجميع إلى هناك ، كل يجري اتصالاته للإمساك بطرف خيط يقود إلى الفاعل الآثم وإنقاذ الطفل ، أكثر من سيارة شرطة تقف أمام المنزل وأنوارها تلف وتدور وكأنها تشارك في البحث . جاءت الأخبار سريعاً من استعلامات المطار بأن قسا يدعى ميخائيل صبحي وبصحبته طفل يدعى بيتر عزيز غادرا بنسلفانيا على الطائرة المتجهة إلى مطار سان فرانسيسكو . تسرب بعض الأمل إلى قلب لوسي الصنباوي ودق من جديد

بعد أن كاد أن يتوقف ، انتهت المناقشات على أن تسافر مع أبيها على طائرته الخاصة إلى سان فرانسيكو في اليوم التالي ، وأن البحث يمكن أن يبدأ بالسؤال عن الكنيسة أو الكنائس الأرثوذوكسية الموجودة ، فقد يكون لديهم بعض المعلومات عن القس ميخائيل صبحي والطفل . توصلا بعد السؤال في عدة كنائس مبعثرة في أرجاء المدينة ، إلى الكنيسة التي يخدم بها القس موسي ، توجها إلى هناك سريعاً وتقابلا معه الذي أكد لهما أن القس ميخائيل صبحي بالفعل كان ضيفه وأنه أيضاً سافر إلى بنسلفانيا في نفس اليوم الذي تم فيه اختطاف الطفل ، لكن تأكيده أيضاً أنه عندما عاد لم يكن معه أي أطفال كاد يودي بأعصاب لوسي ، وزاد عليها أن القس ميخائيل صبحي لم يكن هناك ، وحسب قوله أنه عاد إلى مصر لإكمال علاجه من مرضه هناك ، ربت الأب فوق ظهر ابنته مطمئناً بأنه في الغد سيسافران خلفه إلى مصر وهناك سيتوصلان إلى الحقيقة .

****

لم يعد نجيب العزيزي إلى مصر كما أخبر القس موسى ، لكنه عاد إلى قصر صديقه حامد البستاني ، وأزال لحيته وعاد إلى رجل الأعمال نجيب العزيزي ، ضحك حامد البستاني قائلاً :

_ أخشى أن تعجبك اللعبة ، وأراك المرة القادمة في ملابس الشيوخ .

قال نجيب العزيزي ضاحكاً :

_ لو كان الذي تسبب في سجني شيخ كنت سأهرب بملابسه وجواز سفره ، وعموماً الشيخ والقس لو تبادلا عمامتيهما لما أمكنك التفريق بينهما .

_ صدقت ، الجميع بشر ، متماثلون من حيث التكوين في كل شيء ، ولا توجد علامة تميز أصحاب معتقد على الآخر . والآن ما هي أول مهمة ستكلفني بها ؟

_ مهمة صعبة جداً ، لا يصلح لها سوى أنت ، أنت رأيت ابنتي من قبل أكثر من مرة ، عندما كنا نتقابل في نيويورك وكانت هي بصحبتي ، وكما أخبرتك هي الآن في بعثة دراسية بجامعة هارفارد ، لم أرها منذ أن ودعتها بالمطار بعد وفاة أمها ، أي لم أتقابل معها بعد أن علمت بجريمتي ، لم تحضر إلى مصر بعد نشر الخبر في وسائل الإعلام ، وقد يكون السبب رهافة مشاعرها ، أعلم أنها قاست آلاماً مبرحة ، فقدت الأم والأب في آن واحد ، أمل يبدو لي كنجمة في السماء يمكنك أن تنظر إليها وتراها من بعيد لكن لا يمكن الإمساك بها ، أن تغفر لي وتقبل

أن تعيش معي ومع أخيها الصغير الذي لم تره من قبل ، أعلم صعوبة الفكرة لكن البصيص الوحيد لشعاع الضوء فيها أنها بالرغم من أنها صورة من أمها إلا أنها تحبني جداً بالرغم من علمها بالطريق الذي أسلكه ، إنها متدينة جداً مثل والدتها ، وهذه النقطة كما يقولون سلاح ذو حدين ، إما ستنظر لي على أنني شيطان رجيم يجب الفرار منه ، وإما ستفتح باب المغفرة والصفح ، وبين هذه وتلك ، أحتاج إليك لتتقابل معها وتحدثها بدبلوماسيتك التي لا يشق لها غبار ، ولو نجحت أن تقنعها بالحضور إلى هنا بعد أن تكون مهدت لي الطريق للحديث معها ، ستكون خدمة كبيرة أديتها لي ، ولا أعتقد أنها لو علمت بوجودي أنها ستقوم بالإبلاغ عني ، أمنية بالنسبة لي أن تقنعها بالحضور معك .

قال حامد البستاني وخطوط ترسم على وجهه جسامة المهمة التي كُلف بها :

_ أتمنى أن يتحقق هذا ، ولو أن الموضوع يفوق دبلوماسيتي بكثير ، لكن أتمنى أن أخفف اللون الأسود على قدر الإمكان الذي من المؤكد أنه أصبح ماثلاً أمام عينيها بعد موت والدتها وذهابك إلى السجن .

****

بادرته دون مقدمات بسؤالها :

_ أين الطفل يا أبي ؟

نظر القس ميخائيل صبحي نحو السيدة الصغيرة التي يراها لأول مرة وبرفقتها رجل يبدو أنه والدها وأجاب بدهشة :

_ أي طفل يا ابنتي ؟!

أجابت بلهجة حاولت أن تكسبها نعومة :

_ طفلي الذي اختطفته من منزلي ببنسلفانيا .

ملامح غاضبة بدت على وجه الأب ميخائيل محاولاً أن يستوعبها ولا تندفع مع نبرات صوته :

_ وهل سمعت يا ابنتي قبل ذلك أن قساً احترف اختطاف الأطفال ؟!

تدخل الأب سريعاً وقال بلهجة معتذرة :

_ أرجو المعذرة يا أبي ، فهي في حالة غير طبيعية ، منذ أن اختطف طفلها ، هل تسمح لنا بأن نجلس معاً في غرفة منفردة لنتحدث في هذا الموضوع .

قال القس ميخائيل محاولاً أن يخفي دهشة شملته :

_ بالتأكيد ، تفضلوا إلى الاستراحة .

استمع القس ميخائيل صبحي دون مقاطعة وفاجأهم بقوله :

_ هل تعلما أنني القس الذي أبلغ عن جريمة نجيب العزيزي .

هواجس اندفعت إلى رأس لوسى بعد سماعها هذه

المعلومة التي كانت تجهلها ، مفكرة بأن هذا القس كان طرفاً في هذه الأحداث ، فلماذا لا يكون هو المختطف لسبب أو لآخر تجهله ، فالموضوع منذ البداية يثير الدهشة والتعجب ، حاولت أن تهضم هواجسها ، لكن الذي لم تستطع أن تتغلب عليه دموع فك حبسها فهطلت تطارد بعضها ، ربت القس ميخائيل على ظهرها قائلاً :

_ لا تخافي يا ابنتي سيعود ابنك بإذن الله ، لكن أرجو أن تبعدي تفكيرك تماماً عما تتخيليه من أنني لي دور في اختطاف ابنك ، أنا لم أذهب إلى أمريكا منذ عامين ، وتفضلا معي إلى منزلي فأنتما ضيوفي اليوم ، وفرصة كي أريكما جواز سفري ، وآخر تأشيرة ذهاب إلى أمريكا .

قال هاني الصنباوي محرجاً :

_ أعتذر للمرة الثانية يا أبي ، عن سوء الفهم ، وفي الحقيقة ما أثار دهشتنا ، أن تذكرة سفر الطائرة التي غادر بها مختطف الطفل بنسلفانيا عائداً إلى سان فرانسيسكو كانت باسم القس ميخائيل صبحي ، وبالاستعلام في كاليفورنيا من خلال الكنائس هناك توصلنا إلى الأب موسى الذي أخبرنا أيضاً بأنه استضاف قسا باسم ميخائيل صبحي في مضيفة الكنيسة كان في فترة علاج ، وأنه عاد إلى مصر

، وأنا الآن متأكد بأن شيئاً غامضا يدور حول الموضوع .
قال القس ميخائيل مفكراً :
_ بالضبط كما تقول ، شيء غامض في هذا الموضوع ، وما يثير عجبي ويدعو إلى الدهشة ، أن الطرف الوحيد الذي يمكن أن يكون له يد في هذا الاختطاف هو نجيب العزيزي ، لكنه الآن موجود في السجن ، وبفرض أنه بحكم علاقته كرجل أعمال ، تمكن من تكليف أحد رجاله ليلعب هذا الدور ، ما الذي سيعود عليه من خطف ابنه وهو سيقضي خلف القضبان خمسة وعشرين عاماً ، أليس الأفضل بالنسبة له أن يبقى الطفل مع أمه ، إنه حقيقةً شيء محير .

****

وصف رجل الأعمال هاني الصنباوي الموقف بأن الغموض يلفه وقال القس ميخائيل إنه شيء محير ، لكن الغموض والحيرة أفلتا من حدودهما وأعلنا سيطرتهما على الموقف كله ، القس ميخائيل أصابه الذهول وهو يمسك بجواز سفره ليطلع هاني الصنباوي وابنته لوسي على تأشيرة أمريكا التي مضى عليها أكثر من عامين ، لكنه فوجيء بأن الجواز خال تماماً من أي أختام أو تأشيرات ، ردد بصوت مرتعش بأن جواز السفر الذي بيده مزيف لكن كيف ؟

الفصل الرابع

****

دارت عينا القس ميخائيل صبحي تتفحصان صفحات جواز السفر الخالية من أي أختام أو تأشيرات ، عقله لا يريد أن يستوعب الحقيقة الماثلة بين يديه ، الصورة صورته ، نفس الصورة التي كانت ملصقة على جواز سفره ، لكن جواز السفر وأوراقه مزيفة ، تلاقت نظراته مع نظرات هاني الصنباوي وابنته لوسى ، تشابكت في خيوط لا تجد من يحل عقدها ، بدأت الأسئلة التي لا تجد لها جواباً تتسابق إلى ألسنتهم في وقت واحد ، قال القس ميخائيل وخلف كل كلمة تقف علامة استفهام وتعجب :

_ نجيب العزيزي في السجن ، فمن له مصلحة في سرقة جواز السفر واستبداله بآخر مزيف؟! ، ومن الذي اختطف ابنك ؟! ، إلا إذا كان كلف رجاله هنا وفي أمريكا ، لكن يبقى السؤال الحائر ، لماذا وهو يعلم أنه سيقضي طوال عمره تقريباً خلف القضبان ؟! ، صمت قليلاً ثم تابع قائلاً : أعتقد أنه لن يجيب عن هذه الألغاز سوى نجيب العزيزي نفسه ، سأذهب لزيارته

في السجن وأحاول أن أدفعه للاعتراف إن كان هو الذي دبر لاختطاف ابنك ، أشك في مدى استجابته لأنه بالتأكيد يحمل لي ضغينة بعد أن أبلغت عنه ، لكن لابد من المحاولة .

قالت لوسي الصنباوي متلهفة :

_ دعني أذهب معك يا أبي فقد أستطيع أن أستعطفه ليعيد لي ابني .

وقال هاني الصنباوي :

_ نعم يجب أن نذهب جميعاً ، علاقتي به كانت طيبة قبل هذه الأحداث ، ولم أتقابل معه بعد حدوثها ، أي أنه لم يحدث بيننا ما يسيء لهذه العلاقة ، وقد تكون هذه نقطة إيجابية ، لدفع النخوة إلى داخله ، ويعيد حفيدي ، لو كان هو المدبر لاختطافه .

قال القس ميخائيل وهو يهز رأسه بطريقة توحي بشكه في جدوى هذه الزيارة :

_ يقولون علينا المحاولة وليس علينا إدراك النجاح .

****

ترحيب مبالغ فيه من مأمور السجن بالقس ميخائيل وهاني الصنباوي وابنته ، اطلع على تصريح الزيارة لم تستطع ملامحه إخفاء ما يعتمل بداخله ، كلف أحد الضباط بإحضار نجيب العزيزي من محبسه بعد أن تبادل معه

نظرة كحديث صامت . عاد الضابط ليخبرهم بأن السجين نجيب العزيزي رفض أن يتحدث مع أحد ، أو يتقابل مع زائريه ، ابتسامة لا تُقرأ فوق شفتي مأمور السجن وقال وهو يحاول الهرب بنظراته نحو سقف الحجرة :

_ آسف ، كنت أود أن تتم هذه الزيارة ، لكن من حق السجين أن يرفض مقابلة أي زائر أو التحدث مع أحد ، ولا نستطيع إجباره لأن القانون يمنع ذلك .

نظرة متشككة تبادلتها الأعين ، نهض القس ميخائيل شاكراً ، تبعه هاني الصنباوي وابنته لوسى ، في خارج السجن كان أول من بدأ بالحديث هو القس ميخائيل قائلاً :

_ إن بعض الظن إثم ، لكن لست أدري لماذا ينتابني الإحساس أن شيئاً غريباً يدور داخل جدران هذا السجن ! .

وعلق هاني الصنباوي قائلاً :

_ نفس هذا الإحساس ينتابني أيضاً !

وقالت لوسي :

_ وماذا تظنان ؟.

أجاب القس ميخائيل مبتسماً :

_ لو كنا نعلم ما كنا ظننا !

الظنون والشكوك لم تدم لوقت طويل ، خرجت الصحف في

اليـوم التالـي تتحـدث عـن حريـق اندلـع فـي أحـد السـجون ، وأن عـدداً كبيـراً مـن المسـاجين التهمتهـم النيـران ، وتضمنـت قائمـة الضحايـا رجـل الأعمـال نجيـب العزيـزي . الخبـر لـم يكـن مدهشـاً سـوى للقـس ميخائيـل وهانـي الصنبـاوي وابنتـه لوسـى ، تحولـت الشـكوك والظنـون إلـى حقيقـة مؤكـدة بـأن لعبـة تمـت داخـل السـجن ، وقـال القـس ميخائيـل محدثـاً لوسـي :

_ أعتقـد أننـي توصلـت الآن إلـى سـر جـواز السـفر المزيـف ، والحريـق الـذي اندلـع داخـل السـجن والادعـاء بـأن أحـد ضحايـاه نجيـب العزيـزي ، مـن المؤكـد أن نجيب خارج السـجن ، بل خارج مصـر كلهـا ، وأنـه وراء تزييـف جواز سـفري ، واختطـاف ابنك .

قالت لوسي والخوف ينطق مع كلماتها :

_ هـذا مـا راودنـي منـذ البدايـة ، وأن القـس الـذي اختطـف ابنـي لـم يكـن سـوى نجيـب العزيـزي متنكـراً أو أحـد رجالـه .

قـال هانـي الصنبـاوي محـاولاً أن يخفـي مخاوفـه التـي تحـاول القفـز إلـى وجهـه حتـى لا يزيـد مـن جـزع ابنتـه :

_ آخـر شـيء كنـت أفكـر فيـه ، ان يكـون نجيـب العزيـزي خـارج القضبـان ، والأعجـب أن هربـه تـم بمعاونـة إدارة السـجن ، هـذا واضـح مـن كذبهـم بـأن نجيـب يرفـض مقابلتنـا ، وأكـده الحريـق الـذي ادعـوا أنـه التهمـه ، أليـس توقيتـه يسـير الدهشـة ؟!!!

وقال القس ميخائيل :

_ أعتقد أنه الآن وضح كل شيء ، تم تدبير هروب نجيب العزيزي من السجن ، واستخدم جواز سفري بعد أن تنكر في ملابس قس للخروج من مصر ، ثم خطط لاختطاف ابنه ، ولا أحد يعرف ما هي خطوته القادمة ؟!!! .

قالت لوسي وقد تملكها الجزع :

_ معنى هذا أنه يمكن أن يكون الآن خارج أمريكا ومعه ابني ، له أعماله في كندا واستراليا ، ومن خطط لكل هذا يمكنه أن يفعل أي شيء ، وخاصة أنه لديه رجاله في كل مكان .

قال القس ميخائيل وقد تأثر بشدة لوجه لوسي الذي احتله شيء أكثر من كلمة الخوف :

_ آسف يا ابنتي ، قد أكون أنا السبب بإبلاغي عنه .

_ بالعكس يا أبي ، إبلاغك عنه أنقذني من العيش مخدوعة مع قاتل ، تخلص من زوجته بأعصاب تخلت عن أبسط قوانين الرحمة بعد سنوات العشرة الطويلة التي أمضياها معاً ، ومما يزيد من جريمته أن زوجته كانت سيدة فاضلة كما علمت .

قال القس ميخائيل بصوت دامع :

_ نعم يا ابنتي زوجته ثمنها يفوق اللآلىء كما قال سليمان النبي ، لم نعرف فيها سوى كل فضيلة ومحبة .

قال هاني الصنباوي وقد انتقل إليه خوف ابنته :

_ يجب أن نعود إلى أمريكا سريعاً ، وأسأل الله أن يكون لا يزال بها ونتمكن من استعادة الطفل ، آسف يا بنتي أنا لا أريد أنا أزيد من مخاوفك ، الموضوع ليس سهلاً ، وخاصة أنه دخل أمريكاً متنكراً في ملابس القس ميخائيل وجواز سفره ، وقد يكون خرج منها بنفس الطريقة ، وخاصة أنه سرق كل الأوراق الخاصة بالطفل .

قال القس ميخائيل ووجهه لا يزال مسرحاً لتفكير عميق :

_ سأقوم بخطوة آمل أن تأتي بما يفيد .

قالت لوسى بلهفة وبعض الأمل :

_ ما هي يا أبي ؟

_ ليليان ابنة نجيب العزيزي ، في بعثة في أمريكا ، هذه الابنة صورة من أمها رحمها الله ، أعرفها منذ أن كانت طفلة صغيرة ، ورثيت لدموعها وقلبها الذي مزقه الحزن على فراق أمها ، جاءت لزيارتي بعد وفاتها ، ورأيت في عينيها حزناً يطحن كيانها ، تركت معي رقم هاتفها بأمريكا وعنوانها ، سأقوم بالاتصال بها فقد يكون لديها أي معلومات قد تفيدنا ، وربما يكون نجيب اتصل بها .

قال هاني الصنباوي بصوت يشوبه الشك :

_ وهل تظن أنها لو لديها معلومات عن أبيها ستخبرنا بها ، وخاصة أنني علمت من حديثك أنها تكن له كل الحب .

قال القس ميخائيل :

_ نعم كما تقول ، لكنها ورثت كل فضيلة أمها ، وأعتقد بعد علمها بالجريمة التي ارتكبها في حق أمها ستكون لها نظرة أخرى ، وخاصة بعد أن أُخبرها باختطافه الطفل من أمه .

****

قال مبتسماً :

_ هل تذكرينني ؟

قالت بوجه هده الحزن :

_ نعم أتذكرك ، لقد رأيتك مع أبي في نيويورك ، كان هذا منذ سنوات ، لكني لا زلت أتذكرك.

قال حامد البستاني ضاحكاً محاولاً أن يزيل الكلفة :

_ أذاً أنت تحملين ذكاء والدك .

قالت بصوت كسير :

_ والدي ، أين والدي ؟ لقد فقدت الأم والأب معاً ، أمي قُتلت واتُهِم أبي بقتلها وحُكِم عليه بالسجن ، لست أعرف كيف سأعود بعد أن تنتهي دراستي ، وكيف سأعيش وحيدة ؟

قال حامد البستاني مبتسماً ومحاولاً أن يستغل ضعفها ويأسها

للموافقة على عرضه :

_ لا ، أنت لست وحيدة ، والدك موجود بجانبك ، وأخوك الصغير الجميل ، الاثنان ينتظرانك لتكونوا أسرة صغيرة جميلة .

قالت ليليان وقد بدا على وجهها عدم الفهم :

_ لست أعرف عن ماذا تتحدث يا أستاذ حامد ، أنا أعلم أن والدي بالسجن وأن أبي لم ينجب سواي .

قال حامد ولا تزال الابتسامة تعلو شفتيه :

_ والدك الآن حر طليق بأمريكا ، والأخ الأصغر أنجبه والدك من زوجته التي تزوج بها هنا في أمريكا ، وكانت هي السبب في ارتكابه لجريمته .

_ من المؤكد أن أبي حر طليق في أمريكا بعد هروبه بطريقة ما ، لأنه ليس من المعقول أن يطلق سراحه بعد ثبوت جريمته ، لكن ماذا عن أخي وكيف ستوافق أمه أن تتركه ليعيش معي أنا وأبي.

_ لقد تمكن والدك من أخذ الطفل منها .

دهشة فوق وجه ليليان وقالت :

_ كيف تمكن أبي من أخذ الطفل من حضن أمه ؟! ، ليس من المعقول أن يكون أخذه بطريقة قانونية ؟! , أرجو أن توضح.

قال حامد البستاني محاولاً أن يخفف من وقع كلماته :

_ لقد تمكن والدك بعد هربه إلى هنا أن يختطف ابنه ، وهو الذي طلب مني أن آتي إليك وأنقل لك رغبته متعشماً أن تسامحيه على فعلته .

_ أرجو أن تحدثني بالتفصيل عن كيفية اختطافه لابنه .

سرد حامد البستاني القصة بكل تفاصيلها التي سمعها من صديقه نجيب العزيزي . وبدت على وجه ليليان مسحة من الشفقة ، لكن عيناها كان بداخلهما حديث آخر ، وقالت :

_ حديثك دفع إلى قلبي الشوق لرؤية أبي وأخي ، لكن كيف ؟!

بدت على وجه حامد البستاني فرحة الفوز في مهمته التي كلفه بها نجيب العزيزي ، لكن ما أدهشه هو قبولها غير المتوقع دون أن تكبده مشقة الإقناع ، كان يخشى مواجهاتها ورفضها المحتمل بنسبة كبيرة ، قال وسعادة تعتمل داخله وتنطق مع كلماته :

_ سينال منزلي شرفاً عظيماً باستقبالك ، والدك والطفل الجميل يقيمان معي الآن ، ولا تتخيلي مدى السعادة التي ستحل على والدك ، عندما يراكِ أمامه ، فأنتِ والطفل الصغير كل ما تبقى له من أمل في هذه الحياة .

قالت ليليان وابتسامة على وجهها :

_ وأنا كذلك ، من فضلك اترك لي العنوان، وسأحضر في

عطلة نهاية الأسبوع . عاد حامد البستاني يحمل الخبر السعيد إلى نجيب العزيزي الذي امتلأ بفرحة غامرة .

****

أصر القس ميخائيل أن يرافق هاني الصنباوي وابنته لوسي إلى أمريكا ، شعور داخلي بدأ يقلقه بأنه السبب في ضياع الطفل من أمه ، لو لم يكن قد أبلغ عن نجيب العزيزي ، ما سارت الأمور بهذا الشكل ، وما كان نجيب اضطر إلى اختطاف ابنه ، تأرجحت أفكاره بين قيام الإنسان بأداء واجبه وبين النتائج ، انتهى تفكيره بأن الضمير وُضع داخل الإنسان لكي يدفعه نحو الخير ، والخير أن لا يترك نجيب العزيزي يفلت بجريمته ، لأن الشر لا يجب أن يترك طليقاً ، هو الوحيد الذي كان يملك دليل إدانة نجيب ، وإن لم يكن قدمه للعدالة كان سيتحمل هو وزر أخطاء لا يسمح بها الدين ، فلو عاد نجيب وفي يده شهادة مزيفة تفيد وفاة زوجته قبل زواجه الثاني ، لأكمل حياته مع زوجته لوسي الصنباوي بالرغم من بطلان زواجه منها ، ومن يدري كان يمكن أن يرتكب جريمة أخرى ، قتل زوجته السيدة الفاضلة ، والذي ارتكب جريمة يمكن أن يرتكب أخرى ، بدليل الشر الذي اقتاده لاختطاف ابنه وحرمان أمه منه ، تمنى لو استطاع أن يعيد الطفل إلى

أمـه ويقـدم نجيـب مـرة ثانيـة للعدالـة ، جلـس وسـط الأسـرة التـي اجتمـع كل أفرادهـا فـي منـزل هانـي الصنبـاوي يتبادلـون الأراء فـي كيفيـة العثـور علـى الطفـل وإعادتـه إلـى حضـن أمـه .

****

لـم يصـدق نجيـب العزبـزي عينيـه وليليـان ابنتـه تقـف أمامـه ، صدقـت فـي وعدهـا لحامـد البسـتاني وذهبـت فـي عطلـة نهايـة الأسبوع إلـى كاليفورنيـا ، وفـي منـزل حامـد البسـتاني رأت أباها ، كانـت المـرة الأولـى بعد ارتكابـه لجريمتـه وهربـه مـن السـجن ، لـم تحـاول أن تنبـش الماضـي ، ممـا أثـار دهشـة أبيهـا ، لكـن دهشـته ذابـت عندمـا شـاهدها تحتضـن أخاهـا وسـيل مـن الدموع ينسـاب فـوق رأسـه ، انفتحـت أبـواب الأمـل أمـام عينيـه ، وأن ما فكـر فيـه وحسـب حسـاباته علـى وشـك أن يتحقـق ، سـيأخذ ابنته وابنـه ويذهـب ليديـر أعمالـه مـن اسـتراليا ، الحريـق الـذي شـب بالسـجن فـي مصـر وتقريـر مأمـور السـجن بأنـه ضمـن الضحايـا طـوى صفحتـه ومعهـا جريمتـه ، سـيوكل ابنتـه لإدارة أعمالـه وهـو مـن خلفهـا يرشـدها ويعينهـا ، ومـن مركـز القـوة سيرسـل إلـى زوجتـه لوسـي يعـرض عليهـا أن تلحـق بـه هنـاك ، بالتأكيـد سـتلين مـن أجـل ابنهـا ، ومـن يـدري فقـد تطـوي هـي أيضـاً صفحـة الماضـي ، وتقبـل أن تعيـش معـه ، وتتحقـق أحلامـه

كلها ، الأفكار السعيدة كلها قفزت إلى رأسه أمام مشهد ابنته وطفله الذي أشرق وجهه بابتسامة طفولية جميلة وهو يداعب بيده الصغيرة وجه أخته ، قال نجيب متشجعاً :

_ أرجو يابنتي أن تنسي الماضي وتغفري لي فعلتي .

قالت ليليان ووجهها خال من أي تعبير :

_ أرجو يا أبي ألا تثير هذه الذكريات الأليمة ، وما حدث قد حدث .

تهلل وجه نجيب العزيزي بفرحة غامرة وقال وهو يظن أنه في حلم :

_ هذا ما توقعته من حبك لي ، وتأكدي أنني منذ اليوم سأكون خادماً لكما .

وقالت ليليان وعلى وجهها حشود من الحنان والعطف :

_ تأكد أنني سأفعل المستحيل لينشأ أخي وهو لا يحمل غصة في حلقه .

قبل رأسها وهو يردد بأنها أثبتت أنها بنت أبيها .

****

بعد ليلة ساهرة مليئة بالأمل ، استيقظ نجيب العزيزي بعد أن قاربت الساعة على الواحدة بعد الظهر ، وجهه يطفح سعادة ، الأمور سارت أكثر انشراحاً وأكثر مما كان يأمله ، لم يتوقع أن تقبل ليليان أن تعيش معه بهذه السلاسة ، ستكون

بمثابة الأم لأخيها الصغير ، لم يتوقع أن تتقبل جريمته وأن توافق على العيش معه دون حتى كلمة عتاب ، كانت قريبة من أمها جداً فما الذي حدث ؟!! ، كيف رحلت عن ذاكرتها بهذه السرعة ، ليلة الأمس تبادلت الضحكات بسخاء معه ومع حامد البستاني ، من الغد سيقوم بالترتيبات ليرحل ثلاثتهم إلى أستراليا مبتعداً عن زوجته لوسي الصنباوي ، يعلم جيداً أنها لن تترك طفلها إلا إذا أصبحت جثة هامدة ، لو ظل في أمريكا لن تهدأ حتى تعثر عليه وتنتزعه من حضنه ، استطاع بسطوة المال أن يهرب من مصر ، في أمريكا لن يفيده المال في الهرب من جريمة الاختطاف ، أطلق صفيراً للحن يهواه ، نهض من فراشه ليستمتع بالجلوس مع ابنته وابنه ، بحث عنهما في أرجاء القصر ، كلف الخدم بالبحث عنهما في الحديقة المترامية الأطراف ، قال وابتسامة على وجهه أن ابنته اصطحبت أخاها في جولة ، أنعشته هذه الفكرة وأطلقت في داخله مزيداً من الاستبشار.

عاد حامد البستاني من الخارج ، استقبله نجيب العزيزي بضحكة تقطر سروراً ، قال ولا يزال فمه مليئاً بالضحكة :

_ ألم أقل لك إن ليليان تشبهني إلى حد كبير ، وأنها من المؤكد ستغفر لي فعلتي .

ابتلع حامد البستاني لسانه ، وبدت على وجهه تعبيرات مختلطة من الرضا والأسف من أجل صديقه ، ففي هذه اللحظة كانت ليليان تطرق باب لوسي الصنباوي في بنسلفانيا ، لتقدم لها طفلها ، حركت دموعها قلب حامد البستاني ، ضحكاتها ليلة الأمس لم تكن سوى خدعة تخدر بها والدها لتهرب بالطفل وتسلمه لأمه ، كانت تعلم بما حدث قبل أن يذهب إليها حامد البستاني ، من محادثة هاتفية مع القس ميخائيل ، قالت لحامد البستاني وسط دموعها إنها لو أعادت الطفل إلى حضن أمه سيخفف هذا من آلامها التي تزداد يوماً بعد يوم على فراق أمها ، رق قلب حامد البستاني وساعدها حتى طارت بها الطائرة إلى بنسلفانيا ، اعترافه كان بمثابة مطرقة هشمت رأس نجيب العزيزي ، لم يقف ليحاسبه على فعلته ، خرج سريعاً وهو ينعت حامد البستاني بأشد الألفاظ قساوة .

****

انطلقت رصاصة من مسدس الضابط لتستقر في رأس نجيب العزيزي وتكتب نهايته ، انطلق خلف ابنته وابنه إلى بنسلفانيا ، تسلل إلى الداخل رافعاً مسدسه في وجه الجميع ليعيدوا الطفل إلى حضنه ، لم يعلم بوجود القس ميخائيل في إحدى الغرف الداخلية ، الذي تسلل على صوت الصياح وشاهد الموقف دون أن يفطن إليه نجيب العزيزي ، عاد على أطراف أصابعه وتمكن من مهاتفة الشرطة ، في لحظات كانت الشرطة تملأ المنزل ، وعندما استدار نجيب العزيزي ليواجههم وهو لا يزال شاهراً مسدسه ، اضطر الضابط أن يطلق رصاصته.

تمت

الأسماء التي وردت بالكتاب ليس لها أية صلة بمن تشابهت أسماءهم .

المؤلف

- **إدوارد فيلبس جرجس**

. **جامعة القاهرة ١٩٦٧**
. **صحفي وروائي مقيم بأمريكا**
. **عضو نقابة الصحفيين**
. **عضو اتحاد الكتاب**
. **عضو نادي القصة**

صدر للمؤلف

• الرواية الطويلة

- شقة للإيجار
- أوديب ثانية
- الرجل لا يجب أن يثرثر
- امرأة مدمرة
- الاختفاء الغامض « خيال علمي »
- محاكمة عزرائيل
- الروح الرابعة « تحت الطبع »

• الرواية القصيرة

- حبيبتي أمريكا
- الراهب
- وقضى ليلة بالمشرحة
- الراقصة والمقامر

- بيض تسكنه الأشباح
- نشالة من نيويورك
- المستنسخون السبعة

• مجموعة قصصية

- أسرار الليل
- مات .. ومازال يقتل
- عين لا تنام

• المسرحية

- أمريكاني من حي الزبالين
- دكتور الأحلام
- مين قال ومين سمع
- النص تور والنص حمار
- محاكمة طبق كشري
- جعجعة الجعجعوني

الفهرس

ليلة من ألف ليله وليله	٥
رفاق المقهى	٢١
نساء ولآلئ	٣٥
إمراة العزيز	٥١
دمية خلف الواجهة الزجاجية	٦٩
مات وما زال يقتل	٨٥
فتاة البار	١٠٣
حدث في ليلة عاصفة	١٢٣
ليلة من ليالي إبليس	١٣٥
شائعة	١٥٣
حواء والتفاحة	١٦٩
ثلاثة أيام قبل نهاية العالم	٢٠١
الاعتراف	٢١٩

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع